فن الخطابة

اسم الكتاب: **فن الخطابة**

المــؤلــــف : **الدكتور إبراهيم البدوي**

إعداد ونشر : **دار القول الثابت**

لوحة الغلاف: **الاستاذ طلال الحاج حسن**

تـــوزيـــع : **دار المحجة البيضاء**

الـطـبـعـــة: **الثالثة**

تاريخ الطبع: **١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م**


بسم الله الرحمن الرحيم

ثبت بمحتويات الكتاب

مقدمة الطبعة الثالثة

بعد حمد الله وشكره على نعمه التي لا تنقضي ، ولا تحصى ، وبعد الصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين ، الرسول العربي ، أفصح من نطق بالضاد ، وهادي البشرية بالقول والفعل ، وعلى آله الميامين ، حملة العلم والكتاب ، وأهل البلاغة وفصل الخطاب ...

فإن هذا الكتاب الموسوم بـ «فن الخطابة» هو كتاب علمي تدريسي ، يجمع بين الأدب والمنطق والفلسفة والتاريخ وعلم النفس في مزيج فريد ، وبأسلوب تعليمي سهل ، وقالب تثقيفي ميسَّر، يأخذ بيد القارئ في جولة إلى عالم خاص ؛ مجاله الإنسان، وغايته الإقناع ، ووسيلته الكلمة ، ما يسمح لذوي المستويات العلمية المختلفة بالاستفادة منه والإقبال عليه .

لهذا لقي من القراء الأعزاء كل ترحيب ، فانتشر في مختلف الأقطار ، حتى نفدت طبعتاه الأولى والثانية .

وخلال اثنتي عشرة سنة ، أي منذ أن رأت الطبعة الأولى منه النور وإلى اليوم، وفقني الله تعالى لتدريسه ما يزيد عن ثلاثين مرة في العديد من المدارس والجامعات والمعاهد الخطابية ، فساهم في صناعة الكثير من الخطباء ، وتسديد

العديـد مـن فرسـان المنـابر فـي مختلـف المجـالات الخطابيـة؛ الدينيـة منهـا ، والاجتماعية، والسياسية .

وبعد تزايد الطلب عليـه رأيـت نفسي ملزماً بإعـادة النظـر فيـه لإخـراج طبعـة جديدة مزيدة ومنقحة ، فأضفت إليه مطالب لـم أكـن قـد التفـتُّ إليهـا مـن قبـل ، وأخرى توصلت إليهـا مـن خـلال ممارسـة تدريـسه ، وثالثـة أدركتهـا مـن خـلال ممارسة الخطابة بنفسي ، وأصلحت ما كان قد ورد فيه من أخطاء يـسير ، وأعـدت إخراج هوامشه بما يسهل على المهتمـين الرجـوع إلـى مـصادره ومراجعـه ، حتـى خرج بهذه الحلة التـي بـين يـدي القـارئ الكـريم ، والتـي أرجـو أن تنـال إعجابـه ويتمكن من الإفادة منه بأقصى درجات الفائدة .

ختاماً ، أوجه الشكر الجزيل إلى كل من ساعد وساهم في إنجاز هذه الطبعة ، وأرجـو مـن القـراء الكـرام ، أهـل الـرأي وأصـحاب الفكـر ، أن يمنـوا علـيَّ بملاحظاتهم وتوجيهاتهم ، لأتمكن من إضافتها إليه لاحقـاً ، ولهـم مـن الله تعـالى الأجر والثواب ، ومني جزيل الشكر والامتنان .

الراجي عفو ربه
إبراهيم محمد البدوي
١٦ / ٥ /٢٠٠٧ م.
٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٨ للهجرة الشريفة

مقدمة الطبعة الأولى

أحمده على ما كان، وأستعين به على ما يكون، وأُثني عليه هادياً إلى الصواب، مخاطباً نبيّه أفضل خطاب بأعظم كتاب .

والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأثبتهم جناناً ، محمدٍ بن عبد الله ، خير من أرسل إلى الأنام نذيراً ، الذي جاء بالقرآن هادياً وبشيراً، وعلى آله الغرِّ الميامين ، نُخبة الأولين والآخرين ، الحائزين على قصب السبق في مضمار البيان والتبيين ، لا سيما ابن عمه الإمام التقي ، صاحب المواعظ البالغة والخطب البليغة ، المرتضى الأكرم علي بن أبي طالب ، وأما بعد :

فقد رأيت أن فن الخطابة أحد الفنون الراقية التي يحتاجها الإنسان أفضل احتياج ، خصوصاً العلماء والمفكرين ومبلغي الرسالة الإلهية وخدمة أهل الوحي والأئمة ، والسائرين على درب الإصلاح والتحرير ، والسالكين طريق القيادة والتدبير ، ورأيت أن للخطابة قواعد وأصولاً لا يمكن لأحد أن يصبح خطيباً ما لم يُراعِها ، سواء أعلم أنه يراعيها أم لم يعلم ، وسواء أعلم بوجود هذه القواعد أم أدى مضامينها بسليقته السليمة .

وقد توهم مَن قال : إن الخطابة لا تحتاج إلى أُصول وقوانين ، لذلك تراه إذا

اعتلى منبراً يخبط خبطَ عشواء ، وهو يحسب أنه أقنع مستمعيه بأفكاره بمجرد عرضه لأدلته المحكمة ، وسيطر عليهم ببراهينه القاطعة ، وهو لا يعلم بأن هناك أموراً لا بُدَّ من مراعاتها ،لم يدرِ بها ، سبَّبت لهم الضجر ، وولدت في نفوسهم السآمة والملل ، فغدوا يعدون الدقائق بانتظار نهاية الكلام ، ثم تأتيه الأوراق من هنا وهناك مكتوباً عليها :

«نرجو اختصار الكلام ، مع كثير الاعتذار . والسلام» .

ورأيت أن ما بين أيدينا من الكتب التي تعرضت لهذا الفن لا تفي بكل احتياجات الطالب له ، لأنها بين كتاب يبحث عن الخطابة من الناحية المنطقية المحضة ، وآخر يبحث عنها من الجهة اللغوية الصرفة . وان وجد ما يحاول الجمع بينهما فهو بين موجز إلى حد لا يكفي لإشباع الرغبة ، ولا للمِّ شتات القواعد والأُصول ، ولا لتوضيحها بالأمثلة أو إحكامها بالشواهد .

وآخر جمعت مباحثه دون تدقيق أو تنظيم ، وغلب عليها طابع التشتت والتفريق ،حتى أن القارئ لا يدري من أين بدأ ، وكيف انتهى ، ولا يعرف ماذا استفاد في نهاية المطاف البعيد . وإذا أراد أن يرجع إلى نكتة قرأها أو فكرة مر بها احتاج إلى مطالعة الكتاب من جديد .

وثالث غابت عنه مباحث كان لا بُدَّ من التعرض لها ، والخوض فيها ، لتتم الفائدة ، وتتضح القاعدة .

ورابع استُطرد فيه بذكر مباحث لا تمت للخطابة بِصِلَة ، ولا تعني المتعلم من قريب ولا من بعيد .

وقد أحببت أن أقدم مجهوداً متواضعاً كخطوة على طريق تكامل هذا الفن ونموه ، ولَبِنة في تتميم هذا البناء وعلوّه . ولا أدّعي لكتابي هذا الكمال ، ولا لنفسي العصمة ، فإنما هما حكر على أهلهما . وغاية ما لدي أنني حاولت الجمع بين شتات هذا العلم مستقرئاً جل ما تعرض له من الكتب ، قديمها وحديثها ، مستعيناً بآراء مَن تقدم ، وتصحيح مَن تأخر .

ثم وشَّحته بشواهد حية من تاريخ اللغة العربية وغيرها ، وزينته بأمثلة من حاضر هذه اللغة وسواها . وحرصت على أن لا أقدم المطلب قبل تمامه ، ولا أتركَ البحث قبل كماله، سالكاً في ذلك منهجية جديدة ، لم أعثر على مَن اتبعها ممن سبق ، اللهم إلاّ مَن أشار إليها من بعيد ، وغمز إليها من طرف خفي ، ثم تركها متوجهاً لتبويب آخر ، لا يسمن ، ولا يغني من جوع .

وزدت على الكتاب فصلاً بعنوان «تطبيقات» ،يأخذ بيد المسترشد إلى عين الهداية ، ويساعده في تطبيق قواعد الخطابة من البداية حتى النهاية ، وفصلاً آخر تحت عنوان «نوادر الخطباء» يجدر بالقارئ مطالعته ليستفيد من أخطاء الماضين فيتجنبها ، ومن أفكارهم المصيبة فيتبعها ، ليشتد بذلك ساعده ، ويدرك به ما هو قاصده .

وفي الختام أهدي هذه الثمرة المتواضعة إلى سيد المنابر العربية ، ومفوَّه الصفوة القرشية ، إمامي وإمام الثقلين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، راجياً قبول هديتي على عيوبها ، فإن الهدايا على مقدار هاديها .

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

الراجي عفو ربه
إبراهيم محمد البدوي

تمهيد

قبل الخوض في مباحث هذا الكتاب ، والتعرض لمطالبه ، نقدم مقدمة موجزة نبين فيها أموراً هامة ، لا بُدَّ من الإطلاع عليها لتكوين فكرة عامة عن هذا العلم الجليل ، والفن العظيم . ويقع البحث فيها في أمور أربعة:

١ ـ تعريف علم الخطابة .

٢ ـ موضوعه .

٣ ـ غايته وغرضه .

٤ ـ واضع هذا العلم .

ـ تعريف علم الخطابة

عرّف أرسطو الخطابة فقال :

«الريطورية قوّة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة».[١]

---

١ ـ أرسطو، الخطابة ، ص ٩ .

«الريطورية» في اللغة اليونانية تعني الخطابة . ويراد من الإقناع حمل المخاطب على الاعتقاد والتصديق بما جاء به الخطيب ، مع الاعتقاد بإمكان أن يكون له ما ينقض به ذلك التصديق .[1]

ويراد من كل واحد من الأمور المفردة أن الإقناع الذي تحصّله الخطابة لا يختص بموضوع دون موضوع . فهو يحصل في جميع الموضوعات على أنواعها المختلفة المعبّر عنها عند الفلاسفة بالمقولات العشر، وبالأجناس العالية، وهي : الجوهر ، والأعراض التسعة : الكم ، الكيف ، الفعل ، الانفعال ، الأين ، المتى ، الوضع ، الملكية ، والإضافة .[2]

لذلك عرَّفها الفارابي في كتابه «الخطابة» ، فقال:

«الخطابة صناعة قياسية ، غرضها الإقناع في جميع الأجناس العشرة»[3].

ـ موضوع علم الخطابة

ليس للخطابة موضوع معيّن تبحث عنه دون غيره . بل تلتمس إقناع الجمهور في جميع أجناس الأمور كما تقدم . فقد تبحث عن وجود جسم ، أو عدمه ، أو تبحث عن طوله ، أو قصره ، أو لونه ، أو فعله ، أو غير ذلك من الأعراض التي تقدمت منا الإشارة إليها . إلاّ أنه مما لا ريب فيه أن هناك قواعد عامة تكوّن

---

١ ـ المظفر ، الشيخ محمد رضا ، المنطق ، انتشارات الفيروزآبادي ، قم ، ج٣ ص ٣٦٩ .

٢ ـ راجع مثلاً : الطباطبائي ، العلامة محمد حسين ، بداية الحكمة ، دار المصطفى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ط.٢ ، ص ٣٥ .

٣ ـ أرسطو ، الخطابة ، مصدر سابق ، ص٧ .

أساس علم الخطابة ، تدور في مجملها حول الخطيب والخطاب والمخاطب ، لذا يمكن تحديد موضوع علم الخطابة بهذه الثلاثة .

من هنا قالوا : إن الخطابة يمكن أن تستخدم في الإقناع بالأمور الطبية مثلاً ، لكن لا بطريق يخص الطبيب ، حتى يُقال : إن موضوعها الطب ، وإنما بقواعد عامة مشتركة بينه وبين غيره من العلوم ، كما سنقف عليه ، إن شاء الله تعالى .

وقد جاء في كتاب «الخطابة» للفارابي توضيحٌ لذلك حيث قال :

إذا قصد صاحب صناعة ما ، نظرية أو عملية ، إلى تصحيح رأي من الآراء التي استنبطها بصناعته عند مَن ليس هو من أهل تلك الصنعة ممَن لا يصلح لتعلمها احتاج أن يكون خطيباً ، أو ينوب عنه في ذلك خطيب .[١]

ـ الغاية من الخطابة

اتضح مما تقدم أن غرض الخطابة هو الإقناع بالمعنى الذي قدمناه في التعريف، أي حمل السامع على الاعتقاد بما قاله الخطيب ، وهذه حاجة عظيمة وغاية جليلة ، قال الشيخ الرئيس :

«إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً ... وقد بيّنا أن البرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الاعتقاد الحق . وبيّنا أن الخطابة هي المتكفلة له . فأحد فضائل هذه الصناعة غناؤها في تقرير هذه الأغراض في الأنفس»[٢] .

---

١ ـ الفارابي ، أبو نصر ، الخطابة ، ص ٣٥.

٢ ـ ابن سينا ، الشفاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ط. ١ ، قسم الخطابة ، مقدمة الدكتور سليم سالم ، ص ٢٢ .

ويتأكد لنا ذلك من تتبع الخطب البليغة في سائر الأزمنة والعصور والوقوف على الأغراض الجليلة التي حققها أصحابها من إقناع الناس والجمهور . فلقد أراد العلماء والفلاسفة العظام إيصال ما عندهم من أفكار إلى الآخرين ، وإظهار ما لديهم من علوم ، لتثقيف الناس ، وخدمة البشرية ، فلم يكن لهم على ذلك معين إلاّ الخطابة . فهي التي تنير المظلم من الآراء ، وتوضّح المبهم من الأفكار ، وتفضُّ المشاكل ، وتقطع الخصومات . وهي التي تهدّئ النفوس الثائرة ، وتثير حماس ذوي النفوس الجبانة . وبواسطة الخطابة يسهل رفع الحق ، وخفض الباطل، وإقامة العدل ، ودفع الظلم .

والخطيب ، بخطابته، صوت للمظلومين ، وأمل لليائسين ، ولسان من لا لسان له. فلا يمكن للمظلوم استرجاع حقه إلاّ بالمطالبة والتعبير عنه أمام المحاكم والقضاة. ولا يمكن لأحد أن يصل لمآربه إلاّ بإقناع أربابها ، وذلك يحتاج إلى أُسلوب سلس ، وعبارة بيّنة ، ولسان فصيح ، وليس هناك إلا الخطيب يتكفل بذلك . وهل يمكن أن ينتصر صاحب حق ، أو مناد بفكرة ، أو داعي إصلاح إلاّ بالخطابة ؟ كيف ، وهي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة ، والثورات الكبيرة التي نفضت بنيان الظلم ، وهدمت قصور الباطل ، وأظهرت مفاهيمها ، وفرضت شعاراتها . فهذه الثورة الفرنسية قامت على ركيزة الخطابة ، إذ هي التي كانت تؤجج نيرانها ، وتذكي لهيبها . وهذه الثورة البلشفية ما كانت لتقوم لها قائمة لولا إقناع الناس بمبادئها وأفكارها عبر طريق الخطابة وسبلها . وأوضح من هذه وتلك الثورة الإسلامية في إيران . فلقد كان زعيمها الخالد الإمام روح الله الموسوي الخميني «قُدِّسَ سِرُّهُ» يهز بخطاباته عرش الشاه محمد رضا بهلوي يوماً بعد

يوم ، إلى أن فرَّ بظلمه إلى الأبد . وانتصر الإمام وشعبه المقتنع بجميع أفكاره الثورية ، حتى كأنهم جزءٌ منه ، يأمرهم فيطيعون ، وينهاهم فلا يعصون .

أنظر إلى قادة الجيوش العظام في قديم العصور وحديثها ، كيف كانوا خطباء مصاقع، لولا ذلك لما أدركوا ما أرادوه . فعلي بن أبي طالب « (عليه السلام) » وغيره من أمثال : زياد بن أبيه ، وطارق بن زياد ، والحجّاج بن يوسف الثقفي ، كانوا خطباء محلِّقين، شهدت لهم بذلك الكتب والتواريخ ، ولذلك انتصروا في معاركهم وحروبهم ، وأخمدوا نار أعدائهم .

وفي العالم الغربي لم يستطع أي من القادة بدءً من «الإسكندر» و«يوليوس قيصر» وانتهاء بـ «نابليون» و «هتلر» قيادة جيوشهم إلا بقدرتهم على الخطابة التي أكدها لنا تاريخهم ، وكتب سيرهم .

والخطابة طريق الإقناع حتى بالآراء الضعيفة ، وسبيل الإلزام حتى بالأقوال السقيمة . ولإيضاح ذلك نستعرض بعض الشواهد التاريخية :

جاء في البيان والتبيين أن مالك بن دينار ، الزاهد المعروف ، كان يقول :

«ربما سمعت الحجّاج يخطب يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه ، وأنه صادق ، لبيانه ، وحسن تخلصه بالحجج».[1]

وذكر المبرد في كتابه الكامل أن عبد الملك بن مروان أتاه رجل من الخوارج، فجعل يبسط له في قولهم ، ويزين له من مذهبهم ، بلسان طلق وألفاظ

---

١ ـ الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٩٢٦ ، ج١ ، ص ٢٤٨ .

مبيّنة ومعان واضحة حتى قال عبد الملك :

«لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأنا أولى بالجهاد منهم . ثم رجعت إلى ما ثبّت الله علي من الحجة ، وقُرر في قلبي من الحق».[1]

ـ واضع علم الخطابة

إن البحث عن مؤسسٍ أو واضعٍ لعلم الخطابة بحثٌ عن الماء في الصحراء . والسر في ذلك يرجع إلى عدم وجود مصادر موثوق بها بين أيدينا يمكنها أن ترشدنا إلى هذا الواضع .

وما يمكن أن يستظهر من خلال الكتب التي تعرضت لتاريخ الخطابة هو أن هذا العلم وجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض ، أو أنه شقَّ طريقه إلى الوجود على أيدي الأنبياء والرسل ، وليس هناك مؤسس معيّن ، أو واضع محدد له .

وما قد يذكر في هذا المجال من أسماء لبعض الشخصيات الخطابية كواضعين له[2]، ليس إلا ضرباً من التخمين والتقدير ، وهما لا يغنيان من الحق شيئاً .

نعم ، لا بُدَّ من القول بأن أول كتاب وضع باحثاً عن قواعد وأصول الخطابة ،

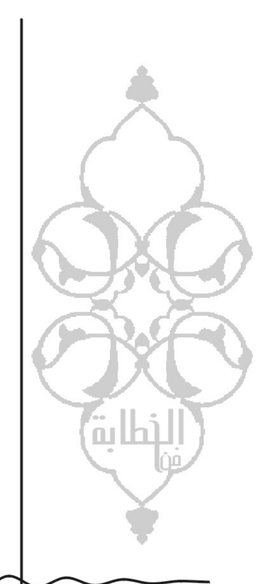
---

١ ـ المبرد ، أبو العباس ، الكامل في اللغة والأدب ، ص ٥٧٣ .

٢ ـ فقد ذكر محمد أبو زهرة في كتابه «الخطابة» ، وتبعه في ذلك الشيخ حسين جمعة ، أنه قيل : إن أول مَن وضع هذه القواعد ثلاثة من السوفسطائيين هم «بريكوس» القوسي المتوفى سنة ٤٣٠ ق.م. و«بروتا غوارس» المولود سنة ٤٨٥ المتوفى سنة ٤١١ ق.م. و«جورجياس» المولود سنة ٤٨٥ المتوفى سنة ٣٨٠ ق.م. ونحن لا نشك بأن لهؤلاء اليد الطولى في تطوير علم الخطابة ، لكن نسبة وضعه إليهم محل تأمل لعدم الدليل عليها .

وعنون بعنوانها ، هو كتاب «ريطوريقا» أو «كتاب الريطورية» لأرسطو ، المعلم الأول . وقد ترجم إلى العربية ترجمتين ، كلاهما تجعلان الاستفادة منه ضئيلة إلى حد ما ، بسبب سقم الترجمة ، وكثرة الأخطاء فيهما . وقد وُضع هذا الكتاب في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولا يحتوي إلاّ على أمهات المطالب ، خصوصاً من الناحية المنطقية ، دون التعرض إلى الجهات اللغوية إلا فيما ندر ، أو فيما يتعلق باللغة عموماً دون تخصيص بلغة معينة ، كما هو شأن علم المنطق ، حيث لا تزال الخطابة تُعد جزءً منه ، وباباً من أبوابه .

نظرة
في
تاريخ الخطابة



من أجل إلمامة موجزة بتاريخ علم الخطابة ، لا بُدَّ من البحث عن المراحل التي مرت بها الخطابة منذ نشوئها إلى نموها وتطورها وحتى رشدها . وعن الظروف التي مرت بها ، والأوضاع التي تطورت في أحضانها ، وما هي العوامل التي أثرت في ازدهارها ورشدها .

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الخطابة إلى ست مراحل :

١ ـ مرحلة العهد اليوناني والروماني .

٢ ـ مرحلة العهد العربي الجاهلي .

٣ ـ مرحلة العهد الإسلامي (صدر الإسلام) .

٤ ـ مرحلة العهد الأموي .

٥ ـ مرحلة العهد العبّاسي وما بعده .

٦ ـ مرحلة العصر الحديث .

ولا بأس بالتعرض لها مرحلةً مرحلة ، والتكلم عن كل واحدة منها بشكلٍ موجزٍ كي لا نخرج عن الهدف الذي وضع من أجله هذا الفصل .

العهد اليوناني والروماني

تضافرت كلمات مؤرخي علم الخطابة على أنَّ أهم مراحل نشأته كانت زمن اليونانيين قبل الميلاد ، وأن المرحلة الأولى من وجوده كعلم يدرَّس كانت في ربوعهم . وقد امتازت «أثينا» ببلاغة خطبائها ، فكانت حقاً بلد الأدب وحسن الإلقاء. فالخطب التي كانت تلقى في «مجلس الأمة» كانت تقرر الحروب ، واتفاقيات السلم ، ووضع القطائع والضرائب ، بل كل الشؤون العظيمة . وعلى ضوء الخطب التي كانت تلقى في محاكمها تصدر الأحكام على المتخاصمين ، وما على الأمة إلا أن تعمل حسب آراء الخطباء ومواعظهم .

ولشدة ما كان للخطابة من تأثير عند الناس استطاع بعض الخطباء أن يصل إلى مرتبة قيادة الجيش ، أو حتى إلى إدارة شؤون المملكة . فقد قيل أن «كليون» الخطيب عُين قائداً للجيش . واستطاع «ديموستين» أن يترأس الحرب ضد «فيليب» المقدوني حين أراد التوجه إلى أثينا لاحتلالها . وأما من الناحية القضائية فقد كان كل صاحب قضية يريد أن يدافع عنها في المحاكم وأمام القضاة محتاجاً

إلى الخطابة والخطباء . فكان عليه إما أن يتعلم ضروباً منها ، ويتمرن عليها كي يتكلم أمام الجمهور ، ويقنع القاضي بها ، وإما أن يلجأ ، كما هو الأكثر ، إلى خطيب قدير يكتب له الخطاب ، ثم يحفظه ليتلوه في مجلس القضاء . لذلك أُخذت الخطابة كمهنة ، مما جعل نموها وتطورها سريعين . وقد اشتهر القول بأن الخطباء اليونانيين كانوا يقبضون المبالغ الطائلة لقاء انحيازهم لمصلحة حزب ما أو فريقٍ معين . فكان الخطيب يلقي خطبه لصالحهم ليقنع الناس بما لديهم من أفكار ومبادئ ، مثلما حصل لـ «آشيل» ، كما يُقال ، حين أخذ مالاً من «مقدونيا» لقاء إلقائه بعض الخطب لصالحها ، أو لـ « ديموستين» حين قبض الدنانير الكثيرة من ملك الفرس لذات الغرض .

ومن منطلق الحاجة إليها على هذا النحو الماس ، وكونها مهنة مربحة تدر المكاسب ، وتجني الأرباح ، كان لا بُدَّ لكثير من الناس أن يطلبوا دراستها وتعلُّمها . وفي المقابل كان على أرباب هذه الصنعة أن يستنبطوا أصولاً وقواعد تتحكم بها وتسهّل تعلمها ، لذلك توجه المعنيون بالأمر في هذا الاتجاه ، وانطلقوا نحو هذا الهدف . وهكذا وجد علم تحت اسم «الخطابة» ، ثم تلاه بعد فترة من الزمن كتاب أرسطو «الريطورية» ، ثم انتشرت الصنعة في البلاد ، واشتهر بها كثير من اليونانيين .

ولم يكن حظ الخطابة عند الرومان بأقل من حظها عند اليونانيين . بل اشتهرت عندهم أيضاً وبشكل واسع ، حتى صار الخطباء يخطبون في الناس في الساحات العامة . واشتهر بها من بينهم «شيشرون» الذي حفظ التاريخ لنا بعض خطبه .

أما روما ففي مستهل التاريخ الميلادي افتُتح فيها مدارس للخطابة كان يُدرَّس فيها عدة كتب ، نسب بعضها إلى «شيشرون» و«كونتيليان» المتوفى سنة ٩٥م . واسم الكتاب المنسوب إليه «تهذيب الخطيب» .

ولإلقاء نظرة أدق على تطورات نشوء علم الخطابة عند اليونانيين والرومان نستعرض كلاماً للدكتور محمد سليم سالم أورده في مقدمته على كتاب الشفاء ، قسم الخطابة ، حيث جاء في مطاوي كلامه :

«إن الخطابة نشأت كفن يُلقَّن وقاعدة تبحث في جزيرة «صقلية» وذلك على أثر الأحداث التي مرّت بالجزيرة بعد طرد الطاغية «ثراسوبولوس» عام ٤٦٦ ق.م. وكان من أول مَن اتجه إلى تعليم الخطابة رجل من أهل الجزيرة يُسمى «كوراكس» وعرفه العربُ باسم «غراب الخطيب» كما جاء في تاريخ الحكماء للقفطي ، وأن «كوراكس» هذا قد وضع لتلاميذه رسالة في صناعة الخطابة . [1]

جاء في كتاب تاريخ الحكماء عن «كوراكس» المعروف بـ«غراب» :

«غراب» الخطيب الصقلي ، أحد حكماء اليونان ، وكان قد عُنيَ من الفلسفة بصناعة الخطابة المنتجة للإقناع ، وقام بها إلى أن مهر فيها ، وتقدم على أهل زمانه، وسار إليه الطلبة لاستفادة ذلك منه ، وكان من جملة قاصديه فتى من يونان يُقال له «ثيناس» ، ورغب إليه في تعلم الخطابة ، وضمن له عن ذلك مالاً معيناً ، فأجاب برغبته وعلّمه . فلما لُقِّنها حاول الغدر به ، ورام فسخ ما وافقه عليه ، فقال له :

---

١ ـ ابن سينا ، الشفاء ، مصدر سابق ، ص١١ .

«يا معلم حدَّ لي الخطابة» . أي عرّفها لي .

فحدَّ بأنها : «مفيدة الإقناع» . فتمسك بالحد ، وبنى عليه قياساً ، وقال :

«إنني أناظرك الآن بالأجرة ، فإن أقنعتك بأني لا أدفعها إليك لم أدفعها ، إذ قد أقنعتك بذلك . وإن لم أقدر على إقناعك ، فلست أعطيك شيئاً ، لأني لم أتعلم منك الخطابة التي هي مفيدة للإقناع» .

فأجابه المعلم وقال : «وأنا أيضاً أناظرك . فإن أقنعتك بأنه يجب لي حقي منك أخذته أخذ من أقنع. وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد أنشأت تلميذاً يستظهر ـ أي يغلب ـ معلمه» .

فقال مَن حضر : «بيض رديء لغراب رديء». أي تلميذ نَكِد لمعلم نَكِد .[1]

ويتابع الدكتور سالم فيقول : «وجاء بعده ـ أي بعد غراب ـ تلميذه «كيسيان» الذي كان من عادته أن يكتب خطباً يتقاضى عنها أجراً .

وقد ذكر ذلك القفطي في موضع آخر . وقد أقام مدرسته في «سراقوسة» ، ولما لم يطب له المقام انتقل إلى «ثورى» عام ٤٣٣ ق.م. وقد درس عليه «لوسياس» في مقره الجديد ، ثم أصبح «لوسياس» فيما بعد من أشهر خطباء «أثينا».[2]

«ثم إن «كيسيان» كان ضمن أعضاء الوفد الذي أرسلته بلدة «ليونتين» لطلب العون من أثينا عام ٤٢٧ ق.م. فاستطاب العيش فيها فاشتغل بتدريس الخطابة ،

---

١ ـ القفطي ،تاريخ الحكماء ، ص ٢٥٣ .

٢ ـ الشفاء ، الخطابة ، مصدر سابق ، ص١٢ .

ودرس عليه «ابوقراطس»...ثم جاء بعدهم «ثراسوماخوس» فابتدع أسلوب النثر الموزون كما ينقل ذلك «شيشرون» في كتابه «الخطيب» . ثم جاء «أفلاطون» فوضع كتابين في الخطابة هما «جورجياس» و«فيدروس» . ثم جاء «أرسطو» ووضع عدة كتب في الخطابة قبل أن يضع كتابه الأخير المسمى «ريطوريقا» . ومن المرجّح أن يكون «أرسطو» قد ألف هذا الكتاب بين عام **٣٣٥** و **٣٣٠** ق.م. في «أثينا» .

ثم شُرح هذا الكتاب شروحاً أهمها شرح الفارابي وشرح ابن سينا في الشفاء ، وكان أبو علي قبل ذلك خصّه بفصل موجز في كتابه «الحكمة العروضية» ، الذي هو أول مؤلفاته حيث يُقال : إنه وضعه وهو في الحادية والعشرين من العمر »[1].

ـ «ديموستين» .. خطيب «أثينا» الأوحد

ربما يكون «ديموستين» ألمع شخصية خطابية في العهد اليوناني على الإطلاق، حتى صار مضرباً للمثل عند أهل هذه الصنعة وأرباب هذا الفن . وأرى أنه من تمام الفائدة الإحاطة ببعض أخباره والإطلاع على نموذج من خطبه .

ولد «ديموستين» في «أثينا» عام ٣٨٤ ق.م. توفي أبوه وهو في السابعة من عمره، وترك له ثروة كبيرة ومصنعين ، أحدهما لصنع الأسلحة ، لكن أوصياءه الثلاثة بدّدوا ثروته . فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحسابٍ عن الثروة . ودخل معهم في نزاع قضائي دام ثلاثة أعوام.

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ١٨ .

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى في قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه في الكلام ، فصمّم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيباً قادراً على الكلام والمرافعة فتتلمذ على «أسايس» الذي كان من علماء القانون .

يتحدث الرواة عن الجهود المضنية التي بذلها «ديموستين» في تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته نفساً طموحة إلى التحليق ، ولكنها قصَّت من جناحيه ، فصمّم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التي يريدها . وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

يروي المؤرخ «بلوتارك» أن «ديموستين» شيّد لنفسه حُجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة . وكان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء . وكان يضع الحصى في فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه . وكان يصعد عدْواً وهو ينشد أبياتاً من الشعر بصوت رفيع ، أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج . وكان يحلق نصف رأسه ليُرغم على ملازمة حُجرته الشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعاً إلى دراسته وتمرينه . وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكللت جهوده بالنجاح ، ولم يعد يخشى الجمهور . فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ، ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية ، بل خطيب «أثينا» الأعظم. ومن عجبٍ أن هذا اللسان الذي كان يثقل في فمه أصبح لسان «أثينا» الذي ينفث السحر ، ويلهب الحماسة ، حتى قال عنه «فيلون» المؤرخ اليهودي (٢٠ ق.م.– ٥٤ م.):

«إننا إذ نسمع «ديموستين» لا نفكر في كلماته . فهو يبرق ويرعد ، وهو سيل جارف ، فلا نستطيع أن ننتقده ، أو نعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا »[1] .

أما بالنسبة للخطب التي ألقاها فقد كانت بمعظمها خطباً سياسية ، يثير فيها حماس اليونانيين لأجل الدفاع عن أنفسهم ضد الملك فيليب المقدوني والد الإسكندر ، وقد كان يريد أن يحتل «أثينا» . وسميت تلك الخطب بالخطب الفيليبية (نسبة إلى «فيليب»). استمع إليه في الخطبة الفيليبية الأولى وهو يقول :

«أيها الأثينيون ، حتى متى سكوتكم وإخلادكم إلى التواني ؟ متى تدب الحياة في عروقكم ؟ ويسري الشعور بالواجب في أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أي دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد مجدها بالزوال ، وشرفها بالتمزق ، وكلمتها بالتفرق ؟ إنه لعار لن يفارقكم ، ولن يمحوه الموت يوم يواريكم في قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك ، يسأل بعضكم بعضاً عمّا جاء من أنباء «فيليب» ، فيقول واحد: «إنه مات». ويقول الآخر : «بل هو مريض» ؟

يا عجباً! ... عجباً يمزق القلب ... أي نبأ هناك غير أن مقدونياً يسعى لقهر «أثينا» وسحق مجدها ، واستعباد اليونانيين جميعاً ؟

ماذا عسى أن يصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضّت على رأسه مصيبة من السماء ؟

---

١ ـ عن : أحمد ، أنور ، خطباء صنعوا التاريخ ، ص٧ – ٩ . بتصرف .

وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليُسلطنّ عليكم «فيليب» آخر ليس دون هذا في الشدة عليكم . فإن «فيليب» ما قوي اليوم إلاّ بضعفكم ، ولا تحرك إلا بسكونكم »[1] .

ولعمري إن هذا الطراز من الخطابة السياسية كفيل بدب الحماس في أضعف النفوس ، واستثارة أوهن العزائم واستكمال أنقص الهمم .

وهكذا نستخلص أن اليونانيين والرومان هم الذين بذروا بذور الخطابة وسقوها السجال الأول ، حتى أينعت غرستها ، واستطعم الناس ثمرتها .

---

١ ـ المرجع السابق ، ١١و١٢ .

العهد الجاهلي

كان للخطابة في العهد الجاهلي العربي شأن عظيم ، إذ كانوا يستخدمونها في كثير من مجالات حياتهم ، ويعتمدون عليها اعتماداً قوياً . فكانوا يحتاجونها في منافراتهم ومفاخراتهم ، وفي النصح والإرشاد ، وفي الحث على القتال ، وفي الدعوة إلى السلم وحقن الدماء ، وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف . وكانوا يخطبون بالأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء محدثين عن مفاخراتهم بقبائلهم وعد محامدها ومحاسنها[1] .

وكان للعرب في العصر الجاهلي تأثير قوي في نمو الخطابة ورشدها حيث كانوا يحترمون الخطيب ويعظمونه ، وكان له عندهم منزلة عظيمة . بل كان له منزلة فوق منزلة الشاعر . يقول في ذلك أبو عمرو بنُ العلاء :

«كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشِّعر الذي

---

١ ـ ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٢٧ .

يُقيِّد عليهم مآثِرهم ويفخِّم شأنَهم، ويهوِّلُ على عدوِّهم ومَن غزاهم، ويهيّب من فُرسانهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعرُ غيرهِم فيراقب شاعرَهم، فلمّا كثُر الشِّعر والشعراء، واتخذوا الشِّعر مَكْسَبَةً ، ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرَّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيبُ عندهم فوقَ الشاعر »[1].

والظاهر أن تفوق الخطيب على الشاعر عندهم ليس فقط لما ذكره عمرو بن العلاء ، وإنما لأسباب متعددة أُخرى . منها أن الخطابة كانت من مختصات ساداتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل العظام ، ومن أجل ذلك تقترن الخطابة بالحكمة والشجاعة . ويتضح ذلك في مراثيهم ومدائحهم لسادتهم كما في قول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة :

أبا دليجة مَن يكفي العشيرة إذ أمسوا من الأمر في لبس وبلبالِ

أم مَن يكون خطيب القوم إن حفلوا لدى الملوك أولي كيدٍ وأقوال[2].

ومنها : أن الخطيب يشارك الشاعر في وظيفته كالمفاخرة والمنافرة والمدح والهجاء والحض على القتال ، ويزيد عليه بأمور كالوفادة على الملوك والنصح والإرشاد . وقد يكون من أهم الأسباب التي ميزت الخطيب عن الشاعر أنه كان يدعو إلى السلم ، وأن تضع الحرب أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلاّ إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب[3] .

---

١ ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٧٠ .

٢ ـ ديوان أوس بن حجر ، ص٢٢ .

٣ ـ ضيف ، شوقي ، مصدر سابق ، ص٢٨ و٢٩ .

ويعزو بعضهم سبب ازدهار الخطابة عند العرب عموماً إلى البيئة والظروف الطبيعية التي كانوا يعيشونها ، مثل كونهم يعيشون في صحراء جرداء يندر فيها الماء والكلأ ، مما جعلهم في شظف من العيش يطمعون بشيء من الراحة والبحبوحة عبر نهب القبائل الأُخرى ، وذلك يحتاج إلى تدبير وسياسة من جهة وجرأة وشجاعة من جهة أُخرى ، وهما لا يستقيمان إلاّ بالخطابة . وبما أن هذه البيئة كانت تولّد عند الناس روحاً شريرة ، كان لا بُدَّ من الخطابة فيهم لنصحهم وإرجاعهم إلى الرشد والصواب . ولذلك تصدى بعض الخطباء للدعوة إلى الفضيلة والحث عليها ونبذ العادات السيئة والخرافات الباطلة ، وكان من هؤلاء الخطباء أكثم بن صيفي وقِس بن ساعدة الأيادي .

وكان للخطابة عند العرب منزلة رفيعة ومجد أثيل من ناحية أخرى ، وهي أن العرب عموماً كانوا ، مع ما ذكرنا من صعوبة العيش ، ذوي نفوس مرهفة الحس ، وكأنهم جميعاً شعراء خياليون ، لذا كان للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ، وتأثير قوي على مشاعرهم . فالعبارة البليغة تقيمهم وتقعدهم بما تثير في خواطرهم من الخيال ، وتحرك فيهم من الأحاسيس . لذلك تمسكوا بالخطابة كأحد أهم أساليب التعبير عندهم .

أما بالنسبة لمن اشتهر من الخطباء الجاهليين فقد تردد في كتاب البيان والتبيين وغيره من الكتب الأدبية والتاريخية أسماء طائفة كبيرة منهم ، عرفوا بالفصاحة ووضوح التعبير والبيان الصحيح ، ما جعل الأسماع تهش إليهم . وكانوا ينتشرون في الجزيرة بمكة والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية .

أما مكة فقد كان فيها دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها[1] ، وهي أشبه بمجلس شيوخ مصغّر ، وكان يجتمع فيه سادة العشائر القرشية يتشاورون في أمورهم وفي أثناء ذلك يخطبون ويتحاورون.

وكان من خطبائهم المفوهين عتبة بن ربيعة ، وهو خطيب قريش يوم بدر ، وسهيل بن عمرو الأعلم.[2]

أما المدينة فقد ذكر الجاحظ من خطبائها الكثيرين أمثال قيس بن الشمّاس وابنه ثابت خطيب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وسعد بن الربيع.[3]

وأما خطباء البوادي فقد اشتهر منهم ابن عمّار الطائي ، وهو خطيب مذحج كلها ، وهانيء بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذي قار ، وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة ، وربيعة بن حذار خطيب بني أسد ، وسحبان بن وائل خطيب باهلة[4]، وهو الذي يقول :

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت أما بعد أني خطيبها

وهو الذي يضرب به المثل فيُقال: «أخطب من سحبان وائل»[5].

---

١ ـ الحميري ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص٣٣١ .

٢ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٢٠٧ .

٣ ـ المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤٧ و ٢٣١ .

٤ ـ الأصبهاني ، أبو الفرَج ، الأغاني ، ج٢١ ، ص٦٥ ، وج١٠ ، ص٦١ ، وج٢٠ ، ص١٣٧ .

٥ ـ الميداني ، أحمد بن محمد النيسابوري ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار القلم، بيروت ، ج١ ، ص٢٤٦ .

ومن خطباء البادية أيضاً عمرو بن كلثوم خطيب تغلب ، وهيذان بن شيخ ، وهو الذي قال فيه رسول الله (ﷺ) : «رب خطيب من عبس». والعشراء بن جابر، وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار ، وقيس بن خارجة بن سنان. ويُقال : إنه خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل[1] ، وكل هؤلاء من غطفان .

ولم تشتهر قبيلة بالخطابة كما اشتهرت أياد وتميم . ومن أياد قس بن ساعدة الذي يروي الجاحظ أن رسول الله (ﷺ) قال عنه :

«رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر ، وهو يخطب في الناس ، ويقول :

«أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا . مَن عاش مات ، ومَن مات فات ، وكل ما هو آت آت ... آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ونجوم تمور ، وبحور تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم حُبسوا فناموا؟»[2] .

وفي سيرة ابن كثير :

«إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً . ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ أقسم قِسٌ بالله قسماً لا ريب فيه ، إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ».

ثم أنشأ يقول :

---

١ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ،ج١ ، ص٩٢ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

في الذاهبين الأوليـ ـن من القرون لنا بصائر

لمّـــا رأيــت مصارعـــاً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يمشي الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر[1]

وقس بن ساعدة هو الذي يضرب به المثل فيُقال: «أبلغ من قس» .و«أخطب من قس»[2].

وقد كان للخطباء في الجاهلية عادات وتقاليد خاصة بهم . منها : أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار . وكان من عاداتهم لوث العمائم[3] على رؤوسهم ، والإشارة في أثناء خطبهم بالعصي والمخاصر[4] والقنا والقضبان والقسي[5] .

وقد كانوا يتفاخرون بهذه العادات ويعدونها من مكملات الخطابة كما يشير إليه قول الشاعر :

يصيبون فصل القول في كل خطبة إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر[6]

وقول الآخر :

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر[7]

---

١ ـ ابن كثير ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص١٥٢ .
٢ ـ مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٢٦٢ .
٣ ـ لوث العمائم : لفها ، وعصبها .
٤ ـ المخاصر : جمع مخصرة ، وهي ما يتكأ عليه كالعصا .
٥ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٧ .
٦ ـ مجموعة من الأساتذة ، الخطب والمواعظ ، ص١٦ .
٧ ـ أبو زهرة ، محمد ، الخطابة ، قسم تاريخ الخطابة ، ص٢٥ .

وكانت الخطب الجاهلية تتميز بخلوها عن التكلف ، ولا يُرى فيها للصناعة أثر، لأنها في الغالب كانت تصدر ارتجالاً ، وعن طبع وسليقة ، لذلك قلّت فيها المحسنات اللفظية كالجناس والتورية ونحو ذلك . ومن الملاحظ أيضاً أنهم كانوا في بعض الأحيان يسجعون في خطبهم . وبالسجع اشتهر الكهان حتى قيل :«سجع الكهان».

ومن نماذج خطب العهد الجاهلي ما جاء في مجمع الأمثال عن ابن سلام الجمحي قال :

«لما ظهر النبي (صلى الله عليه وآله) بمكّة ، ودعا الناس إلى الإسلام ، بعث أكثم بن صيفي ابنه حبيشاً ، فأتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقال :

«يا بني تميم ، لا تحضروني سفيهاً ، فإنه مَن يسمع يخَل . إن السفيه يوهن من فوقه ، ويثبت من دونه ، لا خير في مَن لا عقل له ، كبرت سنّي ، ودخلتني ذلة ، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه ، وان رأيتم مني غير ذلك فقوموني استقم .

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابُه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة محمد(صلى الله عليه وآله) ومساعدته على أمره أنتم . فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وان يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه ، وبالستر عليه .

وقد كان أسقف نجران يحدّث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به

قبله، وسمى ابنه محمداً.

فكونوا في أمره أولاً ، ولا تكونوا آخراً (كذا) . أتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين . إن الذي يدعو إليه محمد (صلى الله عليه وآله) لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً . أطيعوني واتبعوا أمري أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حي في العرب وأكثرهم عدداً وأوسعهم داراً .

فأني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلاّ ذل ، ولا يلزمه ذليل إلاّ عز . إن الأول لم يدع للآخر شيئاً . وهذا أمر له ما بعده . ومَن سبق إليه غمَرَ المعالي ، واقتدى به التالي . والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز»[1] .

---

١ ـ مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٦٧ .

العهد الإسلامي

فتحت الخطابة عينيها على عهد جديد مع مستهل البعثة النبوية . وبدأت مع بدء رحلة الإسلام مرحلة جديدة صقلت حدّها ، وقوّمت من أودها ، ثم سكبتها في قالب الدين الحنيف ، وجعلتها نعم السلاح للمصلحين الاجتماعيين ، ونعم المعين للهداة والمبشرين .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخطب العرب قاطبة ، وكثيراً ما كان يخطب في قريش يدعوهم إلى الدين الحنيف ، والدخول في طاعة الله ورضاه .

وقد نقل لنا التاريخ معظم خطبه ، إن لم يكن كلها ، فكانت مثالاً يُحتذى ، ودروساً تُتعلم في عذوبة ألفاظها وجمال معانيها ، وكانت تمثل أفضل الطرق في الكلام مع الناس ، وأحسن الأساليب في الدعوة إلى الحق بالكلمة الطيبة والقول الحسن . ويذكر انه كان يطيل خطبه أحياناً في بعض المناسبات إلى ساعات، ويختصرها أحياناً إلى عدة جمل حسبما يقتضيه المقام .

ومع مستهل الهجرة الشريفة قدَّم الدين الجديد للناس نوعاً جديداً من الخطابة أدخلها مرحلة التقنين الديني ، وصيّرها فريضة على المسلمين عموماً ، مكتوبة كل يوم جمعة قبل صلاة الجمعة التي هي أحد المظاهر العبادية السياسية للإسلام ، وكذلك في يومي العيدين بعد الصلاة . وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من ضروب الخطابة لم يُعهد في الجاهلية ، بل لم يعرفه التاريخ .

وبما أن خطب الجاهلية كانت كما أسلفنا اجتماعية تدور في غالبها حول المنافرة ، والمفاخرة ، والتفاضل بين العشائر بالنسب والجاه ، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التكاثر والتفاخر بالأحساب والأنساب ، فقد اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة[1] ، وصار في طي النسيان . وبذلك حل نوع مكان نوع . وارتقت الخطابة في هذا العهد رقياً واضحاً تميزت به عن الخطابة اليونانية والجاهلية. و كان أول مراتب رقيها على يد الرسول الأعظم ، كما أسلفنا ، حيث كان (صلى الله عليه وآله)في خطابته وأحاديثه لا يستعين بخلابة ولا تزويق ، وقد برأت ألفاظه من الغرابة والتعقيد والكراهة ، وهي مع ذلك ألفاظ جزلة ، لها من البهاء والرونق ما تعمر به القلوب ، وترتاح إليه الأسماع ، وتهوي إليه الأفئدة ، وتجتمع عليه النفوس المتباينة الأهواء، وتساق إليه بأزمتها .

وقد تميزت خطبه وأحاديثه (صلى الله عليه وآله) بالدقة في التعبير ، وكان يحث أصحابه على ذلك أيضاً . استمع إليه وهو يقول : « لا يقولنَّ أحدكم : "خبثت نفسي" ، ولكن ليقل : "لقِسَت[2] نفسي" »[3] .

---

١ ـ راجع : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، مصدر سابق ، ص٥٢ .
٢ ـ يُقال : لقست نفسه إلى الشيء لقسا إذ نازعته إليه وحرصت عليه .
٣ ـ الجاحظ ، الحيوان ، ج١ ، ص٣٣٥ .

فَكَرِهَ أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه ، ولو باللفظ .

وتميزت الخطابة في صدر الإسلام بترتيبها وتقسيمها . ومما أثر في رفع مستواها أيضاً أن الخطباء كانوا يستشهدون بكلام الله في ضمن خطبهم ،فيعطى الخطاب بذلك رونقاً وجمالاً ، ويزداد حلاوة وعذوبة ، ويشد المستمعين إليه الذين كانوا على علاقة قوية بالقرآن لحداثة عهده .

وهكذا ، علا شأن الخطابة ، واشتد أوارها ، وصارت حاجة الناس إليها أقوى، وتطّلع التاريخ إليها أكثر . فبقوة المنطق وبراعة البيان استطاع علي بن أبي طالب(عليه السلام) وابن عباس إقناع ثُلثي الخوارج بخطئهم حين خرجوا عليه في أول أمرهم، فعادوا إلى الكوفة .

وكانت مجالس المناظرة بين شيعة علي (عليه السلام) وأنصار معاوية ميداناً يتبارى به الخطباء . وكان لا بُدَّ للخليفة أو الوالي أو القائد من أن يكون خطيباً ناجحاً ، وإلاّ طعن في كفاءته لتولي الأمر . كل ذلك لِما كان لها من مكانة وعلو شأن عندهم.[1]

اشتهر في صدر الإسلام خطباء كثيرون بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب وابنيه الحسنين ، منهم : سعد بن عبادة ، وأبو الأسود الدؤلي ، وعمار بن ياسر، وأبو بكر ، وعمر ، والزبير بن العوام .

وكان من ألمع هؤلاء عبد الله بن عباس الذي قال عنه الجاحظ :

«ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبد الله بن عباس . قالوا :

---

١ ـ النص ، إحسان ، الخطابة العربية ، ص٤٧ . بتصرف .

خطبنا بمكّة خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا . وذكره حسان بن ثابت في شعره فقال :

إذا مـا اِبـنُ عَبّـاسٍ بَـدا لَـكَ وَجهُـهُ رَأَيـتَ لَـهُ فـي كُـلِّ أَحوالِـهِ فَـضلا

إذا قــال لــم يتــرك مقــالاً لقائــل بملتقطــات لا تــرى بينهــا فــصلاً

كفى وشفى ما في النفوس ولم يـدع لذي أربـة فـي القـول جـداً ولا هـزلا

ســموت إلــى العليــا بغيــر مــشقة فنلــت ذراهــا ولا دنيــا ولا وغــلا

وكان يسمى «البحر» ، و «جد قريش» . وقد روي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال فيه: «اللهم فقهه في الدين ، وعلّمه التأويل»[1].

وأكثر مـا وصـلنا مـن خطـب صـدر الإسـلام خطـب الإمـام علـي بـن أبـي طالب(عليه السلام) التي جمعها الشريف الرضي في كتاب سمّاه «نهج البلاغـة» . وهـي تدل على غزارة علمه ، وتعمقه في سبر غور هـذا الفـن ، وتـسلطه علـى زمـام هـذا العلـم . ولا يـسمع مـا عـن بعـض شـانئيه وحاسـديه مـن أن الـشريف الرضـي أو المرتضى هو الذي وضع هذه الخطب ونسبها إليه (عليه السلام) . ومَن تأمـل فـي مـا ورد في الكتاب من خطـب ، وعقـل مـا فيهـا مـن المعـاني الجديـدة والأفكـار العميقـة والإحاطة بالأمور والمسائل تيقن بأن ما قالوه لا يعدو كونه للنيل مـن شـأنه وسـلبه حقه في التربع على عرش الفصاحة والبلاغة بعد النبي الأكـرم (صلى الله عليه وآله) . وقـد نقـل هذه الاتهامات الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربـي»[2] عن جماعة عرفـوا واشـتهروا بالعـداء لعلـي (عليه السلام) وآلـه . ورد علـيهم الـسيد عبـد

---

١ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٢١٥ .

٢ ـ راجع : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، مصدر سابق ، ص٦١ .

الزهراء الحسيني الخطيب في كتاب من أربعة أجزاء ذكر فيه مصادر خطب نهج البلاغة مما ألف قبل عصر الشريف الرضي ، أسماه : «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» .

ونستعرض بعض خطبه (عليه السلام) في خلال البحث كشواهد وأمثال على القواعد والأصول التي سنبينها في مكانها إن شاء الله .

العهـد الأمـوي

ازدهرت الخطابة في العهد الأموي ازدهاراً كبيراً كان تتويجاً لما صارت إليه الخطابة العربية . وقد هيأت لهذا الازدهار وأثرت فيه أمور عديدة ومختلفة ، منها السياسي ، ومنها الديني ، ومنها العلمي .

أما من الناحية السياسية فقد كثرت الأحزاب المعارضة لبني أمية ، وكثر الثائرون عليهم ، وازدادت الحروب الداخلية والانشقاقات .

١ ـ الخوارج

فمن المعلوم أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان وما انتهت إليه من الحروب كالجمل وصفين والنهروان . وذلك حينما قبل علي (عليه السلام) التحكيم في حرب صفين تحت ضغط ممن كانوا في صفوفه ، حيث خرج عليه فريق من جيشه سمي فيما بعد بالخوارج ، وشهروا السيوف في وجهه ، وهددوه بالقتل إن

هو لم يقبل بالتحكيم .

وعبثاً حاول هدايتهم ، والعودة بهم إلى جادة الحق ، والانخراط من جديد في صفوف جيش المسلمين . فحاربهم ، وقضى على تمردهم عندما رآهم مصرين على الباطل يعيثون في الأرض فساداً . ولم يّبْقَ منهم بعد معركة النهروان إلاّ قلة نادرة[1] سعت في الأرض تؤلب عليه ، وتحوك المؤامرات إلى أن اغتاله أحدهم ، وهو يصلي صلاة الصبح في محراب مسجد الكوفة .

وبذلك خلص الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وخلفائه من بني أُمية . وظل الخوارج يدعون لأنفسهم إلى أن تبعهم فريق من الناس ، وقوي أمرهم نوعاً ما ، فبدءوا بمعارضة بني أُمية يدعون للجهاد ضدهم ، وبذلك صاروا حزباً سياسياً في مواجهتهم .

اشتهر من الخوارج خطباء كبار ، كانوا يستعملون قدرتهم الخطابية للدعوة إلى مواجهة الأمويين والخروج عليهم ، لاسيّما أنهم كانوا يعتبرونهم غاصبين للخلافة، إذ كانوا يرون أن الخلافة لا تكون إلاّ في قريش ، وأن يكون الخليفة خير الناس وأتقاهم وأعلمهم . ومن المعلوم أن بني أُمية لم يكن فيهم أحد على هذه الصفات .

فمن هؤلاء الخطباء : زيد بن جندب خطيب الأزارقة ، وابن صدّيقة ، وشبيل بن غرزة الضبعي ، والطرماح بن حكيم الطائي ، وعمران بن حطان ، وحبيب بن خدرة الهلالي ، والمقعطل ، وعبيدة بن هلال اليشكري ، والضحاك بن قيس

---

١ ـ ورد في بعض كتب التاريخ أنه لم يبقَ منهم إلا تسعة نفر .

الشيباني ، والنصر بن ملحان[1] .

وكان أبرز مَن اشتهر من خطباء الخوارج قطري بن فجاءة وأبو حمزة الخارجي. وقد احتفظت كتب الأدب بموعظة رائعة للأول[2] ، وروى الجاحظ خطبة طويلة للثاني ألقاها في أهل مكة ، وتعد من أروع الخطب الخارجية.[3]

٢ ـ الشيعة

وبعد استشهاد سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (صلى الله عليه وآله) في واقعة الطف،تتالت الثورات الشيعية على الأمويين مطالبة بدمه الطاهر الذي سفكته جيوشهم عدواناً وظلماً . وبذلك برز الشيعة كأحد الأطراف الرئيسية التي تقف في وجه الدولة الأموية ، مما أوجد أرضية مناسبة لخطباء شيعة يدعون الناس للوقوف في وجه هذا الحكم الظالم الذي سفك الدماء الطاهرة للحسين(عليه السلام) وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، في أرض كربلاء دون ذنب أو جريرة .

واشتهر من هؤلاء الخطباء علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام) الذي سجلت له كتب التاريخ خطبة رائعة في مجلس يزيد بن معاوية ، ثم المختار الثقفي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وبنو صوحان ، أمثال : صعصعة بن صوحان، وزيد بن صوحان ، وسيحان بن صوحان[4] .

---

١ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٩ و٥٢ ، و٢٢٢ و٢٢٤ وج٣ ، ص١٥٤ .
٢ ـ الأندلسي ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، دار الهلال ، بيروت ، ج٤ ، ص١٤١ .
٣ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٠٠ .
٤ ـ الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ج٣ ، ص٥٤٥ .

٣ ـ المعتزلة

وأما من الناحية العلمية فقد ظهر المعتزلة ، واشتهر منهم عدة خطباء أهمهم واصل بن عطاء الذي استطاع أن يلقي خطبه منزوعة الراء لأنه كان يلثغ بها بشكل قبيح .

قال عنه بشار بن برد في ذلك ، على ما أورده ياقوت الحموي :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا — وحبَّروا خطباً ناهيك من خطبِ
فقام مرتجلاً تغلي بداهته — كمرجل القين لما حف باللهبِ
وجانب الراء لم يشعر به أحد — قبل التصفح والإغراق في الطلبِ

... ولما قال بشار بالرجعة ، وتتابع على واصل ما يشهد بإلحاده قال واصل:

أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المشنّف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله، أو في حفله ، ثم لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي.

فقال : «أبو معاذ» ، ولم يقل «بشار»، وقال: «المشنف» ، ولم يقل : «المرعث» ، وكان بشار يُنبز بالمرعث . وقال: «من سجايا الغالية» ، ولم يقل : «الرافضة» . وقال: «في منزله» ، ولم يقل : «في داره» . وقال: «يبعج» ، ولم يقل : «يبقر» . كل ذلك تخلصا من الراء[١].

---

١ ـ الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ترجمة واصل بن عطاء .

٤ ـ الأمويُّون

ونتيجة للحركات المعادية للأمويين كان لا بُدَّ أن يكون هناك خطباء مؤيدون لهم ، يقابلون خطباء أعدائهم . وقد برز جمع كثير منهم ، أهمهم على الإطلاق زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفي . وكان هناك آخرون أقل شهرة أمثال : عتبة بن أبيه ، وخالد بن عبد الله القسري ، و الحسن البصري ، والأحنف بن قيس . وقد اشتهر بها من قادة جيوشهم موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وكان بربرياً ، وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس ، وقتيبة بن مسلم ، ونصر بن سيّار اللذان فتحا بلاد تركستان .

وكنتيجة طبيعية لهذه المطاحنة السياسية والعلمية لمع نجم الخطابة في سماء العرب والمسلمين ، وارتفع شأنها بينهم ، وصارت أمراً مهماً للغاية عندهم لا يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه . ولذا اهتموا بها اهتماماً بالغاً ، وأتقنوها ، فأوصلوها إلى ذروة كمالها ، وكللوها بالجمال والرونق .

ـ تحضير الخطب

ومما تميز به العهد الأموي ، وتبعه العهد العباسي تحضير الخطب مسبقاً وتهيئتها بالشكل الذي يتناسب مع المجلس الذي ستلقى فيه ، ويظهر ذلك مما رُوي من قصص التباري بين الخطباء ؛ فقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال:

«قيل لبعض الخلفاء : إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ، ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح . قال : فأمر رسولاً ، فأخذ بيده إلى

المسجد ، فلم يفارقه حتى صعد المنبر..» .[1]

ثم خطب خطبة مدح فيها الأمير سيأتي نصها عند التعرض لخطب المدح في محله .

وجاء في سرح العيون :

«قدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان بن وائل، الخطيب المعروف ، فلم يوجد في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضاباً ، وأدخل عليه ، فقال : تكلم .

فقال : انظروا لي عصا تقوِّم من أودي .

قالوا : ما تصنع بها ، وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟

قال : ما كان يصنع بها موسى ، وهو يخاطب ربه ، وعصاه في يده ؟

فضحك معاوية وقال : فأتوا بها .

فأخذها ، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر . ما تنحنح، ولا سعل ، ولا توقف ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء. فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار سحبان بيده ألا تقطع كلامي .

فقال معاوية : الصلاة .

فقال : هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحميد ووعد ووعيد .

فقال معاوية : أنت أخطب العرب .

---

١ ـ العقد الفريد ، مصدر سابق . ج٣، ص١٥٨.

فقال سحبان : والعجم والجن والإنس [1].

ويظهر من هذه القصة أن سحبان تعمد أن يقدم نفسه خطيباً قوياً ، ويباري بذلك الخطباء الآخرين دون تحضير ، ولا تحبير .

وكنموذج للخطابة الأموية نستعرض إحدى خطب الحجاج بن يوسف الثقفي التي ألقاها بعدما قتل عبد الله بن الزبير ، وقد ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، وقال :

«ألا إن ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة... » [2].

اعتبر هذا العصر عصر لمعان نجم الخطابة ، بل هو أوج عصرها على الإطلاق. وقد عرَّف علماء الخطابة زياد بن أبيه على انه الخطيب السياسي للعهد الأموي ، والحسنَ البصري على انه الخطيب الديني ، والأحنفَ بن قيس على انه خطيب المحافل والوفادات .

ولعمري إن الحجاج بن يوسف لا يقل عن هؤلاء شأناً إن لم نقل : إنه أقوى من بعض هؤلاء بكثير . ومَن أراد التوسعة فليرجع إلى كتاب «الخطابة العربية» في عصرها الذهبي «لإحسان النص».

---

١ ـ ابن نباتة المصري ، جمال الدين ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، ط. بولاق ، ص١٤٦ .
٢ ـ صفوت ، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب ، مصر ، ١٣٥٢ هـ. ط. ١ ، ج٢ ، ص٢٨٧ .



العهد العباسي وما بعده

جاء العصر العباسي ليرث ما قدمه له العصر الأموي في مجال الخطابة ، ويجتره مدة من الزمن ، ثم يلفظه بعد أن صار بلا طعم ولا لذة . فقد ظلت الخطابة على ما كانت عليه من الازدهار قبل مجيء العباسيين إلى الحكم ، إلا في حقل الخطابة الحفلية التي أسرع إليها الذبول ، وذلك لأن القبائل لم تعد تقدم بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن في العهد الجاهلي والإسلامي والأموي ، إلاّ ما ندر ، كما في وفود أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم إذ جاؤوا إليه يعتذرون[١] .

أما الخطابة السياسية فقد ظلت نشيطة ردحاً من الزمن ، وذلك بداعي حاجة بني العباس للدعوة إلى أنفسهم ، حتى إذا استقام الأمر لهم أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول .

وقد راجت الخطابة في صدر العصر العباسي من أجل إقناع الناس بمزايا

---

١ ـ أبو زهرة ، محمد ، الخطابة ، مصدر سابق ، ص٢٥ .

الحكم الجديد ومساوئ الحكم القديم . مثال ذلك قول أبـي جعفـر المنـصور فـي خطبة يعرض فيها حكمه وسلطنته على الناس :

«أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله فـي أرضـه . أسوسـكم بتوفيقـه وتأييـده ، وأنـا خازنه على فيئه ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه . وقد جعلني الله عليكم قفـلاً إن شـاء أن يفتحنـي لأعطيـاتكم وقـسم فيـئكم فتحنـي ، وإن شـاء أن يقفلنـي أقفلنـي . فـارغبوا إلـى الله ، وسـلوه فـي هـذا اليـوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُـمُ الإِسْـلاَمَ دِينًـا** ﴾ ، أن يـوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمنـي الرأفـة بكـم والإحـسان إلـيكم . أقـول قـولي هـذا واستغفر الله لي ولكم»[1].

وقد اشتهر من خطباء هـذا العهـد رجـالات عديـدون أمثـال الإمـام جعفـر بـن محمد الصادق (عليه السلام) ، وعبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية ، وأولاد علـي بن عبد الله بـن عبـاس ، وداؤود بـن عبـد الله بـن عبـاس ، وصـالح بـن عبـد الله بـن عباس[2]. واشتهر بها أيضاً أبو العباس السفاح ، والمنصور ، والمهـدي ، والرشـيد ، والمأمون ، وخالد بن صفوان ، وابن عمه شبيب بن شيبة [3].

ثم غلبت العجمة على خلفائهم ، فصارت الخطابة إلى الانقـراض والـضعف ، وأخذت نارها بـالخمود بعـد مـضي المائـة الأولـى مـن العـصر العباسـي . ويمكـن

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٢٧ .

٢ ـ الخطابة ، محمد أبو زهرة ، مصدر سابق ، ص١٣٧ .

٣ ـ الدينوري، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص٢٥١.

تحديد ذلك بما بعد خلافة المأمون . ولعل السبب الذي أطال بعمرها إلى هذا الوقت الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون . فقد احتاجها أنصار كل طرف لإثارة الناس ضد الطرف الآخر . وكان المأمون نفسه خطيباً ، كما قدمنا ، أما الأمين فقد قل حظه من الخطابة على ما يشير إليه التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة من أن الرشيد عهد إلى الأصمعي أن يحفّظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها الناس في يوم الجمعة ، فحفظه عشر خطب[1]. ولم ينقل لنا من خطب الأمين إلاّ خطبة واحدة ، قد يعثر لها على شفيع بعد تتبع وتفتيش .

وهكذا ، وبعد مُضي القرن الأول من عصر العباسيين خبت نار الخطابة ، وهدأت ثورتها مدة طويلة من الزمن ، لم ترَ خلالها مَن يعيد لها تلك العهود الجميلة ، ولم تعثر على دواعي النشور والبعث ، خصوصاً بعد أن استقرت دعائم الدولة العباسية ، وهدأت الفتن والثورات الكبرى ضدها ، وقَلَّ أو عدم الداعون إليها ، فلم يبقَ للخطابة أرضية صالحة لتقف عليها ، اللهم إلا الخطابة الوعظية وخطب الجمعات التي صارت نوعاً من الروتين ، وضرباً من الوظيفة ، فخلت من النضارة والرونق ، ونضّت عنها ثوب الابتكار والإبداع . بل تعدى الأمر ذلك حين صار الخلفاء والولاة يرسلون مَن ينوب عنهم في صلاة الجمعة وخطبتيها وصلاة العيدين وخطبتيهما .

استغلت الكتابة فترة انشغال الخطابة بمرضها ، فنشطت نشاطاً ظاهراً ، وأخذت تحل محلها ، وتؤدي وظائفها ، وتقوم بأدوارها ، فاعتمد الخلفاء وأولو الأمر القلم بدل اللسان ، وتبعتهم في ذلك الرعية ، فلمع نجم الكتابة بعدما صار قمر الخطابة

---

١ ـ القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج٢ ، ص٢٠ .

في المحاق .

ومن نماذج الخطابة العباسية ما قاله المأمون في خطبة وعظية جاء فيها :

«فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعدوا فقد أظلكم الموت . وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا ، واعلموا أن الدنيا ليست بدار ، فاستبدلوا . فإن الله ، عز وجل ، لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى . وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلاّ الموت أن ينزل به. وان غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة . وان غائباً يحدوه الجديدان ؛ الليل والنهار ، لجدير بسرعة الأوبة . وان قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبدٌ ربه ، ونصح ، وقدّم توبته ، وغلب شهوته ، فان أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به»[1].

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٢٧ .

العصر الحديث

عادت الروح إلى الخطابة مع نهاية القرن التاسع عشر ، حيث عادت دواعيها ، واهتم الناس بأسلوب التعبير ، وبالكلمة الطيبة ، والقول الحسن . وبدأت بالازدياد والتطور إلى زماننا الحالي إذ دبت الحياة في مجالاتها السياسية والعقائدية من جديد .

جاء في كتاب «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي» :

«منذ أواخر القرن الماضي أخذت الخطابة تنتعش وتتطور . ولا نعلم عصراً تفنن الناس فيه بالخطابة كهذا العصر ، وذلك طبيعي في مثل هذه النهضة الجديدة التي كثرت فيها الجمعيات والأحزاب ، وتطورت فيها الحياة السياسية والاجتماعية. وفتحت أبواب شتى لمخاطبة الجمهور ، ونشأت في الأقطار العربية المختلفة ضروب من الخطب لم يُعنَ بها القدماء ، وهي عادة من الأسلوب السهل المرسل، على أنه يمتاز عن الأسلوب الكتابي السائد في المقالات والمؤلفات بما

يكثر فيه من صيغ المخاطبة ، والاستفهام ، والإيهام ، والتكرير ، والتعجب ، والقسم ، وتقطيع العبارات تقطيعاً يناسب نبرات المتكلم وإشاراته ، مع الإكثار من الشواهد الموضحة والعبر المؤثرة»[1].

اشتهر من العرب خطباء كثيرون في هذا العصر منهم السيد عبد الله النديم (١٨٤٥ ـ ١٨٩٤) ، ومصطفى باشا كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) ، وسعد باشا زغلول (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧)[2] ، وغيرهم أمثال محمد عبده ، والسيد عبد الحسين شرف الدين، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء .

ولم تظهر منذ أواخر القرن العشرين شخصية خطابية عربية تضاهي السيد حسن نصر الله في جودة التعبير، وحسن الأداء ، وعمق الفكرة ، والسيطرة على المجلس ، ومحبة الجمهور له .

وهكذا وصلت إلينا الخطابة تراثاً يحمل في طياته أشكالاً وأنواعاً من الأساليب الخطابية تشترك في أمور وتتباين في أُخرى . وتحتوي على أساليب وطرق كانت في يوم من الأيام محببة لكل نفس ومقبولة عند مختلفة الأذواق ، ولكنها صارت في يوم آخر باهتة مستكرهة لدى الأسماع كالسجع ونحوه .

وقبل أن نطوي صفحة تاريخ الخطابة تجدر بنا الإشارة إلى تاريخ المرأة أو «المرأة في تاريخ الخطابة» ، فإنه من الظاهر أن الكتب التي بحثت عن تاريخ الخطابة لم تولِ المرأة العناية التي تستحقها ، فلم تأتِ على ذكرٍ لها إلاّ ما ندر . وقد ارتأينا ، وحرصاً على تتميم الفائدة ، أن نخصّص فصلاً لهذا الموضوع .

---

١ ـ المقدسي ، أنيس الخوري ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص٤٥٨ .
٢ ـ الهاشمي ، أحمد ، جواهر الأدب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص٤٧١ .

المرأة في تاريخ الخطابة

لم يأتِ التاريخ على ذكر أسماء نساء اشتهرن بالخطابة في العهد اليوناني أو الروماني . ولعل ذلك يرجع إلى أحد أمرين : إما لأن المرأة عموماً لم يكن لها عندهم ذلك الشأن الذي يؤهلها للكلام والخطابة في المجتمعات العامة وبين الناس كي تعرف وتشتهر ، وإما لأنه لم تبرع من النساء واحدة لتستحق نقل اسمها في كتب التاريخ . وعلى كل حال فإن النساء لم يكن لهن حظ في الخطابة عند اليونانيين ولا الرومان ، بل يمكن الذهاب إلى أكثر من ذلك فنقول :

إن المرأة في الغرب عموماً لم يكن لها نصيب في الخطابة .

استمع إلى ما جاء في كتاب الخطب والمواعظ في معرض الحديث عن المرأة الغربية بالنسبة إلى فن الخطابة :

«ولن نلقي القول هنا جزافاً بغير دليل . فلو رجعت إلى ما دُوِّن لنا من خطب اليونان والرومان لم تكد تظفر باسم أنثى واحدة بين ذلك العدد العديد من

الرجال. ولو رجعت إلى أي كتاب في تاريخ الأدب الفرنسي من نشأته المعروفة حتى عصرنا هذا ، فلن تظفر باسم امرأة واحدة بين عشرات الأسماء من الرجال الخطباء من عهد «بودان» و«سان فرانسوا دي سال» إلى عهد «جول فافر» و«لاكورديو» و«غامبتا» و«ديدون» ... ولن ترجع من البحث بجدوى حين تفتش في تاريخ الأدب الإنكليزي عن خطيبة واحدة إلاّ ما يصادفك من أسماء بعض المتحدثات أو المتكلمات في العصر الحديث[1].

أما المرأة المسلمة وبالأخص العربية فما زال اسمها يلمع في سماء الخطابة منذ الجاهلية إلى العصر الحاضر .

ففي الجاهلية اشتهرت عدة نساء أكثرهن من الكاهنات أمثال الشعثاء وطريفة الخير والزبراء والكاهنة السعدية وعفيراء ، حيث كن يتكلمن بالسجع المعروف عند الكهان .

وأما في صدر الإسلام فقد برزت مجموعة خطيبات قديرات . روي أن هنداً زوجة أبي سفيان كانت تخطب في قريش تستثيرهم لقتال النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ، ونقل عن عائشة بنت أبي بكر عدة خطب ألقتها في مناسبات مختلفة أظهرت قدرتها الخطابية . ولا يخفى أنها استعانت بهذه الموهبة للتأليب على الإمام علي (عليه السلام)، حيث ألقت في فتنة الجمل وحدها أكثر من ثلاث خطب جاء في أحدها:

«كان الناس يتجنون على عثمان «رضي الله عنه» ، ويتزرون عماله[2] ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنه ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً،

---

١ ـ الخطب والمواعظ ، مصدر سابق ، ص٣٦ .

٢ ـ يتزرون عماله : أي يعيبوهم ، وينقصوهم .

ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه ، واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ، إلاّ أن مما ينبغي ، ولا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان «رضي الله عنه» وإقامة كتاب الله ، عز وجل : ﴿**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ.**﴾[1].

وأما فاطمة الزهراء بنت الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) فلقد كانت خطيبة من الطراز الأول . ويشهد لذلك خطبتاها اللتان ألقتهما في مسجد النبي بحضرة الخليفة الأول أبي بكر تطالبه بحقها في فدك التي وهبها إياها رسول الله أبوها (صلى الله عليه وآله) ، وقد ضج مَن في المسجد بالبكاء عند سماع كلماتها البليغة المؤثرة أشد التأثير . و جاء في الخطبة الأولى ، وهي خطبة طويلة نقتصر على بعضها :

«أيُّها الناس ، اعلموا أني فاطمة ، وأبي محمد (صلى الله عليه وآله) أقول عوداً وبدواً ، ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً . ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[2] . فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخ ابن عمي دون رجالكم ، ولنِعمَ المعزيُّ إليه ، صلى الله عليه وآله ... وهكذا إلى أن قالت :

وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا . أفحكم الجاهلية تبغون ؟ ومَن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ أفلا تعلمون ؟ بلى ، تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته ...

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٨٦ .

٢ ـ سورة التوبة ، آية ١٢٨ .

أيُّها المسلمون ، أأُغلب على إرثي ، يا ابن أبي قحافة ؟ أفي كتاب الله ترث أباك ، ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً . أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ** ﴾.[1] وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا (عليه السلام) إذ قال : ﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾[2] . وقال : ﴿ **وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾[3] . وقال : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[4] . وقال : ﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾[5] . وزعمتم أن لا حظوة لي ، ولا أرث لي من أبي ، ولا رحم بيننا . أفخصَّكم الله بآية أخرج منها أبي ؟ أم تقولون : أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أوَلست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمه ؟ فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون ، ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم[6] .

لله درها ، فلكأنها تفرغ عن لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وقد هزها الضيم ،

١ ـ سورة النمل ، آية ١٦ .
٢ ـ سورة مريم ، آية ٦ .
٣ ـ سورة الأنفال ، آية ٧٥ .
٤ ـ سورة النساء ، آية ١١ .
٥ ـ سورة البقرة ، آية ١٨١ .
٦ ـ الطبرسي ، الاحتجاج ، تحقيق محمد باقر الخرسان ، دار النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٦٦، ج١ ، ص١٣٩ .

فانطلق لسانها بطلب الحق . دمجت كلماتها بكلمات الله ، فخرج خطابها آية واحدة ، تبهر المسامع ، وتحير العقول . كيف لامرأة لازمت بيتها منذ المهد إلى اللحد أن تأتي بمثل هذه اللئالي المضيئة ، مع أنها لم تعش إلاّ عمراً كعمر الورود، إذ ذوت وهي دون بلوغ العقد الثالث من سنيها من كثرة حزنها وتألمها على أبيها، ومن شدة ما أوقع عليها من محن بعد غيابه حتى أنها كانت تقول :

صبّت عليَّ مصائب لو أنها   صُبّت على الأيام عدن لياليا

وهكذا كانت ابنتاها زينب وأم كلثوم (عليهما السلام) خطيبتين أيضاً.

جاء في جمهرة خطب العرب :

«بعد أن قتل الحسين بن علي (عليهما السلام) في أرض كربلاء ، وسبيت نساؤه وذراريه، وتُوجه بهم إلى الكوفة جعلت نساء الكوفة يبكين ، ويهتكن الجيوب عليه ، فرفع علي بن الحسين زين العابدين رأسه ، وقال بصوت ضئيل ، وقد أنهكه المرض:

«يا أهل الكوفة ، إنكم تبكون علينا ، فمَن قتلنا غيركم ؟» .

فأومأت أم كلثوم بنت علي (عليه السلام) إلى الناس أن اسكتوا . فلما سكنت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، قالت :

«أبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على أبي (أي جدّها محمد (صلى الله عليه وآله)) أما بعد: يا أهل الكوفة ، يا أهل الختر[1] والخذل ، فلا رقأت[2] العبرة ، ولا هدأت

---

١ ـ الختر : الغدر .

٢ ـ رقأت العبرة :جفّت .

الرنة. إنما مَثَلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم . ألا وهل فيكم إلاّ الصلف[1] والشنف[2] وملق[3] الإماء وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمرعى على دمنة ، وكفضة على ملحودة[4] ، ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنت خالدون . أتبكون ؟ إي والله ، فابكوا ، وإنكم والله أحرياء بالبكاء ، فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فلقد فزتم بعارها وشنارها[5] ، ولن ترحضوها[6] بغسل بعدها أبداً . وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة ومنار محجّتكم ؟ ..»

وهكذا إلى أن قالت :

«أفعجبتم أن أمطرت السماء دماً ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون . فلا يستخفكم المهل[7] ، فانه لا تحفزه المبادرة[8] ، ولا يخاف عليه فوت الثأر . كلا ، إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد» .

ثم ولّت عنهم ، فظل الناس حيارى ، وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من بني «جعفي» ، وقد اخضلَّت لحيته من دموع عينيه :

---

١ ـ الصلف : من يمدح نفسه بما ليس فيه .
٢ ـ الشنف : النظر بطرف العين .
٣ ـ ملق الأماء : مداعبتهن .
٤ ـ الملحودة : المدفونة .
٥ ـ الشنار : أقبح العيب .
٦ ـ ترحضوها : تغسلوها .
٧ ـ المهل : التأخير بالعقوبة .
٨ ـ أي لا تدفعه المبادرة إلى الذنب لتعجيل العقوبة .

كهولهـم خير الكهـول ونسلهـم　　　إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى[1]

وجاء فيه أيضاً انه لما وجه عبيد الله بن زياد آل الحسين (عليه السلام) إلى يزيد بدمشق ، ومثلوا بين يديه ، أمر برأس الحسين ، فأبرز في طشت ، فجعل ينكث ثناياه بقضيب في يده وهو يقول :

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　　جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً　　　ثم قالوا يا يزيد لا تشل

فجزيناهم ببدر مثلها　　　وأقمنا ميل بدر فاعتدل

فقامت زينب بنت علي (عليها السلام) ، وقالت :

«صدق الله ورسوله ، يا يزيد : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون** ﴾[2] . أظننت ، يا يزيد ، أنه حين أخذ[3] علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يُساق الأسارى أن بنا هواناً على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأن هذا لعظم خطرك ؟ فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك[4] جذلان فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك ، وقد أمهلت ونفّست[5] ، وهو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ**

١ ـ ابن طيفور ، بلاغات النساء ، مكتبة بصيرتي ، قم ، ص ٢٣ . وقد رويت هذه الخطبة في الاحتجاج للطبرسي ، ج٢ ، ص ٣١ ، عن السيدة زينب بنت علي (عليها السلام).

٢ ـ سورة الروم ، آية ١٠ .

٣ – اخذت في خبر آخر .

٤ ـ أي جانبك ، كناية عن العجب بالنفس .

٥ ـ نفست : فسح لك وارتحت .

إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1] . أمن العدل ، يا ابن الطلقاء ، تخديرك نساءك وإماءك وسوقك بنات رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وقد هتكت ستورهن ، وأصحلت[2] أصواتهن ، مكتئبات تخدي[3] بهن الأباعر ، ويحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد... إلى أن قالت : مع أني ، يا عدو الله وابن عدوه ، أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، غير أن العيون عبرى ، والصدور حرّى[4] ، وما يجزي ذلك أو يغني عنا وقد قتل الحسين (عليه السلام) ، وحزب الشيطان ـ تقصد عبيد الله بن زياد ومَن معه ـ يقربنا إلى حزب السفهاء ـ تقصد يزيد ومَن معه ـ ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدي تنطف[5] من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب[6] من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكي تنتابها العواسل[7] . فلئن اتخذتنا مغنماً لتتخذن مغرماً حين لا تجد إلاّ ما قدمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة ـ أي عبيد الله بن زياد ـ ، ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد (صلى الله عليه وآله)..» .[8]

ومن الحق ما قيل من أن للحركة الشيعية فضلاً في إظهار بعض الشخصيات النسوية المجاهدة الموالية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ولأهل البيت . وقد امتازت هذه الشخصيات علاوة على جرأتهن وبلائهن في سبيل العقيدة بمقدرة خطابية

---

١ ـ سورة آل عمران ، آية ١٧٨ .
٢ ـ أي بُحَّت أصواتهن .
٣ ـ تخدي الأباعر : أي تسرع.
٤ ـ الصدور الحرّى : أي شديدة الحرارة من الحزن .
٥ ـ تنظف : يعني تسيل أو تُسكب .
٦ ـ تتحلب : أي يسيل ماؤها .
٧ ـ تنتابها العواسل : يعني تأتي عليها الذئاب مرة بعد مرة .
٨ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٣٦ وما بعدها .

لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المجاهد الذي اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وقوة البيان من ناحية أُخرى . ولقد كانت الحرب بين علي ومعاوية ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء نساء ورجالاً ، فظهر فيها الأبطال والشجعان والخطباء وأصحاب البيان .

هذه عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل سيفها في موقعة صفين ، وهي واقفة بين الصفوف تحض على قتال معاوية ورجاله ، وتقول :

«أيُّها الناس عليكم أنفسكم ، لا يضركم مَن ضلّ إذا اهتديتم . إن الجنّة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم مَن سكنها ، ولا يموت مَن دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم . إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، غلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون الحكمة . دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه . فاللهَ اللهَ ، عباد الله ،في دين الله . إياكم والتواكل ، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفئ نور الحق . هذه بدر الصغرى والعقبة والكبرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم . فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة ، تصقع صقع البعير..» .[1] .

ولم تكن عكرشة الخطيبةَ الوحيدة في الحرب بين علي ومعاوية ، بل كان هناك أخريات أمثال : «بنت الحريش» التي طالما ألبت على معاوية ، وحرضت على قتاله ، واتهمته بإذكاء الأحقاد الجاهلية التي محاها الإسلام ، ودعت إلى الإمام العادل علي (عليه السلام) توحيداً للكلمة ، ورأباً لصدع المسلمين . ولقد أثرت

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٣٦٨ .

عنها خطبة خطبت بها الناس ، وهي على جمل أرمك كلون الرماد ، وبيدها سوط قد انتشرت ضفائره ، وهي تهدر كالفحل من الإبل يهدر في شقشقته ، وتقول :

«أيُّها الناس ، اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبيّن السبيل ، ورفع القلم ، ولم يدعكم في عمياء ملهمة ، فأين تريدون ، رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله ، جل ثناؤه، يقول : ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾[1] .

ثم رفعت رأسها إلى السماء ، وهي تقول :

«اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يا رب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألِّف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا ، رحمكم الله ، إلى الإمام العادل والرضي التقي والصديق الأكبر. إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك ثارات بني عبد شمس ﴿ **فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾[2] . صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار . قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات في دينكم . فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحُن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة ،

---

١ ـ سورة محمد ، آية ٣١ .

٢ ـ سورة التوبة ، آية ١٢ .

فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه مَن ضلّ ، والله، من الحق وقع في الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا إليها . فاللهَ اللهَ ، أيُّها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان . فإلى أين تريدون ، رحمكم الله ، عن ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وصهره وأبي سبطيه ؟ خُلق من طينته ، وتفرَّع من نبعته ، وجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين . وهاهو ذا مفلِّق الهام ، ومكسر الأصنام . صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر ، وأفنى أهل أُحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم ردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ..» .[1].

فلله درها من خطيبة ، عرفت الطريق إلى الحق، وملكت الوسيلة للدلالة عليه، تسلطت على البيان ، فصيرته خادماً للدين والشريعة . وثقت بالقائد ، فاتبعته ، واستنارت بالهدى ، فعميت عن كل شبهة وضلالة . فأين منها أعاظم الرجال فصيحة بليغة ، رحمة الله عليها ، وجزاها الله خير الجزاء .

وكان للزرقاء بنت عدي الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف «بنت الحريش» في الحث على القتال يوم صفين ، تؤيد علياً ، وتؤلب على معاوية . ولِـمَ لا تدعو لنصرة علي ؟ أوليست من همْدان الذين عرفوا بحبهم له وحبه لهم ، والذين قال فيهم :

«فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام[2]» .

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٦٩ .

٢ ـ الديوان المنسوب للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، حرف الميم .

فلقد ناصروه بسيفهم ، ولسانهم ولم تكن الزرقاء إلاّ واحدة منهم . لم ينسَ التاريخ خطبتها في صفين وهي راكبة على جمل أحمر ، وتقول :

«أيُّها الناس ، ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم في فتنة . غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة . فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء . لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلاّ الحديد . ألا مَن استرشدنا أرشدناه ، ومَن سألنا أخبرناه . أيُّها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً ، يا معشر المهاجرين والأنصار ، على الغصص . كأنْ قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودفع الحق الظلمة . فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنّى ؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خير في الأمور عواقبَ . إيهاً في الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين»[1].

هذا بعض معالم صورة الخطيبة العربية في العهود الماضية . وأما في عصرنا هذا فقد برزت نساء كثيرات في عالم الأدب والشعر والخطابة بما لا يحتاج إلى كثير شرح وتوضيح . غاية ما في الأمر أننا نستعرض مثالاً واحداً للخطيبة في العصر الحديث مع نموذج من خطبها توخياً للاختصار .

فمما تفخر به أعواد المنابر في العصر الحديث أن فتاة عربية كان لها على المنبر مواقف عرفت فيها بحسن الإلقاء ، وبلاغة الأسلوب ، ورشاقة التعبير ، ونبالة الأفكار ، وحسن الإعداد . تلك هي الأديبة الخطيبة الآنسة مي زيادة التي كانت

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٣٧٣ .

تجوّد خطبها المعدة تجويداً يزيده الإلقاء جمالاً . وطالما سعت إليها المنابر العربية في لبنان ومصر مكرِّمة ومودِّعة ، أو داعية إلى الإصلاح ، أو محمِّسة لحركة النهضة النسائية ، أو محاضرة في الأدب ، أو راثية...

أُثر عنها العديد من الخطب ، أبرزها وأجملها الخطبة التي ألقتها عام ١٩١٤ م. على منبر النادي الشرقي تحت عنوان «المرأة والتمدن» ، حيث جاء فيها :

«أيها السيدات والسادة ، نحن في فصل الربيع ، والحياة تنبض بقوة في كل جزء من أجزاء الكون . ونيسان ، رسول الجمال ، ونبي النور ، يسلم أنفاسه الأخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمة أيار ملك الورود . إذن ، لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فإن الفصل بنا يوحي إلي موضوعاً جميلاً ؛ الأزهار .

تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة إلاّ وتشعر بأنها إزاء سر غامض ، قد التفَّتْ بألوان الحدائق والرياض ، وسترت معايبها بعطورها .

على أن الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء . والأزهار التي تتفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة تنكمش لملامسة الليل ، لأن رطوبة الليل تذبلها . لكني سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالاً ، وأتم شكلاً، وأدعى إلى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوي القلوب الغيورة الرحيمة .

تلك الزهرة التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذي لا يُدرك ولا ينقضي .

تلك الزهرة التي يعتريها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف ، وتتقاذفها صراعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ، ولا يتلوى .

تلك الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة المعظم .

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ... هي المرأة»[1] .

وهكذا استطاعت المرأة العربية أن تثبت وجودها في المعترك الخطابي دون فرق في ذلك بين المرأة المسلمة وسواها . بل ربما كانت المرأة المسلمة أكثر تقدماً في هذا المضمار كما ظهر لنا من خلال ما قدمناه ، حيث بدا للقارئ الكريم مدى تقدم الفكر الذي تحمله الخطيبة المسلمة وسمو الهمة الذي يأخذ بكيانها ، فتنبري تدعو وتطالب . ولم يعقها في ذلك حجاب ، ولم يقف في طريقها ستر وخمار ، ولم ينهها عنه دين ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدين هو الذي أخذ بيدها إلى حيث التكامل ، وأنار طريقها إلى حيث السمو .

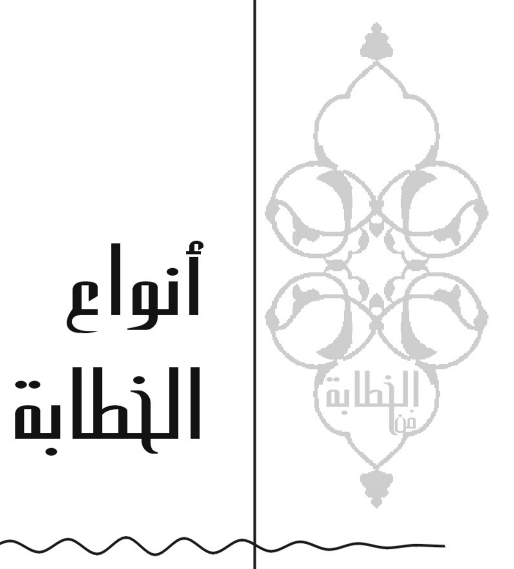
وما يهمنا ذكره في ختام هذا الفصل هو أن نوجه الدعوة إلى كل النساء صاحبات النفوس الخلاقة ، والعقول المبدعة ، ومالكات الطاقات الرائعة لتسخير طاقاتهن في سبيل إبداء الحق ، وإظهار الفضيلة ، ونشرها عبر الكلمة الطيبة ، والعبارة الجليّة من فوق أعواد المنابر ، وفي المجالس العامة فضلاً عن الخاصة .

وعلى المرأة كما على الرجل أن لا تُهمل قواعد الخطابة وأصولها ، وأن تتقنها بحذافيرها إذا أرادت أن تكون يوماً خطيبة بليغة ، تقول فيُصغى لها ، وتتكلم فيُسمع لقولها ، وتغير مجاري الأمور بكلمة ، وتصحح عقائد الناس بخطبة، وتهدي إلى الحق بالبيان الجميل والأسلوب السلس .

---

١ ـ الخطب والمواعظ ، ص ٤٠ .

أنواع الخطابة



قبل الخوض في غمار قواعد هـذا الفـن وتلمـس قعـر هـذا الـيم يجـدر بنـا أن نتعرف على أنواع الخطب وتوضيح كل منها بالمثال .

أنواع الخطب كثيرة إلا أنه يمكن إرجاعها إلـى ثمانيـة أنـواع ، وهـي تـشترك فيما بينها بأمور ، وتختلف في أُخـرى . أمـا الأمـور التـي تتفـق فيهـا فهـي القواعـد العامة للخطابة والتي سوف تأخذ الكأس الأوفـى مـن البحـث ، وأمـا الأمـور التـي تختلف فيها فهي ما وضع لأجله هذا البحث .

والأنواع الثمانية هي :

١. الخطب الدينية ، ويلحق بها مجالس التعزية .
٢. الخطب السياسية ، ويلحق بها الخطب البرلمانية .
٣. الخطب العسكرية ، ويلحق بها خطب الفتوحات .
٤. خطب المنافرات والمفاخرات .
٥. خطب المناسبات والأعياد ، وتشمل :
   أ. خطب المحافل .
   ب. خطب التكريم والمدح والتهنئة .

ج. خطب النكاح والإصهار .

د. خطب الرثاء والعزاء .

٦. الخطب الشرعية ، وتشمل :

أ. خطب صلاة الجمعة .

ب. خطب الأعياد (عيد الأضحى وعيد الفطر) .

٧. خطب المرافعة والاتهام ، وتشمل الخطب القضائية .

٨. الخطب العلمية ، وتشمل خطب المناظرات .

وباستعراض كل واحد من هذه الأنواع على حدة مع ذكر خصائصه ومميزاته وضبط موارده وأوقاته يعلم ما بينها من الفرق .

الخطب الدينية

وهي التي تلقى لوعظ الناس وإرشادهم وتبصيرهم في شؤون دينهم وتوضيح عقائدهم وحثهم على المعروف ونهيهم عن المنكر .

وتلقى هذه الخطب عادة في بيوت العبادة المختلفة ، وفي المواسم الدينية . وقد اشتهرت اليوم ، وانتشرت انتشاراً واسعاً خصوصاً بين المسلمين ، بل لعلها أخذت الحيز الأكبر من نصيب الخطابة في حياة الناس في هذا العصر الذي يشهد نهضة دينية عريضة ورجوعاً إلى الإسلام الأصيل بعد جفاء طويل وسبات عميق .

وأمثلة الخطب الدينية كثيرة مشهورة ، نأخذ منها خطبة موجزة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يزهد فيها الناس بالدنيا ، ويرغبهم في الآخرة ، فيقول :

«أيها الناس ، إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم . وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم».

إن المرء إذ هلك قال النـاس : «مـا تـرك» ؟ وقالـت الملائكـة : «مـا قـدم» ؟ لله آباؤكم ، فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً ، ولا تخلفوا كلا يكن فرضاً عليكم»[1] .

ـ خطب مجالس العزاء

وأما مجالس العزاء فهي الخطب التي تلقى في مناسبات عاشوراء وذكريات وفاة الأئمة والأنبياء (عليهم السلام) ، وتتميز بأنها تسبق وتختم بذكر مصيبة الإمام الحسين المصوَّرة بالشعر الفصيح أو العامي مما يثير الحزن عند المستمع ، فيبكي ويتذكر ما جرى على الإمام الحسين في كربلاء ، وهذا هو الهدف من هذه الخطابة .

فخلال إلقاء خطب التعزية تلقى المواعظ الدينية ، وتطرح الأفكار العلمية ، والدعوات الثورية ، أو توضح المواقف السياسية بحسب ما يناسب المقام .

من هنا أخذت الخطابة الحسينية أهمية خاصة ، إذ هي عبارة عن مجال فسيح للدعوة والتبليغ ، خصوصاً وأن الناس إذا تأثروا ، وهاجت عواطفهم صار إقناعهم أسهل بكثير من أي وقت آخر . فيشكل انسكاب الدمعة من عيون الجمهور جسراً للعبور إلى قلوبهم بيسر وسهولة ، لا يتيسران لغير قارئ العزاء ، من هنا كانت مسؤوليته في الوعظ والإرشاد أكبر من سائر الخطباء .

وقد استطاع بعض الخطباء الحسينيين شق طريق مهم في قلوب الشباب ، وخط سطور مضيئة في صفحات التاريخ ، إذ من تحت أعواد منابرهم خرج الثوار، وتخرج العلماء وأصحاب الفكر .

---

١ ـ نهج البلاغة ، من كلام له (عليه السلام) ، رقم ٢٠٣ .

اشتهر بهذه الخطابة كثيرون من رجالات الشيعة أمثال الشيخ عبد الزهرة الكعبي ، والشيخ أحمد الوائلي ، والشيخ فاضل المالكي ، والشيخ عبد الوهاب الكاشي ، والشيخ الكندي ، وغيرهم .

الخطب السياسية

وهي الخطب التي تلقى للنظر في شؤون الدولة وسياستها ، ولإظهار بعض الأمور التي تحتاجها ، أو لاطلاع الجماهير على مسلك الحكم ، وعلى الخطوط العريضة التي رسمها لنفسه ، وعلى النهج الذي يريد أن ينتهجه ، والسبيل الذي سيسلكه في إدارة البلاد ، وإنعاش أمور العباد . أو لإقناعهم بموقف خاص يريد أن يأخذه القائد أو غيره ممن يستلمون دفة الحكم ، كمواقف الحرب والصلح ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات على أنواعها ؛ السياسية ، والتجارية ، والثقافية ، ونحو ذلك . أو لتصحيح مسار السياسة في البلاد ، وإرجاعها إلى الخط المستقيم الذي يتلاءم مع مصالح الناس . أو للنقض على مسلك الحكام السابقين ، وتبيين مساوئهم ، وإظهار ظلمهم ، وعدم اهتمامهم بالرعية . أو للرد على سياسة الأعداء ، وتفنيد ما يدّعونه ضدهم ، وعلى هذا فقس .

ولنأخذ على الخطب السياسية مثالاً من خطب عصرنا الحاضر وذلك بعض ما ورد في خطبة لمصطفى باشا كامل ، وهو أحد خطباء عصر النهضة المصريين

وهي بعنوان : «مصر والدولة العليا» :

«كيف نيأس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمماً حكمها الأجانب قروناً طويلة، ثم قامت بعد الذل والاسترقاق مطالبة بحقوقها ، وأخرجت الأعداء من ديارها ، واستردت حريتها وحقوقها .

وهي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة أو بتلغراف ، ثم يستولي عليها اليأس بكلمة أو بتلغراف . أما النفوس العالية الكبيرة ، فيدوم فيها الأمل ما دام الدم في العروق ، وما دامت الحياة»[١].

فالخطيب هنا يحث الجمهور على التشبث بالأمل في نيل الاستقلال والحرية فيما لو سعي لها بالشكل الصحيح .

ـ الخطب البرلمانية

بما أن أنظمة الحكم تطورت عما كانت عليه سابقاً ، وأدت إلى قيام ما يسمى بالمجلس النيابي أو "البرلمان" أو مجلس الشورى أو مجلس الأمة . وهو مؤلف من عدد من الشخصيات السياسية ، أو غيرها من أصحاب الاختصاصات المؤثرة في إدارة البلاد ، وتمثل جميع أفراد وطبقات الشعب . فكل مدينة ، أو كل حزب، أو كل قبيلة تنتخب من يكون نائباً عنها في المجلس النيابي على حسب ما يقتضيه قانون الدولة . ويقوم النواب بطرح القوانين والأنظمة ورسم السياسة العامة للدولة بما يتناسب مع مصالح الشعب ، وإمكانيات البلاد ، ولذلك يسمى هذا المجلس

---

١ ـ المصدر السابق .

بالسلطة التشريعية . والذي يحصل في قاعة اجتماعات المجلس هو قيام بعض النواب ، بحسب الوظائف والأدوار المقررة سابقاً ، بإلقاء خطب حول الفكرة التي تُؤيِّد ، أو تُقتَرح ، وتبيين جوانبها الحسنة ، وميزاتها ، وتضعيف الفكرة المقابلة لها بإظهار سلبياتها ، ولوازمها الفاسدة . وقد صارت هذه المجالس ميادين رحبة للكشف عن مقدرات الخطباء .

ومثل المجلس النيابي مجلس الشيوخ ، ومجلس الأعيان ، مع فوارق بسيطة لا تهمنا من الناحية الخطابية .

وقد اشتهر بهذه الخطابة كثيرون أمثال «لامارتين» الشاعر الفرنسي والخطيب البرلماني الشهير ، وسعد زغلول الخطيب السياسي المصري ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

الخطب العسكرية

وهي التي تلقى لتحميس الجماهير وإيقاد الحمية في صدروهم . أو لاستثارة الجنود خاصة ليستبسلوا في الذود عن حقوقهم ، ومعتقداتهم ، وشرفهم ، وممتلكاتهم . أو لتلقينهم بعض فنون القتال ، أو لرفع معنوياتهم ، وإرجاع الثقة لهم بأنفسهم ، وإلقاء الخوف واليأس في قلوب الأعداء .

وفي الخطب العسكرية يبرز دور الخطابة المهم ، حيث إن الخطيب الماهر يستطيع بأسلوبه المحكم أن يغير المعادلات بشكل خطير ، ليطرح مكانها معادلات جديدة . ورُبَّ خطاب عسكري غيّر معالم وجه الأرض ، فجعل الضعيف قوياً ، والقوي ضعيفاً ، وصير الذليل عزيزاً ، والعبد سيداً . والتاريخ أصدق شاهد لنا على ذلك .

وتتميز هذه الخطابة غالباً بالقِصَر إذ الخطاب الطويل ينسي أخرُه أولَه ، بينما لا بُدَّ فيه من كونه قابلاً للبقاء في الذهن إلى أقصى مدة ممكنة ، حتى تضع الحرب أوزارها ، وتنكشف عن النصر المبين .

وما يذكر في الخطب العسكرية أمران :

١. الدعوة إلى القتال والاستبسال .

٢. تعليم فنون الحرب والقتال .

ومن أمثلة الخطب العسكرية في المضمون الأول ما جاء في خطبة للإمام علي(عليه السلام) مخاطباً أصحابه يوم صفين ، حيث قال :

«إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِب بِيَدِهِ، لاََلْفُ ضَرْبَة بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ مِنْ مِيتَة عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!»[1].

وفي المضمون الثاني :

«فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ[2]، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ[3]، وَعَضُّوا عَلَى الأَضْرَاسِ ، فَإِنَّهُ أَنْبَى[4] لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ[5]، وَالْتَوُوا[6] فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ[7] لِلأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا الأَبْصَارَ ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لَلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا وَلاَ تُخِلُّوهَا، وَلاَ تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ[8] مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ[9] هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ[10] بِرَايَاتِهِم،

---

١ ـ نهج البلاغة ، خطبة رقم ١٢٢ .

٢ ـ الدارع: لابس الدّرْع.

٣ ـ الحاسِر: من لا دِرْعَ له.

٤ ـ أنْبَى: صيغة أفعل التفضيل من «نَبَا السيف» إذا دَفَعَتْهُ الصلابة من موقعه فلم يَقْطَعْ.

٥ ـ الهام: جمع هامة، وهي الرأس.

٦ ـ الْتَوُوا: انْعَطِفوا ، وأميلوا جانبكم لِتَزَلّقَ الرماح ، ولا تنفذ فيكم أسنّتها.

٧ ـ أمْوَرُ: أي أشدّ فعلاً للمَوْر، وهو الاضطراب الموجب للانزلاق ، وعدم النفوذ.

٨ ـ الذّمار ـ بكسر الذال ـ: ما يلزم الرجلَ حفظُهُ وحمايته من ماله وعرضه.

٩ ـ الحَقائق: جمع حاقّة، وهي النازلة الثابتة.

١٠ـ يحفون بها : يعني يستديرون حولها .

وَيَكْتَنِفُونَهَـا[1] : حفَافَيْهَـا[2]، وَوَرَاءَهَـا، وَأَمَامَهَـا، لاَ يَتَـأَخَّرُونَ عَنْهَـا فَيُـسْلِمُوهَا، وَلاَ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا»[3].

ـ خطب الفتوحات

ومما يلحق بهذا النوع من الخطابة خطب الفتوحات ، وهي الخطب التي تلقى بعد إكمال القتال ، ونزول النصر ، وفتح البلدان . وتحتوي عادة على شكر الله على الفتح ، وتنبيه الجنود المنتصرين على عدم الاغترار بقـوتهم ، وأن لا تعـصف بهـم رياح العجب والكبر لما هم عليه من المقدرة ، فيطغون في الأرض ، ويعيثون فيهـا فساداً بعدما رأوا من أنفسهم أبطالاً قادرين وشجعاناً عظاماً .

وهذه الخطب وان كانت مواضيعها مغايرة لمواضيع الخطب العسكرية إلاّ أنها ألحقت بها لمكان المناسبة بينهما من جهة أن الخطب العسكرية تلقى قبل الحرب وخلالها ، وهذه تلقى بعد الحرب ، وتعقيباً على النصر ، وتمكيناً للظفر .

ومثالاً على خطب الفتح نستعرض ما جاء في خطبة عتبة بـن غـزوان بعـد فـتح «الأبلة» ـ وهي مكان البصرة اليوم ـ في عهد الخليفة الثاني حيث يقول فيها :

«أما بعد فان الدنيا قد تولّت حذّاء[4] مدبرة . وقد آذنـت أهلهـا بـصرم[5] وإنمـا بقي منها صبابة كصبابة الإنـاء يـصطبّها صـاحبها . ألا وإنكـم مفارقوهـا لا محالـة .

١ـ يكتنفونها : يعني يحيطون بها .
٢ـ حفافيها : جمع حفاف وهو الجانب . راجع أقرب الموارد .
٣ـ نهج البلاغة ، خطبة ١٢٤.
٤ـ حذاء : يعني سريعة .
٥ـ الصرم : هو القطع .

ففارقوها بأحسن ما يحضركم . ألا وان من العجب أني سمعت رسول الله(ﷺ)، يقول : «إن الحجر الضخم يلقى في النار من شفيرها ، فيهوى فيها سبعين خريفاً . ولجهنم سبعة أبواب ما بين البابين منها مسيرة خمسمائة سنة ، ولتأتين عليها ساعة وهي كظيظ بالزحام ...الخ»[1].

فان الخطيب هنا أراد تخويف الجمهور من مغبة الاغترار بالنفس ، والتجبر في الأرض ، فذكر ما يذكرهم بعذاب الله ، وأنه هناك من هو أقوى منهم ، وأكثر سيطرة.

١ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٠٣ .

خطب المنافرة والمفاخرة

وهي الخطب التي كانت تحصل بين شخصين يدعي كل منهما انه أفضل من صاحبه وأحق بالوجاهة والرئاسة منه . فان اختلف اثنان على رئاسة قوم ، وكان كل منهما يصر على طلبها لنفسه ، ويرى نفسه أهلاً لها دون سواه نفرا إلى حكَم راجح العقل ، نير البصيرة ، ليحكم بينهما ، وينفِّرَ أحدهما على الآخر بعد أن يكونا قد تلاحيا بذكر كل منهما فضائل نفسه ، ونفي العيوب عنها ، كما حصل لكثيرين أيام الجاهلية. وليس أمر منافرة علقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين بخفي على من عنده أدنى اطلاع على تاريخ الأدب . ولكن ما نقل من هذه الخطب قليل جداً ، فلا يعدو عددها أصابع اليد الواحدة ، وقد تفرقت هذه الخطب في طيات الكتب التاريخية .

ومثالاً على ذلك نذكر منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أُمية . فقد جاء في الكامل لابن الأثير:

تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أُمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى

أن ينفر بينهما . فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح فقام وقال لحرب :

«يا أبا عمرو ، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل صفداً[١] ، وأطول منك مذوداً[٢] . وإني لأقول هذا ، وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت في العرب ، جلد المريرة[٣] ، جليل العشيرة . ولكنَّك نافرت منفَّراً» .

فغضب حرب ، وقال :

«إن من انتكاس الزمان أن جعلت حكماً»[٤] .

وأما إن اختلفا في من هو الأفضل شرفاً وحسباً دون أن ينفرا إلى أحد ، أو دون أن يكون الغرض من ذلك رئاسة القوم ، فتلك هي المفاخرة ، وهي كثيرة في كلام العرب ، بل كانوا كلما التقى شخصان منهم من أصحاب الفضل والفخر فاخر أحدهما الآخر أمام الناس بذكر فضائله ، ونسبه ، وعيوب خصمه ، ونقائصه . إلا أن هذين النوعين من الخطب بدءا بالزوال مع إطلالة شمس الإسلام على العالم ، إذ دعا إلى نبذ التفاخر ، وترك التفاضل بالجاه والأموال والأنساب ، فلم يبق منهما إلاّ القليل النادر . ولا تكون المفاخرة حينئذ إلا بالشرف والسابقية في الإسلام ، وكثرة العمل الصالح ، والضلوع في العلوم ، ومعرفة الآيات وأحكامها .

ومن أمثلة هذه المفاخرات ما ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد ، قال :

١ـ أجزل صفداً : أي أكثر عطاء .

٢ـ المذود : هو اللسان وهذا كناية عن قوة البيان .

٣ـ جلد المريرة : أي قوي العزيمة .

٤ـ راجع : تاريخ الطبري ، دار الأعلمي ، بيروت ، ج٢ ، ص ١٣ . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص١٥ .

«لقي عمرو بن العاص الحسن بن علي(عليه السلام) في الطواف، فقال عمرو:

«يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك؟ فقد رأيت الله أقامه بمعاوية، ثابتاً بعد ميله، وبيِّناً بعد خفائه. أفيرضى الله قتل عثمان؟ أم من الحق أن تدور في البيت كما يدور الجمل بالطحين؟ عليك ثياب كغرقيء[1] البيض، وأنت قاتل عثمان. والله، إنه لألمُّ للشعث[2]، وأسهل للوعث[3] أن يوردك معاوية حياض أبيك».

فقال الحسن(عليه السلام):

«إن لأهل النار علامات يعرفون بها، وهي الإلحاد في دين الله، والموالاة لأعداء الله، والانحراف عن دين الله. والله، إنك لتعلم أن علياً لم يتريث في الأمر، ولم يشك في الله طرفة عين. وأيم الله، لتنتهين، يا ابن العاص، أو أقرعنَّ قصتك[4] بقراع وكلام. وإياك والجرأة عليّ، فإني من عرفت، لست بضعيف المغمز[5]، ولا بهش المشاشة[6]، ولا بمريء المأكلة. واني لمن قريش كأوسط القلادة. معروف حسبي، لا أُدعى لغير أبي، وقد تحاكمت فيك رجال من قريش، فغلب عليك ألأمها حسباً، وأعظمها لعنة. فإليك عني، فإنما أنت نجس، ونحن أهل الطهارة، أذهب الله عنا الرجس، وطهرنا تطهيراً»[7].

١ـ غرقئ البيض: هو القشرة الرقيقة الملتصقة ببياض البيض.
٢ـ الشعث: وهو التفرق والمقصود هنا لم ما تفرق من الأمة.
٣ـ الوعث: هو ما صعب من الطرق أو الطريق الصعب المسير.
٤ـ قصتك: يعني جبينك أو أطراف الأذنين يُقال قصه إذ قطع أطراف أذنيه.
٥ـ الغمز: هو الجس والكبس باليد، والمغمز مكان الغمز، وهذا كناية عن القوة.
٦ـ المشاشة: هي رأس العظم اللين الذي يمكن مضغه، والهش هو الضعيف.
٧ـ الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٨٥.

خطب المناسبات

أ ـ الخطب الحفلية

وهي الخطب التي كانت تلقى حين قدوم الوفود على الأمير ، أو الخليفة ، أو الحاكم ، أو تلقى في المناسبات العامة التي يتكلم فيها الناس عادة ، وتلقى فيها الخطب تارة باسم الوفد الفلاني ، وأخرى باسم القبيلة الفلانية . وقد كان هذا النوع من الخطب مشتهراً في الجاهلية وصدر الإسلام ، والعهد الأموي ، كما قدمنا، ثم زال في العهد العباسي .

أما في عهدنا هذا ، فللخطب الحفلية وجود لا بأس به ، لكنها تغيرت عما كانت عليه فيما مضى ، وذلك لأنها كانت تلقى ، فيذكر فيها فضائل الموفود عليه، أو تطرح فيها شكاوى الناس من بعض الأمور التي كانوا يأملون منه أن يساعدهم في حلها ، أما اليوم فيذكر فيها أمور عامة تهم الناس ، وتناسب الحفل الذي تلقى فيه . فقد يكون احتفالاً بعيدٍ وطني ، أو بذكرى سعيدة ذات أهمية معينة ، أو ما

شابه ذلك .

وللمقارنة والتوضيح بين الخطب الحفلية القديمة والحديثة نذكر لكل منهما مثالاً خاصاً . فمن الخطب الحفلية القديمة ما جاء في البيان والتبيين من خطبة لعبد الله بن الأهتم حينما وفد على الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

«أما بعد ، فان الله خلق الخلق غنياً عن طاعاتهم ، آمناً لمعصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون . والعرب بشر تلك المنازل ، أهل الوبر والمدر، تُحتاز دونهم طيبات الدنيا ، ورفاهة عيشتها . ميِّتُهم في النار ، وحيهم أعمى ، مع ما لا يحصى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه . فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولاً منهم ، عزيزاً عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ، ولقبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ، لا يرحل إلا بأمره ، ولا ينزل إلا بإذنه . واضطروه إلى بطن غار . فلما أمر بالغرامة[١] ، اصفرَّ لأمر الله لونه ، فأفلج[٢] الله حجته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا تقياً نقياً . . .

إلى أن قال : ثم إنك ، يا عمر ، ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقمتك ثدييها . فلما وليتها ألقيتها حيث ألقاها الله . فالحمد لله الذي جلا بك حوبتها[٣] ، وكشف بك كربتها . امض ، لا تلتفت ، فإنه لا يغني من الحق شيئاً . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات» .[٤]

١ـ الغرامة : كل ما يجب دفعه ، والمقصود هنا إظهار الدعوة .
٢ـ أفلج : يعني أظهر .
٣ـ الحوبة : هي الغم والهم .
٤ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٩٩ .

ومن الخطب الحفلية الحديثة الخطبة التي ألقاها الشيخ بشارة الخوري أحد الرؤساء السابقين للجمهورية اللبنانية في احتفال الجلاء للجيوش الأجنبية عن لبنان، وتسمى «خطبة الجلاء» ، وقد جاء فيها:

«إنه ليسعدنا ، في هذا اليوم التاريخي ، أن نجدد إيماننا بلبنان . إننا نؤمن بمن خلقه ، وأبدعه من خلوده . نؤمن بسمائه وترابه ومائه . نؤمن بصخره وبثلجه وبأرزه . نؤمن بجماله ، ونؤمن على الأخص برجاله ، في الوطن والمغترب . نؤمن إيماناً حياً أن يد الله مع لبنان ، ليؤدي على أتم ما يُرتجى رسالته التاريخية ، رسالة العلم والأدب والثقافة ، رسالة السلام ، رسالة الجهاد والوطنية والتضحية ، رسالة العالم الجديد الجميل الساعي وراء الطمأنينة والاستقرار بعد سفك الدماء ، وتعذيب الأبرياء .

فإلى الإمام ، إلى العمل المثمر ، أيها اللبنانيون» .[1]

ب ـ خطب التكريم والمدح والتهنئة

أما التكريم فيحصل عند قدوم وفد على الخطيب ، أو على قومه ، أو في ذكرى ولادة ، أو وفاة شخصية لمعت في سماء التاريخ ، فاستحقت التكريم ، كقائد ، أو أديب ، أو باحث ، ونحو ذلك . ويذكر في الخطبة عادة شيء من خصاله ومكرماته بشكل مقبول ، ومناسب للمقام .

وأما خطب المدح ، فتلقى لمدح حاكم عادل ، أو قائد شجاع ، أو عالم

١ـ لجنة من الأساتذة ، بيان العرب الجديد ، بيروت ، ص ١٦١ .

رباني، أو ما شابه ذلك . ولا بُدَّ في هذه الخطب من ذكر ما يناسب شأن المكرم أو الممدوح ، فلا يمدح الأديب بالشجاعة ، ولا القائد العسكري بالشاعرية ، والإحساس المرهف ، ولا القاضي بالحمية . ولا بُدَّ من عدم المبالغة في المدح ، وإلا انعدم بهاؤه ، وزال رونقه . فأكثر المدح بقاءً وأدومه في الأذهان ما كان صادقاً خالياً عن المبالغات والتهويل ، وإلاّ ضاع أثره ، وهان على السامعين خطره .

ومثالاً على خطب المدح نأخذ ما قاله شبيب بن شبيبة حينما قيل للخليفة: إنه يعد الخطاب مسبقاً ، ويحضره ، ويستعد له . فلو أمرته أن يخطب فجأة ليفتضح أمره . فطلبه فجيء به إلى المنبر مباشرة ، فوقف وقال في ما قال :

«ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة : الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر ، فأشبه منه صولته ومضاءه . وأما البحر الزاخر ، فأشبه منه جوده وعطاءه . وأما القمر الباهر ، فأشبه منه نوره وضياءه . وأما الربيع الناضر ، فأشبه منه حسنه وبهاءه» .

ثم نزل وهو يقول :

وموقف مثل حد السيف قمت به ... أحمي الذمار وترميني به الحدق

فما زلقت وما ألقيت كاذبة ... إذا الرجال على أمثاله زلقوا[1]

وأما خطب التهنئة فتلقى عند تولي حاكم جديد منصب الحكومة ، أو القيادة، أو الإمارة ، أو عند حصول فتح ما ، أو عند أية مناسبة سعيدة يُهنّأ بها صاحبها .

ويظهر أنه كان لمحافل التهنئة وخطبها مراسم خاصة متعارف عليها ، لا

١ـ العقد الفريد ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص١٥٨ .

يمكن تجاوزها ، فلا يجترئ عليها كل من يود الكلام في كل ناد ، ولا يقوم بها إلا من يؤذن له بالحديث . فقد رووا أن عبد الرحمن الداخل لما فتح مدينة سرقسطة بعد قيام ثائرها الحسين الأنصاري ، قام واحد ممن لا يؤبه به من الجند يهنئه بصوت عال . فقال له عبد الرحمن :

«والله ، لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقي ، فأوجب علي ذلك أن أنعم على من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال . من تكون ؟ حتى تُقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ، ولا متهيب لمكان الإمارة ، ولا عارفٍ بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن جهلك يحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة» .[١]

وقد يصادف في بعض الأحيان أن يكون الوالي الجديد قد رزء بأبيه الوالي القديم ، ما يجعله يقوم مقامه يوم مماته ، فيكون بذلك قد أصاب أمرين : مصيبة بموت والده ، ونعمة باستلام الولاية ، لذلك تصعب على الخطيب في هذا المقام التهنئة . فلا يجد الخطيب بداً من أن يضمن كلامه تهنئة وتعزية في ذات الوقت ، وهو ما لا يتيسر إلا للفصحاء المفوهين ، وذلك كما حصل لعبد الله بن همام السلولي حين توفي معاوية ، واستخلف بعده ابنه يزيد ، فقام لتهنئته ، فقال :

«يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية . فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً . فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزئت . فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت خلافة الله ، ففارقت

١ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣، ص١٦٤ .

جليلاً ، ووُهبت جزيلاً ... » .[1]

ج ـ خطب الرثاء والعزاء

وتلقى لتأبين بعض الأشخاص المهمين في مناسبة ارتحالهم ، ويذكر فيها عادة شيء من حياة المؤبَّن ، ونُبَذ من تاريخه ، وتعدد فيها فضائله ومزاياه ، ثم يعزَّى به أولياء الأمر بعده ، أو أقرباؤه وقبيلته ، أو أُمته جمعاء .

وتحتوي خطب العزاء والرثاء على التوجع والتفجع على الفقيد المعزى به ، واستثارة عاطفة وحزن السامعين .

ومثالاً على ذلك نأخذ قول الحسين بن علي(عليه السلام) لما وقف على قبر أخيه الحسن بن علي(عليه السلام) بعد أن دسَّ له معاوية السم بواسطة زوجته جعدة بنت الأشعث ، فمات :

«رحمك الله ، يا أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحق مظانه ، وتؤثر الله عند تداحض الباطل في مواطن التقية بحسن الروية ، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها فاقرة ، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف نقية الأسرة[2] . وتردع أعدائك بأيسر المؤونة عليك . ولا غرو ، وأنت ابن سلالة النبوة ، ورضيع لبان الحكمة . فإلى رَوح ، وريحان ، وجنة نعيم . أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السلوة ، وحسن الأسى عنه» .[3]

١ـ المصدر السابق ، ص٢٦٣ .

٢ـ الأسرة : هي الخطط في ظاهر اليد .

٣ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٣٩ .

د ـ خطب النكاح

وهي الخطب التي يلقيها الخاطب ، أو أهله من جهة ، وأهل المخطوبة من جهة أُخرى . ويتكلم فيها الخاطب عن طلب الرجل للمرأة ، وإرادته إياها ، وانه رآها فأعجبته ، أو سمع بها فتيمته ، وأنه يحب أن يتقرب من أهلها بطلب يدها على سنة الله ورسوله . ويحسُن أن يتكلم الخاطب في مستهل خطبته عن استحباب الزواج ، وأنه سنة رسول الله (ﷺ) ، وأن الشرع الحنيف حث عليه ، ويذكر بعض حسناته .

ويستحب للخاطب الإطالة ، ويحسن من المخطوب إليه الإيجاز ، فيرد بالقبول أو التأجيل ، وان كان الغالب هو القبول في مثل هذه الموارد .

قال الأصمعي :

«كان رجالات قريش من العرب تستحب من الخاطب الإطالة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز» .[1]

لكن الإطالة لها حدود لا يمكن تجاوزها . فلا بُدَّ ألا تتسبب الخطبة الطويلة بسآمة وضجر الحاضرين ، وإلا أنتجت عكس المطلوب .

ورد في كتب الأدب أن رجلاً خطب امرأة إلى قومها ، وجاء بخطيب لأجل ذلك ، فقام الخطيب ، فاستفتح بالحمد ، وأطال بالصلاة على النبي ، ثم ذكر البدء، وخلق السماوات والأرض ، واقتص ذكر القرون الخالية حتى ضجر مَن حضر ، ثم التفت الخطيب إلى الخاطب ، فقال : ما اسمك أعزك الله ؟

١ـ عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ج٤ ، ص٧٢ .

فقال : والله ، لقد نسيت اسمي من طول خطبتك . وهي طالق إن تزوجتها بهذه الخطبة .

فضحك القوم ، وعقدوا له في مجلس الآخر.[1]

وخُطب النكاح من أشد أنواح الخطب إجهاداً للخاطر ، وكداًّ للنفس ، فلا يقوم بها إلا المقتدر على الخطابة الضليع بها ، لذلك كان عمر بن الخطاب يقول : «ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح»[2].

وكمثال على خطب النكاح نذكر الخطبة المعروفة باسم «خطبة الإمام علي بن موسى الرضا»(عليه السلام) ، حيث يقول فيها :

«الحمد لله الذي حمد في الكتاب نفسه ، وافتتح بالحمد كتابه ، وجعل الحمد أول محل نعمته ، وآخر جزاء أهل طاعته .

صلى الله على محمد خير البرية ، وعلى آله أئمة الرحمة ، ومعادن الحكمة ، والحمد لله الذي كان من نبأه الصادق ، وكتابه الناطق ، أنَّ من أحق الأسباب بالصلة ، وأولى الأمور بالتقدمة سببٌ أوجب نسباً ، وأمرٌ أعقب غنى ، فقال جل ثناؤه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[3].

١ـ الخطب والمواعظ ، مصدر سابق ، ص٦٣ .

٢ـ المصدر السابق ، ص٦٢ .

٣ـ سورة الفرقان ، آية ٥٤ .

وقال جل ثناؤه :

﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] .

لو لم تكن في المناكحة والمصاهرة آية منزلة ، ولا سنَّةٌ ، لكان ما جعل الله فيه من بر القريب ، وتأليف البعيد ما رغب فيه العاقل اللبيب ، وسارع إليه الموفق المصيب . وأولى الناس بالله من اتبع أمره ، وأنفذ حكمه ، وأمضى قضاءه ، ورجا جزاءه . ونحن نسأل الله تعالى أن يعزم لنا ولكم على أوفق الأمور .

ثم إن فلان بن فلان من قد عرفتم مروءته ، وعقله ، وصلاحه ، ونيته ، وفضله وقد أحب شركتكم ، وخطب كريمتكم فلانة ، وبذل لها من الصداق كذا ، فشفعوا شافعكم ، وأنكِحوا خاطبكم .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»[2] .

١ـ سورة النور ، آية ٣٢ .

٢ـ المجلسي ، محمد باقر ، بحار الأنوار ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ط. ٣ ، ج١٠٠ ، ص٢٦٤ .

الخطب الشرعية

أ ـ خطب الجمعة

ونعني بالخطب الشرعية الخطب التي أوجبها الشارع المقدس ، وهي خطبة الجمعة ، وخطبة العيد ، ونحن نفصل الكلام عن كل منهما في فصل مستقل .

أما خطبة الجمعة فقد مر بعض الكلام عنها في مستهل الكتاب ، وما نريد ذكره هنا هو أن خطبة الجمعة تُعد جزءاً من الصلاة ـ صلاة الجمعة ـ . ولما كانت الصلاة واجبة في حال وجود النبي أو الإمام المعصوم دون خلاف كانت خطبة الجمعة واجبة أيضاً ، إلاّ أنه وقع النزاع في وجوبها حال الغيبة ، بل ذهب بعض الفقهاء إلى حرمتها . والبحث في هذا النزاع موكول إلى كتب أُخرى ، ونقصر الكلام هنا على كيفيتها ، فنقول :

خطبة الجمعة مؤلفة من خطبتين ، تفصل بينهما جلسة خفيفة ، ولا تصح الصلاة بدون هاتين الخطبتين . روى المحقق الحلي(قدس سره) بسنده عن الإمام

الصادق(عليه السلام) أنه قال :

لا جمعة إلا بخطبة ، وإنما جعلت ركعتين لمكان الخطبتين [1] .

ويجب تقديم الخطبتين على الصلاة لقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [2] .

فلو كان موقع الخطبة بعد الصلاة لما جاز الانتشار فور انقضاء الصلاة ، ولم ينقل الخلاف في ذلك إلا عن عثمان بن عفان حيث قال بتأخيرهما إلى ما بعد الصلاة .

ويجب القيام حال إلقاء الخطبة ، وذلك تأسياً بالنبي (صلى الله عليه وآله) كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [3] .

ثم إن الخطبة الأولى لا بُدَّ أن تتضمن وعظ المصلين ، وأمرهم بالتقوى ، بعد الحمد والصلاة على النبي وآله . ويشترط في ذلك أن يكون باللغة العربية على الأحوط [4]، ويترجم لغير العرب بعد أدائه بالعربية . ويتعرض في الخطبة الثانية عادة لأهم أمور المسلمين الحياتية والسياسية .

ولا بُدَّ من جلسة خفيفة بينهما ، كما هو مشهور . جاء عن الإمام الصادق(عليه السلام): «وليقعد قعدة بين الخطبتين» [5] .

١ـ العاملي ، الحر ، وسائل الشيعة ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، قم ، ١٤١٤ هـ. ط. ٢ ، ج٧ ، ص ٣١٤ .
٢ـ سورة الجمعة ، آية ١٠ .
٣ـ سورة الجمعة ، آية ١١ .
٤ـ الإمام الخميني ، تحرير الوسيلة ، دار الكتب العلمية ، قم ، ١٣٩٠هـ. ط.٢ ، ج١ ، ص ٢٣٤ .
٥ـ وسائل الشيعة ، مصدر سابق ، ج٦ ، ص٢٧٢ .

ويتكئ الخطيب عادة على رمح ، أو سيف ، أو ما يحل محلهما في هذه الأيام من سلاح . ولا بُدَّ أن يكون الخطيب والمصلي واحداً[1] ، ولا تصح مع التعدد لذلك كان الخلفاء والولاة يُلزمون بتعلم الخطابة وإجادتها ، لأن إمام الجمعة هو الوالي ، فلا بُدَّ أن يكون خطيبها أيضاً .

والأمثلة على خطب الجمعة كثيرة جداً ، ولا تخرج في المضمون عن المواعظ الدينية أو الخطب السياسية، فلا أظن أن هناك حاجة إلى ذكر أمثلة عليها، ومن أراد الاطلاع فليراجع السيرة النبوية لابن هشام القسم الأول صفحة ٥٠٠ ، وجمهرة خطب العرب ، أوائل المجلد الأول ، أو بحار الأنوار المجلد التاسع عشر، صفحة ١١٦ ، أو تاريخ الطبري الجزء الثاني ، صفحة ٣٩٤.

ب ـ خطبة العيدين

لم يقل أحد من فقهائنا بوجوب صلاة العيدين في حال الغيبة ، وإنما أفتوا باستحبابها جماعة أو فرادى ، وبالتالي لا تكون الخطبة واجبة إلا حال الحضور كما في صلاة الجمعة .

لصلاة العيدين خطبتان مثل خطبتي الجمعة وهما في صلاة العيدين بعد انقضاء الصلاة لا قبلهما[2] . ويذكر الخطيب عادة في خطبة عيد الفطر أموراً

١ـ راجع مثلاً: السيد الخوئي، منهاج الصالحين، نشر مدينة العلم ، قم ، ١٤١٠ هـ. ط. ٢٨ ، ج١، ص١٨٦. والإمام الخميني ، تحرير الوسيلة ، مصدر سابق ، ج١، ص٤١.

٢ـ راجع مثلاً : المحقق الحلي ، شرائع الإسلام ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٣ط. ٣ ، ج١، ص ٧٩ ، و منهاج الصالحين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٥٦.

تتعلق بالزكاة ـ أي زكاة الفطرة ـ وفي خطبة عيد الأضحى يذكر ما يتعلق بالأضحية . وقد يتعرض الخطيب لبعض الوعظ بما يناسب الحال ، أو لبعض الأمور الحياتية إن وجد الحال تتطلبه .

ومثالاً على خطب الأعياد نستعرض خطبة عيد الفطر التي ألقاها الإمام علي (عليه السلام) ، فقال بعد الحمد والصلاة :

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي رغّب في التقوى ، وزهّد في الدنيا ، وحذر المعاصي ، وتعزز بالبقاء ، وذلل خلقه بالموت والفناء . والموت غاية المخلوقين ، وسبيل العالمين ، ومعقود بنواصي الباقين . لا يعجزه أباق الهاربين . يهدم كل لذة ، ويزيل كل بهجة . والدنيا دار كتب الله لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . فأكثرهم ينوي بقاءها ، ويعظم بناءها . فارتحلوا منها ، يرحمكم الله ، بأحسن ما بحضرتكم ، ولا تطلبوا منها أكثر من القليل .

ألا إن الدنيا قد تنكرت ، وأدبرت ، وآذنت بوداع . ألا وان الآخرة قد أقبلت ، وأشرفت ، وآذنت بلقاء . ألا وان المضمار اليوم ، والسباق غداً ، وأن السبقة الجنة والغاية النار .

أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه . جعلنا الله وإياكم ممن يخافه ، ويرجو ثوابه .

ألا إن هذا اليوم جعله الله لكم عيداً ، وجعلكم له أهلاً ، فاذكروا الله يذكركم، وادعوه يستجب لكم ، وأدُّوا فطرتكم ، فإنها سنة نبيكم ، وفريضة واجبة من ربكم . فليؤدها كل امرئ منكم عنه وعن عياله كلهم ، ذكرهم وأنثاهم،

صغيرهم، وكبيرهم ، وحرهم ، ومملوكهم ، عن كل إنسان منهم صاعاً من بر ، أو صاعاً من تمر ، أو شعير .

فأطيعوا الله فيما فرض عليكم ، وأمركم به من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم شهر رمضان . . . وهكذا إلى أن أتمها . ثم جلس جلسة خفيفة ، وقام للثانية ، فقال في ما قال :

«اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات . اللهم اجعل التقوى زادهم ، والحكم والإيمان في قلوبهم ، وأوزعهم أن يشكروا نعمتك التي أنعمت عليهم ، وأن يوفوا بعهدك الذي عادتهم عليه ، إله الحق خالق الخلق . اللهم اغفر لمن توفي من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، ولمن هو لاحق بهم من بعدهم ، إنك أنت العزيز الحكيم .

﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾»[1] .

١ـ الأمين ، السيد محسن ، مفتاح الجنات ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط. ١ ، ج١، ص٣٧٤ .

خطب المدافعة والاتهام

هذا العنوان أوسع من عنوان الخطب الذي درج على إطلاقه على هذا النوع من الخطب كتّاب الأدب ومؤرخوه . إذ أن الدفاع عن النفس بواسطة الخطابة أمام الناس ، أو الدفاع عن أحد الأقارب أو الأحبة أمام أعدائه ومنتقصيه يدخل في خطب المدافعة ، وإن كان لا يمت إلى الخطب القضائية بالمعنى الاصطلاحي بصلة . وقد ذكر لنا التاريخ أمثلة وشواهد على خطب المدافعة والاتهام . فلطالما تهجَّم قوم على شخص ما ، فقام مؤيدوه يدافعون عنه .

هذا محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير حينما نال من الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) ، فيقول :

يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ، أيُنتقص علي وأنتم حضور ؟ إن علياً كان سهماً صادقاً ، أحد مرامي الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوعهم[1] مآكلهم ، فثقل عليهم ، فرموه بصرفة الأباطيل . وإنّا معشر له على نهج من أمره ، بنو الحسبة من الأنصار ، فإن تكن لنا في الأيام دولة ننثر عظامهم ، ونحسر عن

١ـ يهوعهم : أي يجعلهم يتقيئون .

أجسادهم ، والأبدان يومئذٍ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب يتقلبون[1] .

وهكذا خطب الحسن(عليه السلام) في الرد على معاوية حين انتقص من علي(عليه السلام) وأمثلة أُخرى كثيرة من هذا القبيل .

وأما الخطب القضائية ، فهي الخطب التي تُلقى في المحاكم هادفة إلى إقناع الحاكم بعدالة قضية يدافع عنها الخطيب ، أو ببطلان قضية يدعيها الخصم .

لم يكن لهذه الخطب وجود في حياة المسلمين إلا ما فرض عليهم في العصور المتأخرة من قبل الحكومات الحديثة بعدما تأسست المحاكم الأهلية عام ١٨٨٣م ، فصار الناس إذا ما أرادوا استرجاع حقوقهم من غاصبيها عبر الوسائل الشرعية القانونية عمدوا إلى هذه المحاكم ، وأوكلوا محامياً يدافع عنهم ، فتأخذ لهم المحكمة بحقهم إذا كان المحامي بارعاً في إثبات مدَّعاهم .

ولعل هذا النوع من الخطب يدخل ضمن دراسة القانون ، أو المحاماة التي تدرسها الجامعات العصرية . وهي تنقسم إلى قسمين :

١. الخطب التي يلقيها المحامي ، وتسمى «مرافعة المحامي» .

٢. الخطب التي يلقيها المدعي العام وتسمى «مرافعة النيابة العامة» .

وظيفة النيابة العامة توجيه التهم ، ودعمها بالأدلة ضد المدعى عليه ، والمطالبة بإنزال أقوى أنواع العقوبة بحقه حفظاً للقانون المدني ، وللنظام العام في البلاد . وغالباً ما تكون وظيفة المحامي الدفاع عن المدعى عليه ، ولذلك سمي بالمحامي أي المدافع ، وذلك برد التهم الموجهة من قبل النيابة العامة ، أو من قبل

١ـ المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ، دار الهجرة ، قم ، ١٩٨٤ ، ج٣ ، ص ٨٠.

محامي المدعي . ولا بُدَّ من إلقاء نظرة على كل من هـذين النـوعين مـن الخطـب حتى تتكامل الصورة عند القارئ الكريم .

ـ خطب النيابة العامة

إذا اقترف إنسان ما خطيئة خالف بها القانون الوضعي يكون أمامه خصمان :

ـ الأول : هو المجني عليه، أي صاحب المال المسروق مثلاً ،أو ولي المقتول، وما شابه ذلك .

ـ والثاني : هو المجتمع ، إذ يعتبر النـاس أن هـذا قـد أسـاء إلـى الـسلوك العـام للمجتمع ، ويُخشى منه على الآخرين فيما بعد .

فإذا رفع الخصم دعوة ضد خصمه وجهت النيابة العامـة التهمـة إلـى المـدعى عليه ، لأنها ممثلة الهيئة الاجتماعيـة العامـة ، وتطالـب بحقـوق المجتمـع ، ولـذلك تكون وظيفة المدعي العام ، وهو وكيل النيابة العامة توجيه التهم ، ودعمها بالأدلة والبراهين التي تحصل عليها من الشرطة .

وبما أن النيابة العامة ليست طرفاً خاصاً يطلب لنفسه مصلحة شخصية ، يُشترط فيها أن تراعي جانب الاعتدال والواقعيـة بـين المـدعي والمـدعى عليـه دون تحيـز لأحدهما ، ودون أن تستعين بأمور باطلة لإقناع القاضي بإدانة المتهم . فيجب على من يمثل النيابة العامة أن ينظر إلى الجميع نظرة واحدة ليكون الجميع لديه سـواء ، ولذلك عليه أن تكون خطبته هادئة تصور الأشياء كما هـي ، وتعبـر عنهـا بحجمهـا العادي ، بلا مبالغة ولا تهويل . وعليه الوضوح في سرد الحقائق بلا تعقيـد ، وعـدم

الإسراف في التعبير والكلام .

وأما بالنسبة لأمثلة مرافعة النيابة العامة ، فلمَّا لـم يكـن لهـا وجـود فـي الكتـب الخطابية والأدبية التي بين أيدينا إلا مقتطفات لا تكفي للتعبير عن المقـصود ، ومـا وجد منها في بعض الكتب القانونية ليس له ميزة تاريخية أو أدبية ، فقـد ارتأينـا أن تكون مثال كل من مرافعـة النيابـة ومرافعـة المحـامين مـن وضـعنا ، وتـدور حـول موضوع معين ، ولنفرضه "موضوع سرقة مال مـن أحـد المحـال التجاريـة"، فنقـول بلسان النيابة العامة :

حضرة القاضي ...

حضرات المستشارين ...

أيها السيدات والسادة الحاضرون ...

إن من أخطر الأشياء على المجتمع الـسليم وجـود عنـصر فاسـد فيـه ، يتحـرك بكل راحة وحرية دون وازع من قانون . وهل يأمن المجتمع على أفراده الصالحين من أن يصبحوا فاسـدين بـسبب وجـود مـن ينـشر فـيهم الفـساد ، ويـشجعهم علـى الرذيلة ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الإجرام بشكل مباشر أو غير مباشر . وليس مثـال التفاحة الفاسدة بين التفاحات الصحاح عـن أذهاننـا وأذهـانكم ببعيـد . فـلا بُـدَّ أن ينال كل مجرم جزاءه غير منقوص كي يثوب إلى رشده ، ولا يعـود لمثلهـا أبـداً ، ويتعظ به الآخرون ، ويرتدعوا عن كل عمل مفسد .

سيدي القاضي ...

إن المتهم الماثل بين أيديكم هو واحد مـن هـذه العناصـر الفاسـدة . ويخـشى

منه على الأفراد الآخرين الطيبين أن يتحولوا ، اقتداءً به ، وبتشجيع منه ، إلى مجرمين أمثاله . إنه سارق . وقد أثبتت الأدلة الكاملة التي بين أيدينا أنه قام بعمله هذا عن سابق تصور وتصميم .

فالبصمات التي أخذها رجال التحقيق في شرطة المباحث في محل الحادث أثبتت بما لا يقبل الشك أنها بصماته ، وأنه صاحبها للتطابق التام بينهما . والجيران الذين يقطنون بجوار المحل التجاري المعتدى عليه لم يوفروا شهاداتهم الواضحة والصريحة ، والتي تدينه بما لا يبقى معه مجال للشك أو الجدل ، وتثبت أنه كان واقفاً بالباب حينما رأوه ، وقد فر راكضاً عندما رآهم . فماذا كان يفعل في ذلك الوقت المتأخر من الليل أمام المحل ؟ وهل فرَّ إلا خوفاً من أن يفتضح أمره ، ويعلم بأنه سطا على ذلك المحل ؟ ثم إن الأموال التي ضبطت بحوزته تتناسب مع المبلغ الذي فقده صاحب المحل من خزانته . وبناء على كل هذه الحقائق الدامغة لا يمكن لنا إلا أن نجزم بعد إعمال الدقة ، وتحكيم العدل بأنه هو السارق ، وليس سواه .

وما كسر القفل الذي كان يغلق به الباب الخارجي إغلاقاً محكماً ، وبعثرة ما كان موجوداً هناك من أغراض ، وأخذ الأموال دون سواها من الموجودات إلا دليل واضح ودامغ على انه كان قاصداً مصمماً على فعله الشنيع هذا ، فلا بُدَّ أن ينال على ذلك العقاب الذي يستحقه .

لكل هذا أطلب من حضرتكم أن تنزلوا بالمتهم أشد أنواع العقوبة التي ينص عليها القانون حسب البند الفلاني في المادة الفلانية . . . .

وأخيراً أرجو أن تقبل احتراماتي ، يا سيدي الرئيس .

ـ مرافعة المحامي

إن للمحامي وظيفة مهمة جداً يلقيها على عاتقه الواجب الاجتماعي ، لأنه الأمل في رد الحق إلى صاحبه ، ودفع الظلم عن المظلوم ، وإظهار المجرم أمام الجميع كي يتبين لهم جرمه بالأساليب القضائية المعتبرة ، ورفع التهمة عن البريء ، وإظهار حقه ، وتبيين براءته أمام الملأ . لذلك كان لا بُدَّ للمحامي أن يتحلى بصفات خاصة ، أهمها الاستقامة ، والإنصاف ، والوعي في العمل ، والإحساس بالمسؤولية . وان يكون صاحب ضمير حي ، مؤمناً بالله ، يخافه في كل حركاته وسكناته . فالمسؤولية التي على عاتق المحامي هي صيانة أرواح الناس ، وأعمارهم ، وأموالهم ، وأعراضهم . فالمحامي البارع يستطيع أن يُنجي القاتل من الإعدام ، والسارق من القطع أو السجن. وفي مقابل ذلك يمكنه إن لم يكن ماهراً في صناعته أن يساهم في قتل البريء ، وسجن من لا ذنب له سوى أنه وكَّل محامياً ضعيفاً للدفاع عنه . ويشترط في المحامي أن يتحلى بالرغبة الصادقة في إنصاف المظلوم واسترداد حقه ، لا أن يكون همه كسب المال والشهرة ، ولو على حساب المظلومين الأبرياء ، أو مجرد ربح القضايا ، ولو كان من يدافع عنه مجرماً حقيقياً .

جاء في كتاب الخطابة لمحمد أبو زهرة :

قال الأستاذ غرابلي باشا في محاضرة ألقاها على المحامين الذين هم تحت

التمرين سنة ١٩٣١م :

«المحامي هو قبل كل شيء نصير المظلوم ، ثم هو بعد ذلك الرجل القانوني الذي يستطيع أن ينتصر لذلك المظلوم انتصاراً مفيداً . وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحامي . فمن وجد في نفسه ميلاً فطرياً لنصرة المظلوم ومحاربة الباطل ، فليسلك سبيل المحاماة إذا أراد . ومن لم يحس في نفسه بهذا الميل الغريزي ، فإني أنصحه أن يبتعد عن المحاماة ، وأن يشق له في الحياة طريقاً آخر. . . ومتى كان همه جمع المال ، فما أشقى المحاماة بهذه الغاية ، بل ما أشقى العدالة بمحاماة تكون وسيلة لجمع المال ، لأن كل وظيفة من وظائف العدالة تفسد ، وتنقلب إلى خطر محقق إذا كان صاحبها طالب عيش قبل كل شيء ، إذ أن الوظيفة تكون في هذه الحالة مسخَّرة لخدمة الشخص ، وليس الشخص هو المسخَّر لخدمة الوظيفة ، فيا لها من جريمة ! جريمةُ أُولئك الذين يستخدمون وظائف العدل لإشباع بطونهم» .[١]

ويشترط في المحامي عدة شرائط نستعرض بعضها :

١. الإلمام التام بأحوال الجماعات من الناحية الاجتماعية والثقافية ، كمعرفة حال المزارع ، والتاجر ، والطالب ، والموظف ، والسوقية من الناس ، حتى يعرف كيف يدافع عن كل واحد منهم بما يتناسب معه .

٢. دقة الانتباه ، وقوة الملاحظة ، إذ ربما تتوقف براءة المتهم على التفاتة دقيقة لما جاء في خطاب النيابة العامة ، فيأخذ منه مستمسكاً يثبت به براءة

١ـ أبو زهرة ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦ .

موكله .

٣. المحافظة على برودة الأعصاب ، وعدم الانفعال حين الإلقاء ، لأن الغضب يذهب بحجته ، ولو كانت دامغة ، ويضعف دليله ، ولو كان قاطعاً.

٤. السعي لجلب رضى القاضي ، وذلك بإتباع الأمور التالية :

أ. البدء بذكر الحجج الأقوى ثم الأقل قوة ، وهكذا . فإن ذلك قد يلقي في نفس القاضي الإيمان بصدق ما يقوله :

ب. تسهيل أخذ النتائج على القاضي ، بأن يقدم المقدمات الواضحة ، ويدع للقاضي أن يستنبط النتيجة بسهولة .

ج. أن يلتزم بما يروق للقاضي من أساليب الكلام ، وذلك بحسب ما يكون قد تحرى عنه مسبقاً ، وعرفه عن طباعه ، فقد يكون القاضي ممن يكره الخلابة والتزويق في الكلام ، وقد يكون ممن يبهره السجع والكلمات الغريبة وغير ذلك .

ثم إن المبالغة في الإدعاءات ، وزيادة الأمور وتهويلها ، أمر مستقبح يجب على المحامي تجنبه . ولكن للأسف لقد اتبع بعض المحامين ذلك حتى صار شعاراً لهم . فقد ترادفت في أذهان الناس كلمة المحامي والمتحدث المُبالغ في هذا الزمن ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن بعض المحامين في هذا العصر ترك فضيلة الصدق ، واعتمد أسلوب المخادعة ، وتضخيم الأمور للوصول إلى المصالح الشخصية .

ومن الأمور التي تساعده بشكل كبير اختيار الألفاظ الرنانة الجزلة ، والفصيحة ، والنطق السليم ، والصوت الجهوري ، والوقفة الصحيحة ، والإشارات المحكمة ، والنظرات الموزعة توزيعاً مناسباً ، واستدرار عطف القاضي ، وإثارة شعور النظارة ، وتعاطفهم معه ، وجلب تصفيقهم وتأييدهم ، مما يجعله يظهر أمام القاضي وكأن الحق ، كل الحق ، معه دون سواه ، فيؤثر كل ذلك على قناعة القاضي ، ويجعله يشعر بأن كلام الخطيب كلام واقعي قريب من أذهان الناس والعرف ، فيحكم له بما يريد .

ولنأخذ مثالاً على ذلك هذه المرافعة رداً على مرافعة النيابة العامة :

سيدي الرئيس ...

أيها المستشارون الأفاضل ...

يا حضرات السادة الكرام ...

إنه لمن الظلم الفادح أن يَلقى البريء عقاب المجرم ، وأن تُلقى تبِعة المذنبين على كاهل من لا ذنب له . وإنه لمن نافلة القول أن أذكركم بأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ، وهذا الماثل أمامكم ، فلان الفلاني ، هو أحد الأبرياء الذين لا يجوز لنا ، وبأي وجه ، أن نلقي على كاهلهم تبعات أعمال الآخرين لا لسبب إلا لأننا لم نجد المجرم الحقيقي .

ولا أظن أبداً أن العقل والضمير يجوِّزان لنا توجيه التهم إلى الناس جزافاً بدون تثبت تام وتحقيق دقيق . إذ أن كل الأدلة التي سيقت لإثبات التهمة على موكلي لا تعدو كونها تكهنات وتخرصات لا دليل عليها ، ولا تستند إلى أساس

من الصحة ، أو إثارة من علم ، ولا تفي بالمقام ، ولا تدل على أنه مجرم ، أو حتى مشارك في الجرم .

فالبصمات التي أخذها قسم التحقيق هي لـه . وأعترف بـذلك ، لأن الحق لا يمكن التهرب منه . لكن لا يمكنها مطلقاً أن تدل على أنـه هـو الـذي باشر عمليـة السرقة ، أو كان له فيها دخالـة . إن المـتهم المـذكور حينما كـان آتيـاً إلـى منزلـه الذي يقع في نفس الشارع الذي حصلت فيه السرقة بعد منتصف الليل ، لفت نظره أن الباب الكبير مفتوح ، والقفل مكسور ، فلم يشك أن هناك شـيئاً غيـر عـادي قـد حصل ، فأراد ، وبـدافع مـن الفـضول الـذي قلمـا ينجـو منـه بـشر علـى وجـه هـذه المعمورة ، أن يعرف ماذا جرى ، ويستقـصي الخبـر دون أن يعلـم أن فـضوله هـذا سيجره إلى محكمتكم هذه بتهمة القيـام بالـسرقة . فتقـدم إلـى البـاب . وبينمـا هـو يلقي نظرة من الخارج على ما في داخل المخزن وضـع وبـشكل لا شـعوري يديـه على الباب ، فعلقـت عليـه بـصماته ، وهـو غافـل عمـا سـيحمله لـه هـذا الأمـر فـي المستقبل من مفاجآت غير سارة . وقبل أن يخطو خطوة واحدة إلى الداخل غـادر المكان راكضاً ، خشية أن يُشك فيه بأنه هو السارق .

وحصل أن رآه بعضهم يركض ، فظنوه السارق ، وما هو إلا بريء تتالت عليه الصدف السيئة .

ومما يؤيد كلامي هذا أن فرع التحقيق حصل علـى بـصمات رجـل آخـر فـي مكان قريب من الخزانة ، وعلى بابها أيضاً ، وأتحدى ، يا سيدي الرئيس ، أن يجد رجال المباحث بصمة واحدة لموكلي على أي شيء داخل المخزن .

وأما بالنسبة للشهود ، فلم يشهدوا بأكثر من أنهم رأوا موكلي أمام المخزن هارباً ، أو بالأصح راكضاً ، لأنه لم يفعل ما يستحق الهروب ، وذلك لا يدل على ما حاول حضرة المدعي العام إثباته من أنه هو من قام بعملية السرقة .

وأما وجود مبلغ من المال بحوزته يتناسب كماً مع المبلغ المسروق ، فهذا إن لم يكن دليلاً على براءته ، فليس دليلاً على جرمه . لأنه لو كان سارقاً فعلاً لسعى إلى إخفاء هذا المبلغ ، لا إلى تركه معه لعدة أيام عرضة لرجال المباحث ، ويد العدالة . والذي يجعلنا نقطع بأن المال الذي وجد بحوزته لم يكن نفس المبلغ المسروق هو أن أوراق النقد التي يتكون منها المبلغ لا تتطابق تماماً مع الأوراق المفقودة ، إذ أن هذه الأخيرة يغلب عليها فئة أوراق الخمسين بينما أوراقه مختلفة الفئات .

فيا سيدي ، بناء على هذه الأدلة القاطعة ، وانطلاقاً من حرصنا على عدم ظلم أحد ، أطلب منكم ما اعتدتم عليه من تطبيق القانون بحذافيره دون ظلم للرعية ، أو إجحاف بحق أحد ، وهو ينص على براءة من لا دليل على جرمه .

إن موكلي فلان لا يستحق من محكمتكم الموقرة إلا البراءة ، نعم ، البراءة التامة ، وليس سواها .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ، يا سيدي الرئيس .

الخطب العلمية

وهي التي تسمى بالمحاضرات العلمية ، وتلقى على الخاصة من الجمهور وتتضمن بحوثاً دقيقة ، ويغلب عليها طابع الألفاظ الواضحة الخالية عن التشبيهات الغريبة والكنايات البعيدة . كما أن أسلوب إلقائها يختلف عن غيره من الأساليب . فيمتاز بالرصانة ، والهدوء ، والوضوح التام ، والإكثار من ضرب الأمثلة لتبيين المطلوب ، وإفهام المستمعين .

وهذا النوع غالباً ما يلقى في الجامعات العصرية ، والحوزات الدينية ، والمؤتمرات الفكرية . وقد يلقى في غير هذه المناسبات لدواع تقتضي ذلك . والغالب أيضاً أن يكون المحاضر مصطحباً بعض الأوراق ، أو على الأقل ورقة واحدة كتب عليها أهم الوقائع والأرقام التي يحتاجها خوفاً من أن ينساها خلال الإلقاء . بل ربما كتب بعض المحاضرين الخطاب كاملاً على الورقة ، وتلاه على الجمهور . وهذا لا بأس به في المحاضرات العلمية نظراً إلى صعوبة أو تعذر حفظ كل ما يلزم عرضه في الخطاب بشكل مرتب ، وان كان ذلك غير مرغوب فيه في غيرها .

والإلقاء عن الورقة لا بُدَّ فيه من أمور ، أهمها :

١. أن لا يكون حجم الورقة زائداً عن المتعارف ، ولا شكلها غريباً .

٢. أن لا تكون الأوراق كثيرة ملفتة للانتباه ، فان ذلك يلقي في نفوس الحاضرين الملل والسآمة .

٣. أن لا يحمل الورقة بيده، ويرفعها أمام الجمهور، لأنها سوف ترتجف ، ويظن من يراها أن الخطيب مضطرب وخائف ، وهذا ما يضعف ثقتهم به.

ويمكن تجنب هذه السلبية بحمل عدد من الأوراق مع بعضها ، أو وضع كتاب أو مجلة تحت الورقة كي لا ترتجف مع ارتجاف اليد ، أو أن يقرأها وهي موضوعة على منضدة المنبر .

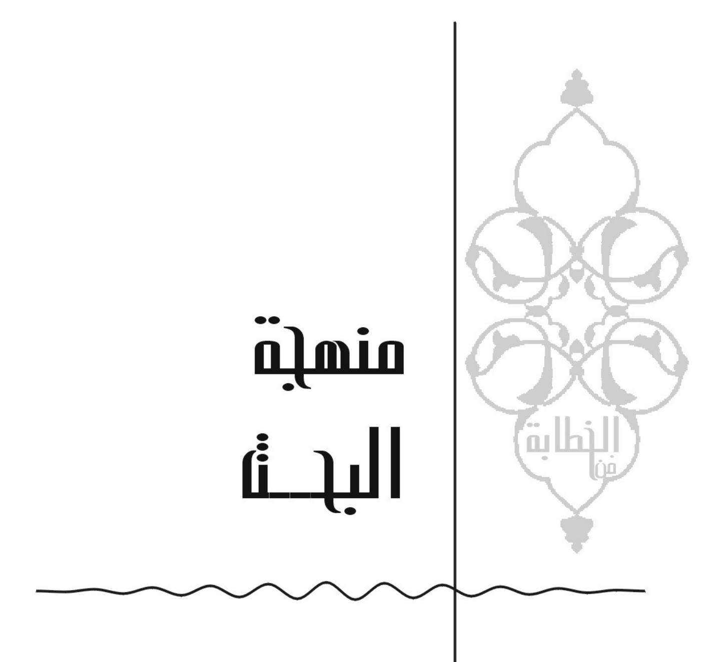
وعلى كل حال ، فإن الخطب العلمية نوع خاص ومهم لم يكن موجوداً في العصور السابقة كوجوده في العصر الحالي ، حيث انتشر انتشاراً واسعاً في جميع أقطار العالم .

ومثال الخطب العلمية أن يُقال :

«لقد قسم المتقدمون الكائنات الأرضية إلى ثلاثة أجناس عامة تسمى بالمواليد الثلاثة. وهي: الجماد والنبات والحيوان. وعرفوها بأن منها ما ينمو ، ومنها ما ينمو ويعيش، ومنها ما ينمو ويعيش ويحس. وقسمها المتأخرون إلى أجسام غير عضوية وأجسام عضوية . ويدخل تحت الأولى جميع الأجسام التي لا أعضاء لها ، وإنما يقوم كيانها بالنواميس الطبيعية والكيمياوية ، وهي المعادن والسوائل

والغازات . والثانية تتناول جميع الأجسام ذات الأعضاء التي لها حياة ما . وتنقسم أيضاً باعتبار النواميس الحاكمة فيها إلى قسمين ، وهما النبات والحيوان ..» .[1] .

١ـ بيان العرب الجديد ، مصدر سابق ، ص ١٦٦ .



منهجية البحث

أركان الخطابة

للخطابة ثلاثة أركان واضحة ، يقع البحث عنها في أبواب ثلاثة ، وهي :

١. الخطيب .

٢. المخاطب ، أي الجمهور ، وقد يسمى بالمستمعين أو النظارة .

٣. الخطاب ، أي الكلام الذي يلقيه الخطيب .

وهذا التقسيم يعتمد على تقسيم فطاحل العلماء الذين تعرضوا لعلم الخطابة أمثال ابن رشد والفارابي وابن سينا ، فقد جاء في الشفاء قسم الخطابة :

«فها هنا قائل وقول وسامعون»[1] .

وسنبدأ البحث في كل ركن من هذه الأركان على حدة لتبيين جزئياته ومسائله ما أمكن ، ثم نردف ذلك ببحث يدور حول استعراض بعض النصوص الخطابية التاريخية وتحليلها ، وتطبيق القواعد التي ذكرت في الكتاب عليها ، ثم ذكر شيء من نوادر الخطابة والخطباء، وطرائفهم كخاتمة . فإليك الركن الأول ...

١ـ الشفاء ، مصدر سابق ، ص ٣٦ .



قواعد الخطابة

الخطيب

يقع البحث في الأمور التي تتعلق بالخطيب من جهتين :

١. الجهة العامة .

٢. الجهة الخاصة .

ـ الجهة العامة للخطيب

وهي التي تبحث عن الحالة العامة للخطيب ، بمعنى أنها لا تختص بحال الخطاب ، وإلقاء الكلام ، بل تتعرض لحالات الخطيب عموماً ، وماذا يجب عليه أن يفعل قبل حال الخطابة ، كي يستطيع التأثير على الجمهور بالشكل المطلوب ، ويبحث فيها عن نقطتين رئيسيتين :

ـ النقطة الأولى : منزلة الخطيب لدى المخاطب

إنّه مما يزيد في تأثير هذا الأسلوب ـ أي الخطابة ـ على الجمهور منزلة

الخطيب في نفوس سامعيه[1] . فلمعرفة شخصية الخطيب الأثر البالغ في التأثير على المخاطب . وذلك فيما إذا كان لـه شخصية محترمة سعى في إيجادها قبل أن يخاطب الناس ، ويطلب منهم الاقتناع بما يقوله . فلمعرفة منزلته تأثير كبير في سهولة انقياد المستمعين إليه ، والإصغاء له وقَبول قوله ، فان الناس تنظر إلى مَن قال ، لا إلى ما قيل . وذلك بديهي ، إذ انهم إذا عرفوا أنَّ الخطيب الذي يتحدث إليهم هو العالم الفلاني ، أو القائد الكذائي ، أو الوجيه فلان ، فإنهم ينصتون أكثر مما ينصتون لرجل عادي ، وتؤثر كلماته فيهم بشكل أكبر من تأثير كلمات أخطب الخطباء فيما لو كان مجهولاً إلا ما ندر من الحالات مما هو على خلاف ذلك .

والمنزلة الجيدة يكتسبها الخطيب في الحياة العامة من اكتساب العلوم ، أو بلوغ منصب هام ، أو نبوغ في ميدان من الميادين الحياتية المحببة إلى الناس .

ـ التعريف

ثم إنَّ معرفة هذه المنزلة ، أو فلنقل تعريف المخاطب على هذه المنزلة ـ وهي أمر مهم ، وإلا لم يتحقق المطلوب ـ تحصل بإحدى طريقتين :

ـ الطريقة الأولى :

هي الطريقة التي كانت متبعةً قديماً . وهي أن يبدأ الخطيب بتعريف نفسه بذكر حسبه ونسبه ، إن كان له ما يتشرف به منهما . أو يثبت لنفسه فضيلة يكون

ـــــــــــــــ

١ـ جواهر البلاغة ، مصدر سابق ، ص ٣٦ .

بها أهلاً لأن يصدَّق ، كما قال تعالى حاكياً عن هود(عليه السلام)[1] :

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِيْنٌ﴾[2] .

فان ذلك يستدعي احترام المستمعين وإقبالهم عليه . وكذلك لو أثبت لنفسه فضيلة لا يمكن لأحد نكرانها ، أو نفي سيئة عنها ما نجا منها إلا أصحاب الفخر والفضل ، كأن يقول :

«أيها الناس ، اعلموا أني من لا يعرف الفرار ولا النكوص» . ونحو ذلك .

ولذلك نجد كثيراً من الخطباء القدامى كانوا يبدؤون خطابهم بقول :

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي . أنا فلان بن فلان ، فاعل كذا وكذا ، تارك كذا وكذا . . . وهكذا » .

ولنعطك على ذلك أمثلة حية . استمع إلى قول السيدة الزهراء(عليها السلام) في خطبتها الشهيرة التي ألقتها في مسجد الرسول في المدينة بحضرة الخليفة الأول تطالبه بحقها من ميراث أبيها ، حيث قالت (عليها السلام) في مستهل كلامها :

«أيها الناس اعلموا أني فاطمة ، وأبي محمد(صلى الله عليه وآله) ، أقول عوداً وبدواً ، ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً»[3] .

ومن ذلك أيضاً قول بعلها علي بن أبي طالب(عليه السلام) في مستهل خطبة يعظ بها الناس ، ويبلغهم فيها أحكام الله :

١ـ ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت ، ص ٣٠ .
٢ـ سورة الأعراف ، آية ٦٨ .
٣ـ الاحتجاج ، مصدر سابق ، ج١ ، ص١٣٤ .

«تالله لقد عُلِّمت تبليغ الرسالات ، وإتمام العدات ، وتمام الكلمات . وعندنا أهل البيت أبواب الحكمة ، وضياء الأمر»[1] .

فإنه مما لا شك فيه أن المخاطب بعد أن يعلم أن المتحدث إليه لا يقول غلطاً، أو يعلم أن المتكلم معه خبير في تبليغ الرسالات ، وعنده العلم بالأحكام ، سيتوجه إلى استماع ما يقوله غاية التوجه ، وبالتالي يكون مجال إقناعه بما يراد إقناعه به أكبر ، والوصول إليه أسهل .

ـ الطريقة الثانية :

وهي الطريقة المتبعة حالياً ، وهي أن يأتي شخص آخر يسمى بالمعرِّف ، أو عريف الحفل ، فيُطلع الحاضرين على مكانة وقدر المتكلم ، ويبين منزلته ، وعظم أمره ، ويعدد لهم فضائله ، ويشوقهم إلى ما سيقوله لهم .

فإن لم يكن للخطيب ما يُمدح به ، أو لم يرضَ بذلك ، يَمدح المعرِّف الموضوع الذي سيتكلم الخطيب فيه ، وذلك بأن يبين أهمية الموضوع ، ويطرح بعض التساؤلات حوله ، ما يثير فضول الجمهور للتعرف على الإجابات . وبكلمة أُخرى يمهِّد للخطيب أرضية الإلقاء المثمر . ولكن هذا الأسلوب يكاد يهجر لأن المعرِّف بات يهتم بعرض شيء من الخطاب أكثر من اهتمامه بتبيين منزلة الخطيب ، وأهمية الخطاب ، بل ربما لا يشير إلى الخطيب إلا بذكر اسمه أو لقبه .

والمعرِّف لا بُدَّ له من إجادة الخطابة أيضاً كي يتمكن من تقديم الخطيب إلى الناس بالشكل المطلوب الذي يترك فيهم التأثير ، ويهيئهم للاستماع إليه ،

١ـ نهج البلاغة ، من كلام له(عليه السلام) ، رقم ١٢٠ .

والإقبال عليه . ولا بُدَّ للمعرِّف من أمور :

١. أن يكون صوته جهورياً عالياً مسموعاً لجميع الحاضرين .

٢. أن يتكلم بهدوء ورصانة ووضوح ، وكأنه يلقي قصيدة من الشِعر .

٣. أن يهتم بمخارج الحروف وإتقان التلفظ بالكلمات بشكل سليم وواضح وقوي ، وخصوصاً حروف اللثغة ؛ الثاء ، والذال ، والظاء . ويُنصح المعرِّف هنا بالخضوع لدورة تدريب على تجويد القرآن .

٤. أن يستعمل العبارات الجزلة الفخمة حتى كأنه ينظم شعراً ، إذ إن التعريف أشبه شيء بالشعر الحديث ، فلا بُدَّ أن يشتمل على تشبيهات ، وكنايات ، واستعارات بشكل مناسب .

٥. أن يستخدم بعض أساليب البديع ، فيُطّعم كلامه بشيء من السجع العفوي المطلوب، أو بقليل من الجناس ، والطباق ، والاقتباس والتورية، وما شابه ذلك.

٦. أن لا يطيل الكلام عن الحد المقبول ، وإلا يكون قد أخذ دور من يقوم بتقديمه للجمهور .

وفي هذا المجال لا بُدَّ من تبيين بعض الأمور :

على المعرف أن يبدأ في الفقرة الأولى بالترحيب بالجمهور ، ثم تعريفهم على المناسبة التي عقد الحفل لأجلها ، ثم يستعرض فقرات الحفل المتوقعة ، ثم يقوم بتعريف القرآن الكريم كفاتحة للحفل ، إن كان ذلك مقرراً فيه . ولهذا

تكون الفقرة التعريفية الأولى أطول الفقرات .

وأما الفقرات اللاحقة فيرتبط طولها وقصرها بكثرة وقلة الكلمات التي ستلقى، فإذا كان هناك خطيب وحيد لا يجب على المعرف أن يختصر ، وأما إذا تعدد الخطباء فعليه أن يختصر ما أمكن، حتى إذا كان الحفل مهرجاناً خطابياً مثلاً يقتصر على شكر الخطيب الذي انتهى ، ويعرف القادم منهم بمجرد ذكر اسمه وصفته .

٧. أن يكون أول من يصعد المنبر مع بداية الحفل ، وآخر من ينزل عنه مع نهايته. وعليه سيكون المعرف على المنبر يودع الناس بكلمات لطيفة وهم يغادرون قاعة الحفل ، شاكراً حضورهم ، وكأنه صاحب البيت الذي استضافهم .

٨. لا بأس بأن يقتبس المعرِّف من غيره بعض العبارات اللطيفة ليدرجها في كلماته . ولا يستحسن أن يقتصر في تعريفه على إلقاء الأبيات الشعرية ، أو يلقي قصيدة فقط .

٩. على المعرِّف أن يحرص على التعرُّف على اسم الخطيب وصفاته ومنزلته قبل بدء الحفل كي لا يقع في أي خطأ في هذا المجال ، كما عليه أن يعرف الألقاب التي تستعمل لمثل الخطيب الذي يود تعريفه مثل : آية الله، صاحب السماحة ، صاحب الفضيلة ، صاحب الغبطة ، سمو الأمير ، جلالة الملك ، معالي الوزير ، فخامة الرئيس ، دولة رئيس الوزراء ، دولة رئيس مجلس النواب، الأستاذ، الأديب، الشاعر، المحقق،الدكتور، الباحث...إلخ.

ولعل أسوأ ما يفعله المعرِّف أن يقول : والآن نتركـكم مع أحـد العلمـاء ، أو : مع أحد الأخوة ، أو إحدى الأخوات ... وما شاكل ذلك دون ذكر اسمه أو صفته .

١٠. على المعرِّف ألا يورد في تعريفه النقاط الأساسية التي سيتعرض لها الخطيب، مثل ذكر الروايات والآيات ، أو المعلومات والأرقام التي تعتبر أساسية في موضوع الخطاب المنوي إلقاؤه .

نعم ، يمكنه أن يتساءل عنها ليترك الإجابة للخطيب .

١١. لا يستحسن للمعرِّف أن يورد في كلماته شيئاً من الشرح والتوضيح ، أو إبداء الرأي في أمر من الأمور ، أو التعليق على قول أو خبر ، أو الاستدلال والبرهنة على فكرة ما .

١٢. من المستحسن للمعرِّف أن يتفقد قبل بدء الحفل وسائل الصوت ، والتأكد من سلامتها ، ويتأكد من ثبات المنبر وجاهزيته ، ويؤمِّن ما قد يحتاجه الخطيب من الورق والقلم ، أو الماء والمناديل الورقية ... إلخ .

١٣. على المعرِّف أن ينسق مع القيِّمين على الحفل مسألة الترتيب بين الخطباء، فيقدِّم من حقه التقديم ، ويؤخِّر من حقه التأخير .

ومما يجدر التنبيه عليه أنه من غير المناسب مثلاً جعل مجلس العزاء أو تـلاوة المولد النبوي قبل كلمة الخطيب ، إلا في موارد خاصة جداً تتحدد في حينها .

١٤. على المعرِّف أن يفتتح الحفل قبل قراءة القرآن ، كي تكون التلاوة الجزء الأول من الحفل . فإن تأخير صعود المعرِّف إلى المنبر إلى ما بعد

تلاوة القرآن يعني أنها خارج البرنامج .

ـ النقطة الثانية : سلوك الخطيب في نظر المخاطب

إن قناعة المستمع بسلوك الخطيب لها مزيد التأثير في إمكان إقناعه وعدمه . فإنه مما لا شك فيه أن الخطيب إذا أراد أن يثبت أمراً ما ، ويقنع به الناس لا بُدَّ أن يكون مقتنعاً به أولاً ، وقبل الآخرين . فإذا كانوا يعلمون أن سلوكه على خلاف ما يقوله ، فسوف لن يكون لكلامه أي تأثير فيهم . إذ كيف يقنعهم بحسن قول الصدق ، والابتعاد عن الكذب مثلاً في حال أنهم يعلمون انه من أوائل الكذابين ؟ أم كيف يقنعهم بضرورة الاستبسال في الحرب ، وهو المعروف عندهم بأنه جبان ؟ وكيف يطلب منهم أن يزهدوا في الدنيا ، وهو مقبل عليها ؟ فان خطيباً كهذا لن يحصد من كثرة كلامه إلا التعب والنصب ، هذا إن لم يستهزئوا به ، أو يرشقوه ببعض ما تيسر لهم .

وأحسن مثال يضرب لتبيين تناسب سلوك الخطيب مع كلامه ، ومدى تأثيره عليهم خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق ، وما جاءت به من أثر عجيب أدى إلى إذعان الجميع لأمره ، وأمر خليفته بعد أن عجزت الدولة الأموية عن ضبط أمور العراق ، وكبت الفتن والمشاكل التي كانت ما إن تخب حتى تهب من جديد . فقد جاء في تاريخ ابن عساكر(١) ، وفي صبح الأعشى(٢) ما حاصله :

١ـ ابن عساكر ، تاريخ دمشق الكبير ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ ، ج١٢ ، ص١٢٧ .
٢ـ القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج١ ، ص١٢٨ .

«قدم الحجاج أميراً على العراق ، وقد دخل المسجد معمماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، يؤم المنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، وهم لا يعرفونه ، فقال الناس بعضهم لبعض:

«قبَّح الله بني أُمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق» .

حتى قال عمر بن ضاميء الرجمي :

« ألا أحصبه[1] لكم ؟»

فقالوا : «أمهل حتى ننظر » .

فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ، ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة ، أما والله ، إني لاحتمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت ، وحان قطافها وإني لصاحبها . وإني لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى . قد شمرت عن ساقيها فشمر» [2].

وأضاف الزمخشري كتتمة لما قاله الحجاج :

«إن أمير المؤمنين نكب كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عوداً، وأصلبها مكسراً ، فوجهني إليكم . ألا، فوالله ، لأعصبنَّكم عصب السلمة ، ولألحونَّكم لحو العود ، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل ، ولآخذنَّ الولي بالمولى ، حتى تستقيم قناتكم ، وحتى يلقى أحدكم أخاه فيقول : «انجُ سعدُ ، فقد

١ـ معنى أحصبه هو أرميه بالحجارة ولكنه هنا كناية عن القول القاسي .
٢ـ هذا مثل يضرب في الحث على الجد في الأمر ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ج٢، ص٩٣ .

قُتل سعيد ». ألا وإياي وهذه الشفعاء والزرافات ، فإني لا آخذ أحداً من الجالسين في زرافة إلا ضربت عنقه»[1] .

إن كلامه هذا ، مع ما كان قد اشتهر عنه من الظلم والقسوة ، وأنه من أقسى الناس قلباً ، حتى قيل : إنه لم يأخذ ثدي أمه ليرضعه حينما كان طفلاً إلا بعد أن لُطخ بدم شاة ، قد عمل فيهم عمله ، وأخافهم من بطشه وسطوته المعروفين .

ومما يدل على مدى تأثيره فيهم ما جاء في كتاب قصص العرب[2] بعد إيراد خطبته المتقدمة من انه قال :

«يا غلام ، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين».

فقرأ :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين . . . سلام عليكم . . .

فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج :

«أكفف يا غلام» .

ثم أقبل إلى الناس فقال :

«سلَّم عليكم أمير المؤمنين ، فلم تردوا عليه شيئاً ، هذا أدب ابن نهية[3] . أما

---

١ ـ الزمخشري ، جار الله ، الفايق في غريب الحديث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ط.١ ، ج٣ ، ص٤٢٤. والشفعاء هم الذين يتوسطون لديه ليعفو عن المذنبين ، والزرافات الجماعات والمواكب .

٢ـ مجموعة مؤلفين ، قصص العرب ، منشورات الشريف الرضي ، قم ، ١٣٦٤ هـ ش. ، ج٣، ص٣٧ .

٣ـ «ابن نهية» هو صاحب الشرطة الذي كان قبل الحجاج في الكوفة .

والله ، لأؤدبنكم غير هذا الأدب ، أو لتستقيمن . اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين».

فلما بلغ إلى قول : «سلام عليكم». لم يبق أحد في المسجد إلا قال :

«وعلى أمير المؤمنين السلام» .

وهذا يدل بشكل واضح على مدى تأثير كلامه عليهم ، وما ذلك إلا لما عرفوه عنه من صدق وعيده . ولذلك ترى أن خطبه الوعظية لم يكن لها ذلك الأثر على أحد ، بل كانت موضع اشمئزاز وتعجب ، استمع إلى ما ورد من مثال لعدم التناسب بين سلوك الحجاج وخطبه الوعظية :

خطب الحجاج يوماً فقال :

«أيها الناس قد أصبحتم في أجل منقوص وعمل محفوظ . . . إلى أن قال :

هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك . هذه الشمس التي طلعت على التابعة ، والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم . أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله ، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون . جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات الله لم يخرّوا عليها صماً وعمياناً .

فكان الحسن البصري يقول :

ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنابر ، فيتكلم كلام الأنبياء ،

وينزل، فيفتك فتك الجبارين . يوافق الله في قوله ، ويخالفه في عمله ؟»[1] .

وبما أن الحسن البصري وغيره من أهل العراق وساكنيه ممن حضر خطبته لم يكونوا ليجرؤوا على معارضة الحجاج ، والرد عليه ، لم يجيبوه بما يستحقه من الجواب ، ولم يسخروا منه . أما لو كان المتكلم غيره لكان لقي جزاءه موفوراً كما حصل للضحاك بن قيس حين خطب في أهل الكوفة أنفسهم فقال :

«بلغني أن رجالاً منكم ضلالاً يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين. أما والذي ليس له ند ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما بلغني عنكم لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السورة ، ولا كليل الشفرة . أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم ، فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب ماء الثعلبية ، ومن شاطئ الفرات ، أعاقب من شئت وأعفو عمن شئت . ولقد ذعرت المخدَّرات في خدورهن ، وان كانت المرأة ليبكي ابنها ، فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي . فاتقوا الله ، يا أهل العراق .

أنا الضحاك بن قيس . أنا ابن أنيس . أنا قاتل عمرو بن عميس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد الأزدي ، فقال :

«صدق الأمير ، وأحسن القول . وما أعرفنا ، والله ، بما ذكرت . ولقد لقيناك بغربي تدمر ، فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً .

ثم جلس وهو يقول :

أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم ؟ وأيم الله ، لأذكرنَّه أبغض مواطنه

١ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ص ٣٠١.

إليه»[1] .

ويعني بأبغض مواطنه انه حينما أغار الضحاك على الحيرة أرسل له علي(عليه السلام) جنوداً كثيرين منهم عبد الرحمن بن عبيد هذا ، فهرب الضحاك ، فأدركوه ، وقتلوا أصحابه ، ثم أوغل في الفرار ، فلم يلحقوه .

فسكت الضحاك قليلاً ، وكأنه أخزى واستحى ، ثم قال :

كان ذلك اليوم بآخره[2] . بكلام ثقيل ثم نزل»[3] .

ـ الجهة الخاصة للخطيب

والكلام فيها يقع في البحث عما يجب على الخطيب فعله حال الإلقاء أو قبله، والكلام فيها من جهتين ، أو فلنقل في موضعين :

ـ الموضع الأول: مقدمات إلقاء الخطاب

وهي ثلاث مقدمات رئيسية :

ـالأولى : ضرورة الاطّلاع على أُصول فن الخطابة ، وحفظ قواعده ، والسعي لتطبيقها أثناء إلقاء الخطاب مهما أمكن ، فإن ذلك أمر أساسي لمن يريد أن يصبح خطيباً ناجحاً . وأما أُولئك الذين يخطبون في الناس دون أن يسيروا

١ـ الثقفي ، إبراهيم بن محمد ، الغارات ، تحقيق جلال الدين الحسيني ، مطابع بهمن ، قم ، ج ٢ ، ص ٤٣٨.
٢ـ آخره (بثلاث فتحات) يعني آخر الشيء ونهايته ، يريد كان ذلك اليوم نهاية أمري ، أقرب الموارد ، ج١ ، ص٦ .
٣ـ الغارات ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

على هدى من أمرهم ، ودون أن يعرفوا ما يجب فعله ، وما يجب تركه ، فأولئك سيبقون خطباء فاشلين مدى عمرهم ، وان وصلوا ، فسوف يصلون متأخرين بعد أن يكونوا قد أفنوا كثيراً من عمرهم في التعلم من تجاربهم الفاشلة . فدراسة قواعد الخطابة توفر العمر على الخطيب ، وتقدم له خلاصة تجارب البشر منذ العهد اليوناني إلى اليوم . فهل من العقل في شيء الإعراض عن ذلك؟.

ـالثانية : كثرة المطالعة والتمعن في كل ما يُقرأ ، وحفظ أكبر قدر ممكن من القرآن ، ونهج البلاغة ، مع الاطلاع التام على معنى ما يحفظ ، وعلى المناسبة التي نزلت فيها الآية ، أو ألقيت فيها الخطبة ، وعلى ما ورد فيها من محطات بيانية، أو مفردات لغوية فصيحة ، أو تراكيب بليغة ... إلى ما هنالك من أمور تساعد من يطّلع عليها في طلاقة اللسان ، وحسن التعبير عن المقصود ، ويعطيه مخزوناً من الألفاظ والمعاني الجميلة التي لا غنى في هذا المضمار عنها .

وقد أكد ابن الأثير على ذلك في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» حيث قال :

«وأما النوع الرابع ، وهو الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فإن في ذلك فوائد جمَّة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج عقولهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك . فإن هذه الأشياء تشحذ القريحة ، وتقوي الفطنة . . . فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها

قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه»[1] .

ثم إن من يريد أن يكون خطيباً ناجحاً فعليه أن يطّلع على مقدار جليل من العلوم خصوصاً السيرة ، والتاريخ ، والأخلاق ، والتفسير ، وأُصول الفقه ، والسياسة ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والمنطق بالإضافة إلى جمع المعلومات المتفرقة الذي يحصل بالإكثار من مطالعة الدوريات التي تحتوي على مباحث دقيقة وإحصائيات ذات أرقام موثوق بها ، وأخبار العالم الإسلامي ، وحتى غير الإسلامي .

إذن ، الخطيب يحتاج إلى كثرة الاطلاع من جهة ، وإلى حفظ أهم ما يقرأه من جهة أُخرى . وقد نقل الجاحظ في البيان والتبيين عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قال :

«تكثَّر من العلوم لتعرف وتقلل منها لتحفظ »[2] .

وكلما ازداد المخزون الثقافي عند المرء ازدادت قدرته على اكتساب ثقة الناس الذين يستمعون لكلماته .

ـ الثالثة : المران والممارسة . فانه ما من علم إلا ويحتاج صاحبه للممارسة والتمرين وإلا فسوف يأتي عليه يوم يرى نفسه فيه ، وقد نضب ما كان له من ماء علم ، وجف ما كان لديه من معين فن . وربما أعطت الممارسة ما لا يمكن أن تعطيه المطالعة أو الدراسة ، إذ قد يتوصل المتمرس إلى قواعد

١ـ الجزري ، ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج١ ، الفصل الثاني ، النوع الرابع .
٢ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ص ١٧٨.

جديدة ، ونظريات حديثة ، ويحصل على ملكات خطابية لا يمكن تحصيلها إلا بكثرة التجارب في هذا الحقل .

ولا أدل على ذلك مما نشاهده ونلمسه من أن الإنسان الذي يقف على المنبر لأول مرة يُرى فيه ارتباك واضطراب ظاهران ، ولا يقدر على أداء ما لديه من معلومات بشكل مطلوب ، ولو كان عالماً متبحراً . وأما من تمرس على صعود المنابر ، وإلقاء الخطب ، وتعوَّد على مقابلة الناس ، والتحدث إلى الجماهير والإقبال عليهم بوجهه ، فنراه يهدر كالسيل الجارف ، بل لا يكاد يتم عبارة جيدة إلا ويبدأ بأُخرى أجود ، وهكذا إلى أن يشغف الجمهور بقوله ، ويأنس بكلامه، ويتمنى المستمعون لو أن خطبته تلك ليس لها نهاية .

وقد أخبرني أحد معارفي العلماء أنه بينما كان يحضر حفلاً خطابياً قد دعي إليه كبار الخطباء في إيران جاءه أحد الأشخاص سائلاً إياه عن تفسير إحدى الآيات . فشرح له معناها بما حضره ، وما هي إلا دقائق حتى ارتقى ذلك الشخص (السائل) المنبر ، وبدأ خطاباً حول معنى تلك الآية ، وما يرتبط بها من أمور ، وهو يتدفق كالشلال ، بأسلوب رزين ، وحركات محكمة ، ونظرات موزعة . والناس مشدودون إليه كأن على رؤوسهم الطير ، حتى أنني - يقول صاحبي - قد أعجبت به ، وكدت أشكك في نفسي بأن الذي فسّر الآية لم يكن إيايّ .

أما أمثلة تأثير الممارسة على متعلم الخطابة فكثيرة نكتفي بمثالين :

ـ المثال الأول ـ

«ديموستين أحد أخطب اليونانيين القدامى . وقد قيل إنه حينما حاول التكلم

على المنبر لأول مرة أثار في سامعيه غريزة الضحك ، وأخـذوا يـسخرون منـه ، إلا إنه صمم على أن يكون خطيباً ناجحاً ، فأخذ يتمـرن علـى الخطابـة كمـا أوضـحنا ذلك في باب نظرة في تاريخ الخطابة ، إلى أن وصل إلى مرتبة من التمكن أمكـن معها القول : إنه خطيب اليونانيين الأوحد .

ـ المثال الثاني ـ

ما يُحكى عن فضيلة الشيخ أحمد الـوائلي (قدس سره)، وهـو مـن مـشاهير الخطبـاء المسلمين المعاصرين في ميـدان الخطـب الدينيـة ، بـل بعـض أنـواع المحاضـرات العلمية أيضاً ، فقد نُقل عنه أنه قال عن نفـسه أنـه حينمـا حـاول الخطابـة لأول مـرة ضـحك منـه زمـلاؤه الـذين كـانوا يـشاركونه درس الخطابـة . ولكننـا نـرى أنـه بالممارسة والمثابرة وصل إلى مرتبة يغبط عليها ، ومُدح من كبار العلماء .

وأما بالنسبة لما قيل من لزوم وجود ما سُمي بالاستعداد الفطري للخطابـة عنـد من يريد أن يصبح خطيباً فليس لذلك أسـاس مـن الـصحة . إذ يمكـن لأي إنـسان وطد نفسه على أن يصبح خطيباً ، وعزم على تحمل المشاق من أجل خطب ودها، وسعى لذلك دون يأس أو ملل ، محاولاً جهـده تعلُّمَ فنونهـا ، وتطبيـق قواعـدها ، فانه سينالها لا محالة ، ولو لم يكن عنده ذلك الاستعداد المزعوم .

ـ الموضع الثاني : ما يجب فعله حال إلقاء الخطاب

ويقع في مسائل سبعة :

ولكن قبل الكلام عنها لا بُدَّ من ذكر ثلاث توصيات نقـدمها للخطيـب كـي

ينتفع بها في هذا المجال ، وهي :

ـ أولاً : من المستحسن للخطيب ألا يكون جائعاً فارغ المعدة ، ولا شبعاناً متخماً. فإن كلا منهما له أثر سلبي عليه . فالشبع يمنعه من أن يتمتع بصوتٍ عالٍ، ونَفَس طويل ، بل قد تتلبد أفكاره ، ويأخذه النعاس ، فيتثاءب . وحينئذ يفقد الخطاب رونقه ، وتأثيره على الناس ، كما أن الجوع يمنعه من التمادي في الكلام ، ومن تناسق الصوت ، فإن البدن يعطي جهداً إضافياً حال الخطاب ، خصوصاً إذا كان هناك حاجة للصوت العالي . فلو كانت المعدة خالية لا يمكن للجسم أن يتحمل جهداً كبيراً كما هو ظاهر وواضح .

ـ ثانياً : يحسن به أيضاً أن يكون مرتدياً من اللباس ما يناسب جو الحفل من حيث البرودة والحرارة ، وإلا أخذته رعشة القر ، فمنعته عن حرية التكلم ، أو أصابه الحرور ، فتصبَّب عرقاً ، ما يجعل المستمعين يعدون ذلك خجلاً منه وارتباكاً ، وهما عيبان في الخطيب .

ـ ثالثاً : يحسن به أيضاً قبل حال التكلم أن يدخل إلى بيت الخلاء ، ويقضي حاجته كي لا تصيبه المدافعة حين التكلم ، فيضطر أن يقصِّر خطبته ، فيخل بالمطلوب ، أو يضطر إلى أفعال أُخرى لا تليق به . ومما لا شك فيه أن ذلك له تأثير قوي على التفكير ، حيث إن المدافعة تحد من القدرة عليه .

ـ المسألة الأولى : الاستحضار التام

يجب أن يكون الخطيب مستحضراً كل النقاط التي يريد أن يتعرض لها فيما لو كان خطابه ارتجالياً ، وذلك بأن يكون قد رتَّب أفكاره التي يريد أن يطرحها

وهيأها مسبقاً . فلا بُدَّ أن يقدِّم ما حقه التقديم ، ويؤخّر ما حقه التأخير ، ويحضّر لذلك بعض الألفاظ المعينة يستعين بها حال الإلقاء تكون كمخزون لغوي عنده . ولا بُدَّ أن يكون مستذكراً للكلام الذي يريد إلقاءه كي لا يأخذه حصر الكلام ، فيصيبه العي كما حصل مع كثيرين أمثال مصعب بن حيان حين دعي لإلقاء خطبة في مناسبة عقد نكاح ، ولما وقف للكلام أخذه العي ، وارتبك ، وتشتت أفكاره ، فنسي ما كان يريد قوله ، فإذا به يقول :

«لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله» .

فغضبت أم العروس أشد الغضب ، وقالت له :

«عجل الله موتك ألهذا دعوناك؟ » .

فضحك الناس جميعاً[1] .

ولو لم يكن الخطيب مستعداً ومستحضراً أفكاره لواجه أحد أمرين :

ـ الأول : أن يقول ما لا يريد قوله ، وقد يكون ثمن ذلك غالياً ، بأن يتلفظ بألفاظ لا يريدها قد تضع من شأنه، أو يتلفظ بما يكون عليه مستمسكاً لخصومه، فيفسح لهم بالمجال للحطّ من قدره وسمعته ، أو يتكلم بما يثير السخرية والاشمئزاز ، كما حصل لأحد الخلفاء العباسيين حينما صعد المنبر لإلقاء خطبة الجمعة ، وقد كان على نزاع مع زوجته أثر خلافات وقعت بينهما ، فخرج وهو يفكر بطلاقها ، وحينما استوى على المنبر قال :

«أما بعد . . . فانعقد لسانه ، ونسي ما كان يريد أن يقوله ، فما نطق إلا بقول :

١ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٣٥٢ .

زوجتي فلانة طالق » .

فضحك الناس منه ضحكاً شديداً .

ـ الثاني : أن يترك المنبر دون أن يتكلم بشيء ، وسط جو من اشمئزاز الجمهور وسخريته . اللهم ، إلا إذا كان حاد الذهن متوقده ، فإنه قد ينجو بنفسه، وذلك بأن يورد كلاماً آخر غير ما كان يريد قوله أولاً .

وقد اتفق ذلك لكثيرين من الخطباء المشهود لهم[١] ، ومنهم ثابت قطنة[٢] أحد أمراء سجستان ، حيث صعد المنبر يوم الجمعة ، فنسي ما كان يريد قوله ، وأرتج عليه ، وظهر ذلك للناس ، فتدارك قائلاً :

«سيجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد عي بياناً ، وأنتم إلى أمير فعّال أحوج منكم إلى أمير قوال : وأنشد :

فإلا أكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا حد الوغى لخطيب»[٣]

فبلغت كلماته خالد بن صفوان ، وقيل : الأحنف بن قيس ، فقال :

«والله ما علا المنبر أخطب منه في كلماته هذه . ولو أن كلاماً استخفني ، فأخرجني من بلادي إلى قائله استحساناً له ، لأخرجتني»[٤] .

١ـ راجع باب نوادر الخطباء في أواخر الكتاب .
٢ـ في بعض المصادر : "ثابت بن قطبة" .
٣ـ الشريف المرتضى ، أمالي السيد المرتضى ، مكتبة النجفي المرعشي ، قم ، ١٤٠٣ هـ ، ج٤ ، ص٢١ .
٤ـ البغدادي ، خزانة الأدب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ط. ١ ، ج ٩ ، ص ٥٧٩ .

ـ المسألة الثانية : مظهر الخطيب

ينبغي الاهتمام بالمظهر الخارجي للخطيب بحيث يظهر أمامهم بما يدعو إلى تقديره ، واحترامه ، والوثوق بقوله ، وبما يتناسب مع ما يريد أن يقوله . وذلك يحصل بأمرين :

ـ الأمر الأول : لباسه وهندامه

من الواجب على الخطيب أن يطلع على وضع الجمهور ، ويعرف شيئاً عما يحبونه ، وما يكرهونه ، وما يجب على مثله أن يظهر به بينهم . فقد يقتضي المقام أن يظهر الخطيب بأفخر لباس وأحسن بزة مما يليق به ، وقد يقتضي أن يظهر بمظهر متواضع كزاهد أو ناسك . وذلك يختلف باختلاف الدعوة التي يدعو إليها، وباختلاف طباع الحاضرين . فكثير من الواعظين يتأثر الناسُ بهم بمجرد النظر إليهم قبل أن يتفوهوا بكلمة .

ألا تعتقد أن خطيباً على الهيئة التي يصفها نوف البكالي ، حيث يقول في مستهل خطبة من خطب أمير المؤمنين(عليه السلام) قبل أن يرويها :

«خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، وكأن جبينه ثفنة بعير»[1] .

ألا تعتقد أن خطيباً على هذه الهيئة سيؤثر على سامعيه في وعظه وحثه لهم على الزهد والتقوى والتقشف . وكم من خطيب في مجالس ذكرى عاشوراء

١ـ نهج البلاغة ، خطبة رقم ١٨٢ .

يدفع الناس بمجرد مشاهدة هيئته إلى البكاء ، وقبل أن ينبس ببنت شفة .

ولا بُدَّ أيضاً للخطيب أن يظهر بما يليق به أمام الجمهور كي لا يثير تهكمهم واشمئزازهم . فمثلاً : لو كانت عمامة الخطيب مائلة ، أو كانت عباءته مقلوبة ، أو كان ثوبه ممزقاً ، أو قميصه وسخاً ، وما شابه ذلك ، فسوف لن يكون الأقدر على الإقناع ، ولا الأقوى في الحمل على الانقياد والاستماع .

ويمكن تلخيص الفكرة بأن أي خلل في مظهر الخطيب من شأنه أن يلفت انتباه الجمهور بنحو سلبي يعد آفة ، وعلى الخطيب أن يتجنبه .

ـ الأمر الثاني : سحنة وجه الخطيب

قال الفارابي :

«ومنها ـ أي من الأمور التي لا بُدَّ منها للخطيب ـ سحنة وجه الإنسان أو شكله وشكل أعضائه ، ومنظره ، أو فعله عندما يتكلم ، مثل أن ينذر بورود أمر مخوف قد قرب ، فيرى وجهه وجه خائف أو هارب»[١] .

وقد قال أبو علي سينا في هذا المضمار :

«وأما الحال المحسوسة غير القول، كمثل من يخبر ببشارة ، وسحنة وجهه سحنة مسرور مبتهج ، أو يخبر بإطلال آفة ، وسحنة وجهه سحنة مذعور خائف ، أو ينطق عن تقرير بالعذاب أو الثواب»[٢] .

فملامح وجه الخطيب وتقاطيع جبينه ونظرات عينيه وحركات يديه أمور

١ـ الخطابة ، الفارابي ، مصدر سابق ، ص١٠ .

٢ـ الشفاء ، قسم الخطابة ، مصدر سابق ، ص١٠ .

معبرة ومؤثرة في السامعين فيما إذا استطاع أن يحسن التصرف بها حسبما يريده البيان . فعليه أن يبدو حزيناً في موضع الحزن ، وغليظاً فظاً في موضع الشدة . بل يجب عليه في بعض الأحيان أن يبكي أو يتباكى فيما لو دعت الحاجة إلى ذلك . ويبدو مسروراً مبتشاً في موضع السرور . ويبدو بمظهر الواثق من قوله المؤمن بدعوته في موضع يتطلب ذلك .

وقد وصف بعض معاصري الحسن البصري أسلوبه في الوعظ فقال :

«كان إذا أقبل ، فكأنما أقبل من دفن حميمه . وكان إذا جلس ، فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا ذكرت النار عنده ، فكأنها لم تخلق إلا له»[١] .

ـ المسألة الثالثة : تطويع العبارات

إذا قيل لك : امدح لنا الوردة الجميلة . تسرع إلى ذهنك العبارات بأجمل الأوصاف ، وتتزاحم فيه الكلمات بأعذبها ، ولكن لو قيل لك : ذم لنا الوردة . فستجد نفسك عاجزاً عن قول جملة أو جملتين في ذلك .من هنا كان لا بُدَّ للخطيب أن يتدرب على تطويع العبارات ، والاستفادة من الأمور بحسب الحاجة ، وتسخير كل الأدلة لصالحه ، حتى لو كان ظاهر الدليل غير موافق لمطلوبه . وذلك بأن يتمكن من أمرين :

ـ الأمر الأول : مدح القبيح

قد تدعو الحاجة لإظهار وجه الحسن في من اشتُهر بالقبح . فمثلاً قد تدعو الحاجة إلى مدح فاسق ، فينظر الخطيب إلى النواحي الأُخرى غير الفسق ، ويختار

١ـ البيان والتبيين ، ج٣ ، مصدر سابق ، ص ١٠٢ .

منها ما يمكن مدحه به . فيقول مثلاً :

«إنه سمح سهل ، غير متزمت ، ولا متعنت ، منفتح على الآخرين ، لطيف المعاشرة ، خفيف الروح يخدم الناس . . . الخ » .

وقد يمدح الأبله الأحمق بأنه بسيط ، صافي النفس ، بريء براءة الأطفال ، لا تشوبه شائبة الغدر والمكر ، ولا يهتم للأمور مهما عظمت وتعقدت ، وأنه لا يزال على فطرته التي فطره الله عليها ، لم تغيرها الخطايا والذنوب . . .

وقد يمدح الهمّاز النمّام الذي يتتبع عورات الناس ، فلا يكاد يرى عيباً إلا وينشره في المجتمع ، فيخبر به القاصي والداني ، بأنه : صادق وصريح ، وأنه يقول الحق ولو على نفسه ، وأنه لا يمكنه السكوت عن قبيح الفعال ، ولا يستطيع أن يغض طرفه حينما يرى شراً لما فيه من علو الهمة وكبر النفس ، ولأنه ليس بشيطان أخرس . . . إلى ما هنالك .

ـ الأمر الثاني : ذم الحسن

قد يقتضي الأمر إظهار بعض مساوئ أمر معلوم الحسن . فقد يذم الإنسان المؤمن المحافظ على دينه ، بأنه جاف ، متزمت ، رجعي لا يمكن الكلام معه ، وليس عنده للحل الوسط مجال ، ولا يقتنع بشيء ولا يقبل نصيحة أحد . . . الخ .

وقد يذم الكريم بأنه مسرف جاهل بحق المال وقيمته ، ويعطي من يستحق ومن لا يستحق ، وأن الناس يستفيدون من طيب قلبه ، ويأخذون أمواله بحجة أنه كريم ، وهو لا يعرف أنهم يسخرون منه ، وبأنه سوف يأتيه يوم يلتفت فيه إلى نفسه، ويدرك خطأه ، وذلك حينما يجد نفسه محتاجاً لما في أيدي الناس ، حيث

لن يجد من يساعده بدرهم .

وقد يذم الحليم الذي يصفح عمن آذاه ، أو تصابى معه ، أو تكلم معه بما لا يليق به ، بأنه : جبان لا يجرؤ على دفع الاعتداء عن نفسه حتى تطاول عليه الكبار والصغار . وأن فيه ذلة ، وأنه متعود على استماع السباب والشتائم ، فلم تعد تؤثر فيه شيئاً . . . إلى ما هنالك من أمثلة لمدح القبيح وذم الحسن مما لا يخفى على القارئ الكريم . فان التدرب على هذه الأمور تطوّع الاستعمالات والعبارات بين يدي الخطيب ، وتجعل ذهنه متوقداً مستحضراً لكل سؤال جواباً مهيئاً لكل شخص ما يناسبه من الكلام .

ويمكن اختصار الموقف بما يلي :

يمدح من يراد مدحه بما فيه من خصال حميدة مع تجاهل كل صفاته السيئة، ويذم من يراد ذمه بعرض مساوئه دون الالتفات إلى شيء من محامده وحسناته .

واعلم أن ما قدمناه لك ليس دعوة لاعتماد أسلوب الكذب في الخطابة أبداً ، وليس حثاً على التعرض للآخرين بالنقد والتجريح كما قد يسبق إلى أذهان البعض ممن تخفى عليهم النكات العلمية ، وإنما هو توضيح لفكرة أدبية ، وبيان لقاعدة خطابية ، لو أتقنها الخطيب لأخذت بيده لإظهار الحق ، والدفاع عنه ، وكشف زيغ المبطلين ، وتفنيد كلام من لا يستعين على مراده إلا بالكذب والنفاق، فيسلط الضوء على نقاط ضعفه ومواضع زلاته .

واعلم أيضاً انه ليس فيما ذكرنا شيء من الكذب بل هو صدق ناصع . غاية ما في الأمر أنه تصوير قبيح للصورة الحسنة ، أو تصوير حسن للصورة القبيحة ،

وذلك يحصل بالسكوت عن المحاسن ، وذكر ما هو موجود من المساوئ ، كما أسلفنا ، وهذا أمر شائع بين الفصحاء ممن يعرفون مواضع الكلم ، ولم يُنكر من الشارع المقدس ، ولنعطك على ذلك شاهداً حياً :

ورد في البيان والتبيين أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر[1] ، وهو حاضر ، فقال عمرو : «انه مانع لحوزته ، مطاع في أُذينة » .

فقال الزبرقان :

«يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني ، يا رسول الله ، في شرفي ، فقصَّر بي » .

فقال عمرو بن الأهتم حينئذ :

«وهو والله زمْر المروءة[2] ، ضيق الصدر ، لئيم الخال ، حديث الغنى » .

فنظر النبي(صلى الله عليه وآله) في عينيه (متعجباً)، فقال :

«يا رسول الله ، رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت ، فقلت أقبح ما علمت. وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » .

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «إن من البيان لسحراً »[3] .

وحتى تطمئن نفسك إلى ما قلناه لك ، ولا يبقى في نفسك منه شيء ،

---

١ ـ الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس التميمي السعدي ، وقيل : اسمه الحصين ، وهو صحابي ، توفي سنة ٤٥ هجري .

٢ـ زمر المروءة : أي قليلها .

٣ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ص ٥٦ .

سنضرب لك مثالاً حياً على مدح القبيح ، وآخر على ذم الحسن .

ـ الأول ـ

ورد عن الحجاج أنه حينما مرض ، وفرح أهل العراق بذلك ، وأرجفوا بموته، وبلغه ذلك ، تحامل حتى صعد المنبر ، فقال :

«إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نزغ الشيطان بينهم فقالوا : «مات الحجاج » . ومات الحجاج فمه ؟ وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما سرني ألا أموت ، وأن لي الدنيا وما فيها . وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه إبليس ، قال :﴿**قَالَ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ**﴾»[1] .

ـ الثاني ـ

روى ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء أنه اجتمع جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، وهو يومئذ خليفة . وأُتي بأسرى من الروم . وكان في حرسه رجل من بني عبس ، قد علم أن سليمان سيأمر أصحابه بضرب أعناقهم . فأتى الفرزدق ، فقال :

«إن أمير المؤمنين جرى بأن يضرب هؤلاء الأسرى » .

وحثه على أن يكون هو الضارب لهم . وأتاه بسيف كليل كهام[2] .

١ـ سورة الأعراف ، آية ١٤ و١٥ . الصفدي ، خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ج١١ ، ص٢٤١ .

٢ـ السيف الكهام : هو الضعيف الذي لا يقطع .

فقال الفرزدق : «ممن أنت ؟» .

قال : «من بني ضبة أخوالك » .

وأمره سليمان بضرب عنق بعضهم . فتناول السيف من العبسي ، ثم هزه ، فضرب به عنقه فما حصَّ[1] شعرة ، ولم يؤثر به أثراً . فضحك سليمان والناس ، وقال :

«هذه ضربة سيقول فيها هذا ـ يعني جريراً ـ وتقول فيها العرب » .

فقال الفرزدق (متخلصاً من سيئته مصوراً لها بصورة حسنة) :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم   أبا عن كليب أو أباً مثل دارم
ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم   إذا أثقل الأعناق حمل المغارم[2].

فانظر كيف بدل السيئة بالحسنة ، وعبَّر عن عجزه عن قتل الرومي بأنه قد تعود على فك الأسرى ، ولم يتعود على قتلهم . وهذه مفخرة ما بعدها مفخرة ، وتعريض بالخليفة ، وتفاخر عليه .

وقد نسب أبو حيان التوحيدي في كتابه البصائر والذخائر إلى سقراط تعريفاً للخطابة ورد فيه هذا القول :

«قيل لسقراطيس الفيلسوف ـ وكان من خطبائهم ـ ما صناعة الخطيب ؟ قال : أن يعظم شأن الأشياء الحقيرة ، ويصغر شأن الأشياء العظيمة »[3] .

١ـ حص : يعني قطع ، وحلق ، يُقال : حص الشعرة ، يعني قطعها .
٢ـ الجمحي ، ابن سلام ، طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٩٣ .
٣ـ التوحيدي ، أبو حيان ، البصائر والذخائر ، تحقيق د. وداد القاضي ، ج١ ،

وهذا تعبير آخر عن مدح القبيح وذم الحسن .

ـ المسألة الرابعة : الإشارات

لا بُدَّ للخطيب أن يقف على مرتفع يطل به على الجمهور كي يروا وجهه ويتأثروا بكلماته وإشاراته . ولقد جرت العادة قديماً وحديثاً بأن ينصب للخطيب منبر من خشب ، ولو لم يكن هناك منبر ، وكانت الخطابة في الفلاة يُعمل له منبر بسيط من الحجارة كما مر في وصف نوف البكالي لعلي(عليه السلام) ، أو من رحل الدواب كما حصل لرسول الله(صلى الله عليه وآله) ، في خطبة الوداع حين نصَّ على خلافة علي(عليه السلام) ، أو أن يقف الخطيب على مرتفع عال ، أو يصعد إلى هضبة كما حصل مع الرسول ، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، حينما صعد الصفا وقال : «يا صباحاه » .

فاجتمعت إليه قريش . فأخبرهم بنزول آية : ﴿**وأَنْذِرْ عَشيرَتَك الأقْرَبيْن**﴾[1] .

ويحسن في الخطيب أن يقف معتمداً على إحدى رجليه ، فإذا تعبت اعتمد على الأُخرى . فان ذلك يعينه على تحمل طول الوقوف إلى إتمام خطبته ، وإن طالت .

وأما الإشارات فهي أمر مهم للخطيب ، ولا يمكن الاستغناء عنها في إثارة مشاعر مستمعيه . قال الجاحظ :

«الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما

١ـ الطبرسي ، الفضل بن الحسن ، مجمع البيان ، دار الأعلمي ، بيروت ، ط. ١ ، ج٧ ، ص٣٥٧ . والآية من سورة الشعراء ورقمها ٢١٤ .

أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وتغني عن الخط »[1] .

ويشترط في الإشارة شروط :

ـ الشرط الأول :

ألا تكون مبتذلة متصنعة يشعر المخاطبون أنها مقصودة ، وأن الخطيب يتعمدها، فان ذلك يذهب بتأثيرها ، ويفقدها رونقها ، فلا بُدَّ أن تبدو عفوية ، قد صدرت منه عن غير قصد ، وأنه لم يتصنع فيها ، ولم يتبذل .

ـ الشرط الثاني :

ألا تكون على نسق واحد بحيث يكون تكررها واضحاً للناظرين ، وذلك كما لو ظل يحرك يده بحركة واحدة ، وعلى نسق واحد طيلة الخطبة . إن ذلك يجعل الخطيب في موضع انتقاد الجمهور ، ولا يعطي النتائج المطلوبة في المساعدة على الإقناع . فلا بُدَّ أن تكون الحركات متنوعة بتنوع أسلوب الكلام من الإخبار والإنشاء ، ومن التعجب والاستفهام وما شابه ذلك . ولا بُدَّ أن لا تكون كثيرة كفعل الممثلين ، وإلا لم تكن «نعم العون» .

ـ الشرط الثالث :

يجب على الخطيب أن لا يتنقل على المنبر ، ولا يعتمد الإشارات المضحكة، ولا الحركات الخفية كي لا يتحول إلى ممثل أو إلى مهرج . فعليه مثلاً أن لا يهتز ، ولا يستدبر ، ولا يلتفت بكل بدنه من جهة إلى أُخرى ، ولا يحرك رجله ،

١ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٦٩ .

ولا يهز برقبته ، ولا يغمز بعينيه ، ولا يخرج لسانه ، ولا يقلد الآخرين بأفعالهم وأقوالهم ، فتكرار كل هذه الأمور يفسد الجو العام للخطبة .

وهناك بعض الحركات تعد من آفات الخطيب ، وهي أن يكثر من السعال أثناء الإلقاء ، أو من الالتفات يمنة ويسرة ، أو بأن يقصر نفسه عن إتمام الجملة التي بدأها ، فيستعين بنفَس ثانٍ لإتمامها ، وأن يفتل أصابعه ، أو أن ينشغل بالعبث بلحيته ، أو يكثر من المسح عليها ، أو على شاربيه ، فإن كل ذلك من العيب الذي لا بُدَّ للخطيب أن يتخلص منه ، فيعوّد نفسه على النفس الطويل ، ويسعى جهده للتخلص من السعال في الخطابة ، ويقلع عن العادات الأُخرى المشار إليها .

وقد جمع أحدهم هذه الحركات ببيت من الشعر فقال :

مليء ببهر[1] والتفات وسعلة ومسحة عثنون[2] وفتل الأصابع[3]

- المسألة الخامسة

هناك أمور يقتضيها الإلقاء تختلف باختلاف أنواع الخطب ، وتتلخص في ستة أمور :

- الأمر الأول : كيفية الوقوف على المنبر

لا بُدَّ للخطيب الذي يكون في موضع الحماس ويريد أن يدب الشجاعة في قلوب سامعيه أن يقف وقفة متأهب مستعد ، وكأنه سينزل إلى ساحة الحرب بعد

١ـ البهر : يعني انقطاع النفس والإعياء .
٢ـ العثنون : هو اللحية وقيل ما ينبت على الذقن خاصة .
٣ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ص ٢٢ .

لحظات ، وان تكون أعصابه مشدودة والتفاتاته سريعة وخاطفة ، وحركات يديه متوترة ، ونظراته إلى المستمعين محرقة ، تخرج من عين تتأجج فيها النار حماساً وقوة . فان كل ذلك مهم في الخطب العسكرية ، وهو ادعى لحملهم على الاستبسال ، ولدب الشجاعة والجرأة في قلوبهم .

ولا بُدَّ لمن كان في مقام الوعظ والإرشاد ، وأمر الناس بالتقوى ، وترك المعاصي أن يقف بارتخاء نوعاً ما ، ويحرك يديه بحركات خفيفة بطيئة في موضع الخشوع ، وبحركات الحذر في موضع إثارة الخوف ، فيفتح فاه قليلاً بما يعبر عن ذلك فيما لو تعرض لذكر أمر مخيف كما لو تكلم عن جهنم أو عذاب القبر أو شدة الألم ، وما شابه ذلك . وهكذا في سائر أنواع الخطب يراعي ما يناسبها .

ـ الأمر الثاني : طريقة النطق بالكلمات

تارة يقتضي أمر الخطابة أن تخرج الكلمات من الفم مشدودة متراصة ، وكأن هناك من ينتزعها من الفم بقوة ، فيصدر للحرف صوت يتناسب معه شدة وضعفاً . وتارة يقتضي أن تخرج هادئة ناعمة تكاد تشبه النجوى . فإن ذلك أبلغ في إيصالها الخشوع إلى قلوب السامعين . وتارة تقتضي أن تخرج عادية لا شدة فيها ولا ضعف كما في الخطب العلمية . كل ذلك يرجع إلى معاني الكلمات وما يتناسب معها .

ـ الأمر الثالث : نظرات الخطيب

لا بُدَّ من توزيع النظرات على المستمعين كل بحسبه . فالذي يكون مشدوداً

للكلام متوجهاً لما يُقال يُنظر إليه وكأنه المستمع الوحيد ، فيزداد أنساً واستماعاً وإقبالاً ، والذي يكون في سهو وغفلة عما يقوله الخطيب يتوجه الخطيب إليه وكأنه يسأله عن أمر عرض له في أثناء الكلام ، ثم ينصت قليلاً ليتوهم المستمع أنه يسأله عن الجواب ، وأنه ينتظر منه الإجابة ، وبما أنه غير ملتفت إلى السؤال ، ولا يعرف بماذا يجيب تدخل الرهبة في قلبه من اطلاع الحاضرين على غفلته ، أو جهله بالإجابة ، فيضطر حينذاك للتوجه ، وتركيز ذهنه على فهم ما يقوله الخطيب كي لا يقع في ذلك مرة أُخرى ، وحينئذ يسهل إقناعه .

ولا بُدَّ للخطيب أن ينظر في عيون السامعين كي لا يشعروا أنه بعيد عنهم فيما لو ركز نظراته في السقف كما يفعل كثير من المبتدئين في الخطابة خوفاً من أعين الناظرين . وهناك كثير من الخطباء ليس لهم الجرأة على مواجهة المستمع والنظر في عينيه كما حصل للجنرال «كرافت» حيث كان يخشى من ذلك ، فنصحه أحد علماء الخطابة بالنظر في أنوفهم كي يتوهموا أنه ينظر إلى أعينهم ، ولا يشعرون بأنه بعيد عنهم[1] . وكذلك عليه ألا ينظر من خلال النافذة إلى الخارج، ولا يلهو عن مستمعيه بمراقبة كتاب ، أو أي شيء آخر .

ـ الأمر الرابع : خروج الكلام من القلب

يجب على الخطيب أن يشعر السامع بأن ما يقوله يخرج من قلبه ، وأنه من جملة اعتقاداته التي لا تقبل الشك والتردد . وذلك بأن يتفادى قدر الإمكان التوقف بين الكلمات والتلكؤ في النطق بها . فإن ذلك مما يجعل المستمع مشتت

ـــــــــــ

١ـ صالح ، علي باشا ، أصول فن الخطابة ، ص ٣٩. وكرافت رئيس أميركا عام ١٨٦٩م .

الذهن ومترددًا في الاقتناع بما يُقال ، أو على أقل تقدير لا يجد في نفسه ما يشده للاقتناع به .

وقد قيل قديماً :

«الكلام الذي يخرج من القلب يدخل إلى القلب ، والذي يخرج من اللسان لا يتجاوز شحمة الأذن » .

ـ الأمر الخامس : تناسب المعاني وطريقة التلفظ

على الخطيب أن يحرص على أن تكون طريقة التلفظ بالعبارات مناسبة لمعانيها ، فمثلاً الجملة الاستفهامية تحتاج إلى نمط خاص من التلفظ مغاير لنمط تلفظ الجملة الخبرية ، والجملة المنفيّة تختلف طريقة تلفظها عن الجملة المثبتة وكذلك سائر أنواع الجمل . وأوضح مما ذكرنا أسلوب تلفظ الجملة التعجبية ، فإن لها أسلوباً خاصاً لا يقوم مقامه غيره ، ولا يمكن توضيحه للقارئ الكريم بالعبارة إلا أن الإنسان يدرك ذلك بطبعه السليم وسليقته الصحيحة في التلفظ بالكلام العربي ، بل إن ذلك لا يختلف من لغة إلى أُخرى ، وهو مشترك بين جميع الناس .

فلو تلفظ الخطيب بالجملة التعجبية ، أو الاستفهامية كما يتلفظ بالجملة الخبرية لدلَّ ذلك على أنه غير ملتفت إلى معناها ، ولما حصل للمستمع تلك الفائدة المرجوة منها .

وأكثر ما يقع الخطيب بهذا النوع من الخطأ فيما لو كان يقرأ خطابه عن الورقة، إذ يجد نفسه قد بدأ بجملة على النهج الخبري مثلاً ، ولا يلتفت إلى أنها

تعجبية إلا بعد أن يتمها ، خصوصاً إذا كان يقرأ الخطبة لأول مرة .

وهذا لا يحصل لمن يخطب ارتجالاً إلا نادراً . كذلك يمكن تجنبه إذا حضّر خطبته ، وطالعها مراراً قبل إلقائها .

ـ الأمر السادس : مراعاة أماكن الوقف والدرج

حينما تنتهي الجملة لا بُدَّ من التوقف هنيهة ليعلم المخاطب انتهاءها ، ولا يتوهم اتصالها بما بعدها . وأما في وسط الجملة فلا بُدَّ من وصل الكلام مع بعضه البعض حتى لا يصبح مقطعاً خالياً عن الفائدة التامة المرجوة من الكلام . ولا يصح الدرج في أماكن الوقف ، ولا الوقف في أماكن الدرج ، فلا بُدَّ من مراعاة كل منهما بحسب المقام .

ولا بُدَّ أن تكون أماكن الوقف شافية بيّنة . ولا يمكن معرفة ذلك وإدراكه من خلال القراءة ، بل لا بُدَّ من تتبع استعمالات الخطباء والاستماع إلى خطبهم والتأمل في الأماكن التي يقفون عليها والأماكن التي يدرجونها .

ـ المسألة السادسة

لا بُدَّ للخطيب أن يتحلى بخصلتين مهمتين في باب الخطابة :

ـ الأولى : حضور الذهن

يجب أن يكون الخطيب حاضر الذهن حال الإلقاء ملتفتاً إلى كل ما يقوله ، وإلى ما يمكن أن يرد عليه من اعتراضات وكيفية التخلص منها والإجابة عنها . فإذا فاجأه أحدهم باعتراض رده برد حسن لين دون إظهار عجز أو جهل أو

تأفف . وإن سأله بعضهم عن أمر يتعلق بخطبته يكن معداً له الجواب الشافي ، وإلا وجد نفسه في مأزق لا يعرف الخروج منه ، وينقض بذلك غرضه ، فلا يتمكن من إقناع الجمهور بفكرته ولا تلقينهم عقيدته . ولنعطك على ذلك مثالاً :

دار بين السيدة زينب بنت علي (صلى الله عليه وآله) وعبيد الله بن زياد حوار بعد خطبة ألقتها في حضرته أظهرت فيها نقصه وعدم تدينه وأحصت عليه عيوبه وذنوبه فقال راداً عليها ، يقصد إبطال قولها أمام الحاضرين :

«من هي هذه المتكبرة ؟» .

فقال بعض من حضر :

«هي زينب بنت علي(عليها السلام)» .

فقال لها بمكر وخبث محاولاً إظهارها مستحقة لما وقع بهم من السبي والإذلال، فيكون بذلك بريئاً ، ولم يفعل ذنباً يستحق عليه التوبيخ :

«الحمد لله الذي فضحكم ، وأكذب أحدوثتكم » .

فقالت الحوراء : «الحمد لله الذي أكرمنا بالنبوة ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا » .

فلما سمع هذا التعريض به أمام مناصريه سلك طريقاً آخر لإفحامها :

«هل رأيت ما صنع الله بأخيك الحسين؟».

فقالت له ببيان فصيح :

«ما رأيت إلا جميلاً ، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل ، فبرزوا إلى

مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلاح يومئذ، ثكلتك أُمك ، يا بن مرجانة » .

فأطرق عبيد الله بن زياداً لا يحير جواباً ، وقد أفحم وسوّد وجهه[1] .

وليس هناك أوضح دلالة على أهمية حضور الذهن حال الخطاب مما جاء في آخر خطبة المتقين للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، حينما صعق همام العابد، فاعترض رجل من الحاضرين على الإمام بقوله :

«فما بالك يا أمير المؤمنين ؟» .

يقصد أنه هو الذي كان السبب بموت همام ، أو أنه يستنكر موت همام من الموعظة دون موت الإمام . فأجابه(عليه السلام) :

«ويحك ، إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزه ، فمهلاً لا تعد لمثلها، فإنما نفث الشيطان على لسانك »[2] .

ـ الثانية : حسن التخلص

إن من الأمور المهمة للخطيب أن يجيد التخلص من الخطأ لو حصل ووقع فيه، ويحسن الاعتذار عن ذلك . فإن كل إنسان معرض للخطأ لا محالة ، ولعله من المواقع الصعبة عليه أمام الجمهور الذي كان يقف فيه ملقناً ومسدداً أن يظهر بمظهر المحتاج إلى مَن يعلمه ، ويقوِّم اعوجاجه ، ويصلح خطأه . فإن كان الخطيب ماهراً ، يعرف كيف يدير دفة الخلاص ، نجا بنفسه إلى شاطئ الأمان

١ـ الحائري ، معالي السبطين ، ج٢ ، ص١١٢ . بتصرف .

٢ـ نهج البلاغة ، رقم ٩٣ ، خطبة المتقين .

باعتذار حسن ، أو بطريق خفي يسلكه للهروب من ورطة الغلط ، ويظهر نفسه كأنه تعمد ما صدر منه ، وان ذلك لم يكن خطأ ، وإنما قصده لعلة في نفسه ، ثم يبرر تلك العلة ، ويوضح السبب الذي دعاه إلى ذلك بوجه سليم بسيط لا يدع للمستمعين شكاً ولا ريباً .

وسنضرب لك مثالين لتوضيح حسن التخلص والاعتذار :

ـ الأول ـ

في فتح بلاد خراسان كان قتيبة بن مسلم قائداً لجيوش بني أُمية ، وكان وكيع بن الأسود التميمي أحد قادة جنوده ، وقد صعد وكيع هذا يوماً لوعظ الناس وإرشادهم ، فقال في ضمن خطبته :

«إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أشهر... » .

فانبرى له رجل من الحاضرين قائلاً :

«إنما كان ذلك في ستة أيام »[1] .

فقال وكيع بلهجة البصير الواثق من نفسه ، وكأنه لم يصدر منه أي خطأ :

«وأبيك ، لقد قلتها وإني لأستقلها »[2] .

أي انه يرى أن ستة أشهر قليل على خلق السماوات والأرض ، فكيف بستة أيام؟ فما ذلك إلا لأن الله قوي عزيز ، فلا بُدَّ من إطاعته ، وعدم التعرض له بالمعصية .

١ـ إشارة إلى قوله تعالى : (إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) سورة الأعراف الآية ٥٤ .
٢ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٣٥٧ .

ـ الثاني ـ

روي أن الشيخ محمد تقي فلسفي صاحب كتاب الطفل بين الوراثة والتربية ، وهو من مشاهير الخطباء الإيرانيين المعاصرين ، كان يخطب في مناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة المرحوم آية الله البروجردي الذي كان مرجعاً للشيعة آنذاك ، فقال في طي خطابه هذه العبارة :

«إن آية الله البروجردي دامت بركاته ... » .

وهذا خطأ منه ، إذ كان عليه أن يقول : «قدس سره» ، أو «رحمه الله» ،أو «أسكنه الله فسيح جنانه» ، أو ما شابه ذلك من العبارات التي تقال في هكذا مقام ، فالتفت إلى خطأه ، وتابع قائلاً :

«نعم ، دامت بركاته ، لأنه ، وإن ذهب للقاء ربه ، إلا أن بركات أفعاله الخيرة دائمة فينا ، ولا تزال بيننا » .

ـ المسألة السابعة

لا بُدَّ أن يتحلى الخطيب بالقدرة على السيطرة على المجلس من جهة إصغاء الحاضرين جميعاً .

والقاعدة الأساسية في هذا المجال عدم توجيه نقد مباشر لأحد من الحاضرين، وعدم التجريح به ، كأن يقول له : يا فلان ، لماذا تتحدث أثناء كلامي؟ أو يقول : أنتِ ، أيتها المرأة ، أما شبعت كلاماً في بيتك حتى تأتي إلى هنا وتثرثري؟

فالمطلوب في ضبط المجلس توجيه الملاحظات بشكل غير مباشر ، فإن حاول بعضهم التشويش عرف كيف يتوجه نحوه ، وهو يتابع كلامه بصوت عال ، وكأنه يقول له :

«لا تتكلم أثناء كلامي » .

وإذا أحس بأن هناك من يتكلم مع من بجنبه عرف كيف يورد في ضمن كلامه ، وعلى نحو الجملة الاعتراضية ، ما يعرض فيه بهما مما يجعلهما يقلعان عن ذلك ، ويؤدب بذلك الباقين ، فلا يحاول أحد خلق ضوضاء أثناء الإلقاء .

وقد يكون من المناسب أن يصمت قليلاً بشكل ملحوظ ليسمع الناس الحاضرون صوت الذي يتكلم مع زميله ، فيخجل ، ويُمسك ، ولا يعود لمثلها .

وكلما كان الخطيب متفاعلاً مع خطابه ، وكان خطابه مؤثراً في المستمعين كلما سيطر على الحفل أكثر ، وإلا فسوف لن يتمكن من كبت جماح الضوضاء التي قد تزداد حتى تتغلب عليه ، وتُلزمه الصمت .

وقد ورد في كتاب الخطابة لمحمد أبو زهرة كلام لديكوب ، وهو أحد علماء النفس الفرنسيين ، وكان نائباً في البرلمان الفرنسي ، يصف به الخطيب النيابي الفاشل الذي لا يعرف كيف يسيطر على المستمعين :

«إذا استوى على المنبر أخرج من محفظته أوراقاً ، فنشرها أمامه على الترتيب، وشرع يخطب مطمئناً ، وهو يفتخر في نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكن روح سامعيه، لأنه وزن أدلته،وحررها،وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاءات والحجج، وأيقن أن الحق في جانبه ، وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة التي يأتي بها . وهكذا يبدأ

معتمداً على صواب رأيه ، واصفاً إخوانه باعتقاده أنهم لا يطلبون إلا الحق .

وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين ، ويتقزز من الضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب ويتساءل ؟

- «لماذا لا يسود السكون؟» .

- «وما السبب في هذا الاضطراب ؟».

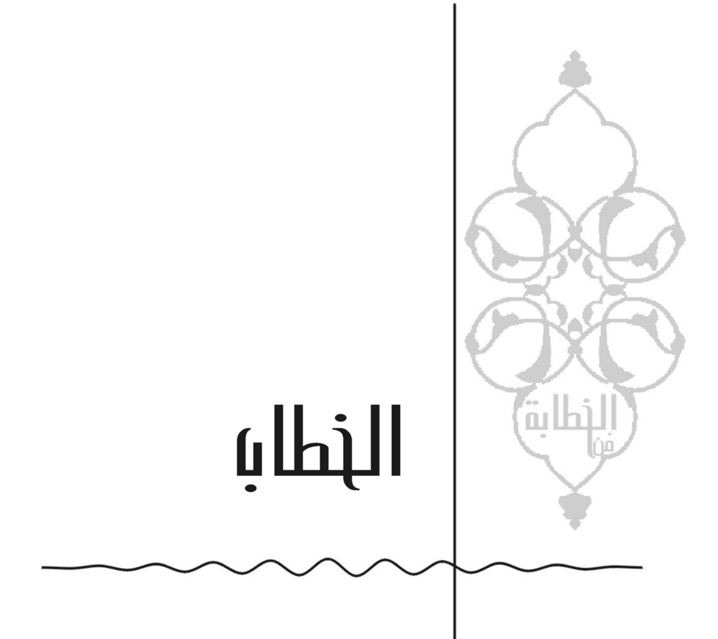
- «وما السبب القوي الذي يحمل ذاك على ترك مجلسه؟» .

فيفرك حاجبيه والحيرة تعلو جبينه ، ويمسك عن الكلام ، فيشجعه الرئيس ، فيعود بصوت مرتفع ، فيزيد الأعضاء في عدم الإصغاء ، فيجهر ويهتز ، فتزداد الجلبة من حوله ، ويعود لا يسمع نفسه ، فيمسك عن الكلام مرة أُخرى . ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات الأقفال ، فيرجع إلى الخطابة بما فيه من قوة ، وهناك تعلو الجلبة ، ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »[1] .

١ـ الخطابة لمحمد أبو زهرة ، مصدر سابق .

ـ زبدة المخاض

نستخلص من كل ما تقدم خلال المسائل السبع أنه يجب على الخطيب أن يكون سائقاً ماهراً ، يعرف مقصده وهدفه جيداً . فيسير بمن معه من المسافرين الذين يقلهم إلى النقطة التي حددها لنفسه ، عالماً بمكان تحركه وابتدائه ، عارفاً بموضع وصوله وانتهائه . يسرع بهم طوراً ، ويُبطئ أحياناً ، ويذهب بهم شمالاً مرة ، ويميناً مرة أُخرى حسبما يقتضيه المقام ، حتى إذا تعب الركاب من السفر ، وشعروا بالملل من طول الجلوس عرف كيف يعرج بهم على واحة مريحة ، يتناولون قسطاً من الراحة في ظلالها ، فيورد لهم قصة طريفة ، أو حكاية مضحكة، أو مثالاً غريباً ، فيستعيدون نشاطهم ، وتتجدد عزيمتهم ، ثم يتابع بهم المسير إلى الهدف المحدد ، والنقطة المرجوة ، وهم في غاية النشاط والسرور والراحة .



الخطاب

الخطاب

بما أن لفظ الخطاب يستعمل في معنيين :

ـ الأول : هو المعنى المصدري ، أي المعنى الحدثي .

ـ والثاني : هو المعنى المفعولي ، أي ما يُقال في أثناء الخطاب والتحاور ، وهو المعروف بمعنى الخطبة .

وبما أن ما قيل في أثناء المحاورة والتخاطب أعم من أن يكون مطلق الكلام ، أو ما تم التعارف عليه باسم الخُطبة ، فقد اسمينا الخُطبة هنا باسم الخطاب ، وإن لم يثبت لها هذا الاستعمال في لسان العرب . والحامل لنا على ذلك أمران :

ـ **الأول** : أن الخطاب بمعنى الخطبة أقرب إلى أذهان الناس في هذا العصر حيث يقولون : «ألقى الرئيس الفلاني خطاباً مهماً» . ، ويقولون : «جاء في خطابه كذا...» ، وما شابه ذلك . ولا يستعملون كلمة "الخطبة" إلا في موارد خاصة مثل خطبة الجمعة وخطبة العيد ونحو ذلك . ولذا يكون استعمالهم للخطاب أعم من استعمالهم للخطبة .

ـ**الثاني** : أن المناسبة بين الخطاب بما لـه من معنى لغوي بالتقريـب المتقـدم ، والخطـاب بمعنـى الخطبـة بملاحظـة أنهـا أحـد مـصاديقه تـسمح لنـا بهـذا الاستعمال دون شك .فهو استعمال قياسي ، ولو لم يكن سماعياً .

ويقع البحث في الخطاب في فصلين مستقلين هما :

١ـ تهيئة مواد الخطاب .

٢ـ صياغة الخطاب .

الفصل الأول

تهيئة مواد الخطاب

يمكن وضع منهاج تدريجي لتهيئة مواد الخطاب وجمعها يتكون من ست مراحل تخدم الخطيب بشكل كبير ، لا بُدَّ من اتباعه للمبتدئ ، ولكل من لم يتمرس في هذا الفن . وأما من تمرس فيه واشتد ساعده فقد لا يحتاج في تحضير خطابه إلا إلى مراجعة بسيطة لبعض المصادر ليضيف إليها ما لديه من معلومات سابقة وينسق الجميع في ذهنه ليخرج بخطبة كاملة متكاملة . وهذه المراحل هي :

ـ المرحلة الأولى : تحديد نوعية الخطاب

وذلك بأن يجيب الخطيب على السؤال التالي : ما هو نوع الخطاب الذي أريد أن ألقيه ؟ وذلك بأن يعين نوعاً من الأنواع الثمانية المتقدمة ، كأن يكون خطاباً دينياً ، أو سياسياً ، أو تعبوياً ... إلخ . ثم يقوم بتحديد الحقل الذي يريده ، كأن يكون خطابه في حقل الأخلاق ، أو التفسير ، أو السياسة العامة ، أو التاريخ الإسلامي ، أو الدفاع عن متهم .

ـ المرحلة الثانية : تحديد عنوان الخطاب

أي تحديد عنوان الموضوع الذي سيتناوله في خطبته مثلاً :

«الغيبة» في الموضوع الأخلاقي .

«تفسير سورة القدر» في علم التفسير .

«تحديد الموقف العملي للمسلمين في مقابل الغزو الفكري» في عرض المفاهيم الإسلامية . أو تطبيق السياسة الإسلامية .

«معركة النهروان» في التحليل التاريخي .

«الدفاع عن متهم بالقتل» في القانون والقضاء . وما شابه ذلك .

ـ المرحلة الثالثة : طلب الموضوع

وذلك بطلب الموضوع من مظانه ، أي من الكتب التي تحتوي على معلومات تفيد في هذا النوع من الخطب أو البحوث ، وعليه أن يراجع كتابين في كل علم على أقل تقدير ، وذلك لأن اعتماد الخطيب على مصدر واحد يجعله مجرد ناقل ، فيفقد شخصيته ، ويصبح مقلداً . أما إذا اعتمد كتابين فما فوق ، فإنه سيحتاج إلى دمج المعلومات مع بعضها البعض بإضافة شيء من عنده ، وهكذا يصبح له دور في صياغة المعلومات التي يقدمها للجمهور ، فتتولد له بذلك شخصية مستقلة ، ومع التكرار يصبح بمقدوره أن يكون ذا رأي ونظر ، ويتمتع بالنضج الكافي لإعداد خطبة كاملة عليها بصماته . وكلما طالع أكثر وعدّد المصادر ونوَّعها كان أفضل ، فإن ذلك يعطيه مجالاً أوسع في استعراض الآراء ومناقشتها والاستفادة

منها في إثبات المطلوب ، ويفسح له بالمجال للتعرض لدقائق الأمور وجزيئاتها ، ففي موضوع «الغيبة» يراجع مثلاً : «المحجة البيضاء» للفيض الكاشاني ، وكتاب «الغيبة» للشهيد الثاني . . وفي موضوع التفسير يراجع مثلاً : «الكشاف» «للزمخشري» ، و«مجمع البيان» للطبرسي . وفي الموضوع التاريخي يراجع مثلاً : «تاريخ الطبري» ، و«مروج الذهب» للمسعودي ، وهكذا ...

ويمكن معرفة الكتب التي تحتوي على مراد الخطيب بواسطة أمرين :

١. أن يكون عنده اطلاع تفصيلي على ما في الكتب التي تخدمه نتيجة مطالعاته السابقة ، أو اطلاع عام إجمالي على الكتب التي تمتُّ إلى موضوعه بصلة، بحيث لو راجعها لفتحت أمامه أبواب أُخرى ومصادر ثانية لموضوعه .

٢. مراجعة فهارس الموضوعات للمكتبات العامة في المادة التي يريد البحث فيها، فيبحث في فهارس مادة التاريخ عن الكتب التي تناسب موضوعه، وهكذا في التفسير والأخلاق وغيرهما [1] .

ويجب ألا تخفى على الخطيب هذه الأمور ، وإلا فعليه أن يعود للمطالعة العامة لمدة من الزمن ، فيقرأ بتروٍ وإمعان ، ويدوِّن رؤوس أقلام لما قرأ . ويحفظ ما له علاقة بالمواضيع التي يحتمل أن يتطرق لها ، ويبحث عنها .

ـ المرحلة الرابعة : تأمين الشواهد

وذلك بالبحث عن الشواهد التي تنفع الخطيب في دعم الموضوع الذي يريد التحدث فيه ، وذلك كالبحث عن الآيات التي تتعرض للغيبة مثلاً ، والأحاديث

١ـ راجع حول هذا الموضوع كيف تكتب بحثاً أو رسالة لأحمد شلبي . ص ٤١ .

الشريفة ، والأقوال المأثورة ، والقصص التي تناسب المقام ، وبعض الأشعار والأمثال ، وما شابه ذلك مما سيأتي تفصيله وكيفية الاستفادة منه .

ولعل البحث عن الشواهد أو ما نسميه بالأعوان أصعب وأشق من البحث عن الموضوع ، وذلك لأن الأعوان أمور جزئية متفرقة هنا وهناك ، فربما يحصل على شاهد للأخلاق من كتب التاريخ ، وربما يحصل على شاهد للسياسة من كتب التفسير ، وهكذا . . .

ويمكن القول بكل وضوح أن سعة اطلاع الخطيب ، وكثرة معلوماته ومحفوظاته تظهر جلية في هذا المضمار .

فمن الخطباء البارزين من باستطاعته أن يعتمد على محفوظاته في إلقاء الخطب الطوال ، ويذكر فيها من الشواهد والأعوان ما لا يدع عند السامع شكاً في صحة كلامه ، فيورد قصة من هنا ، ويروي حادثة من هناك ، ثم يدعم ذلك بالآيات القرآنية ، وبالشعر المحفوظ بشكل دقيق . وعليه ألا ينسى إيراد اسم صاحب الأبيات ، أو أسماء الأشخاص الذين نزلت الآية فيهم ، أو دارت القصة حولهم .

ـ المرحلة الخامسة: كتابة الخطاب مجملاً

أي كتابة النقاط الرئيسية على ورقة بشكل مرتب ومنسق على هذا الشكل :

أ. الآية أو الحديث أو القول المأثور الذي يفتتح به الخطاب .

ب. بعض الألفاظ الخاصة التي تصلح للمقدمة كمدخل إلى قلب الموضوع.

ج. طرح الموضوع ، وذلك على النحو التالي :

١. تعريف محور البحث وتوضيح المعاني التي تحيط به .

٢. ذكر التقسيمات والتفريعات بشكل مرتب ومنظم .

٣. تبيين حكم كل قسم .

د. الأدلة والشواهد والأمثلة على كل قسم من الأقسام المتقدمة بأن تكتب إلى جنبه .

ه. القصص المناسبة للمقام والتي لا بُدَّ من توزيعها بالشكل الذي يتناسب مع نقاط البحث .

و. الأعوان العامة أو الخاصة كالآيات ، والأحاديث ، والأمثال ، والأشعار، وما إلى هنالك . . . بشرط توزيعها في أماكنها المناسبة حين الكتابة ، أو على الأقل حين الإلقاء .

ز. الخاتمة وما يمكن أن يوجد فيها من ألفاظ خاصة بها ، أو أعوان كذلك كما سيأتي في بحث الخاتمة .

فإذا كان الخطيب له سابقة خطابية ، ويتمتع بذهنية جيدة يمكنه أن يكتفي بهذا المقدار من التحضير ، وإلا فلا بُدَّ له أن يمر في المرحلة السادسة .

ـ المرحلة السادسة : كتابة الخطاب مفصلاً

أي كتابة الخطاب كاملاً كما لو كان الخطيب يكتب بحثاً أو رسالة أو مقالة . ولا يوجد كثير فرق بين الخطاب والبحث إلا من حيث نوعية القضايا التي

تستعمل في الخطابة ، فإنها مشهورات ذائعات في الغالب ، دون البحث العلمي ، أو المقالة الأدبية ، ومن حيث الألفاظ الرنانة التي يمتاز بها الأسلوب الخطابي عن غيره ، وهكذا من حيث التكرار ، فإنه يستحسن في الخطابة ، ولا يستحسن في غيرها .

ثم بعد إتمام الكتابة يطالع الخطاب عدة مرات ، ويصحح ما وقع فيه من الخطأ، ثم يقرأه بصوت عال عدة مرات ليتعود على قراءته ، فلا يفاجأ بشيء منه على المنبر .

فإن كان الخطيب مبتدئاً ، فلا بُدَّ له أن يصطحب معه الأوراق التي كتب الخطاب عليها ، ليتلوه على المنبر . وننصح الخطيب هنا بألا يظهر الأوراق للمخاطبين إن أمكنه ذلك ، وخصوصاً إذا كان الموضوع طويلاً ، وقد استغرق عدة أوراق ، أو كان قد كتبه على ورقة كبيرة . فان رؤية المخاطب لهذه الأوراق الكبيرة ، وتخيل أنها ستتلى عليه بعد قليل بأكملها تقود إليه الضجر والسآمة باكراً حتى قبل بداية القراءة . فان أمكن ستر الأوراق الكثيرة خلف المنبر فهو ، وإلا فالأحسن أن تكتب على ورقة واحدة أو اثنتين من الحجم المتوسط أو الصغير ، وعدم مراعاة هذا الأمر سيؤدي بالخطيب إلى نفس المصير الذي وصل إليه الخطيب النيابي الذي مرَّ كلام «ديكوب» عنه [1] .

وأما إذا كان صاحب خبرة سابقة وتجربة ماضية فالأحسن له أن يكتب رؤوس الأقلام فقط ، أي يكتفي بالمرحلة الخامسة التي تقدم الكلام عنها ، ثم يضع الورقة في كفه بشكل غير ملحوظ للجمهور ، ويشرع في خطابه . فإذا احتاج

١ـ راجع صفحة ١٧٠ من هذا الكتاب .

إلى مراجعة آية أو نقطة ما استرق النظر إلى الورقة ، فقرأها ، أو استذكر بها ما يريده . وهذا الأسلوب متبع عند كثير من الخطباء . وقد شاهدت العديد من الخطباء لا يبدو عليهم التحرج من هذا الأسلوب . وميزته أنه ارتجال إلى حد ما ، ويعين على الارتجال التام . والمخاطب يرتاح إلى الخطاب الارتجالي أكثر بكثير من ارتياحه للخطاب المقروء عن الورقة .

وبما أن الكلام قادنا إلى الارتجال ، فلنبحث عنه في هذا الفصل .

ـ الارتجال

لا بُدَّ للخطيب أن يعوِّد نفسه على الارتجال ، فيشارك في إلقاء الخطب في المناسبات البسيطة وبين أترابه وأصدقائه ، ثم يحاول أن يرتجل في مناسبات أكبر وأهم ... وهكذا إلى أن يصل إلى المرتبة المطلوبة .

والمراد من الارتجال هنا الاستغناء عن الورقة ، وإن كان معناه المعروف لدى العرب هو الإلقاء دون تحضير مطلقاً .

ومن أهم الأمور التي تساعد على الارتجال كثرة محفوظاته وسعة إطلاعه ، بل يمكن القول انه من الصعب جداً أن يصبح المرء خطيباً مرتجلاً بدون محفوظات يعتد بها .

وهناك أشياء معينة إذا حفظها الخطيب ساعدته على الارتجال :

ـ **أولاً** : أكبر قدر ممكن من القرآن الكريم حفظاً محكماً مع مراعاة كل ما في الآية من حركات وسكنات ، والاطلاع على معاني الآيات إجمالاً . وينصح هنا

بأن لا يجهد نفسه بحفظ السور الكاملة ، بل الأفضل له أن يتخذ لنفسه كراساً يسجل فيه الآيات التي يحتاج إليها كثيراً ، ولها خصوصية تجعلها كثيرة الدوران في كلمات الخطباء ، ثم يقوم بحفظها ليتمكن من استحضارها إلى ذهنه بسهولة. وأقدر أن عددها لا يتجاوز المائة آية .

ـ **ثانياً** : أكبر قدر ممكن من الأحاديث النبوية وروايات الأئمة ، عليهم السلام ، وخصوصاً الأحاديث القصيرة ، أو ما يسمى بالكلمات القصار . ومن ذلك ما يوجد في القسم الثالث من نهج البلاغة والمعنون بعنوان : قصار الحكم.

ـ **ثالثاً** : بعض خطب نهج البلاغة مثل :

أ. خطبة المتقين .

ب. خطبة الجهاد .

ج. الخطبة الشقشقية .

د. خطبة الحث على الصلاة .

ه. كتابه عليه السلام إلى عامله في البصرة عثمان بن حنيف . فان فيها مادة واسعة يمكن الاستشهاد بها في كثير من الموضوعات .

و. مقاطع مهمة من عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر عامله على مصر .

ـ **رابعاً** : أكبر قدر ممكن من الأقوال المأثورة والحكم والأشعار والأمثال. وينصح في هذا المجال الاستفادة من كتاب «سنابل الزمن» و«كلمات من ذهب» و«ميزان الحكمة» .

هذا ، وقد سهلنا على القارئ الأمر بوضع ملحق خاص في نهاية هذا الكتاب

يحتوي على أهم الأمور التي ينبغي حفظها .

ـ **خامساً** : جمع ما تيسر من القصص الهادفة والقصيرة التي كان لها أساس في الكتب دون ما كان على سبيل الخرافة والأسطورة ، اللهم إلا بعض القصص العظيمة الفائدة . ويتم جمعها في الكراس الخاص المشار إليه آنفاً .

ـ **سادساً** : أكبر قدر ممكن من استعمالات البلغاء وعباراتهم وتركيباتهم القابلة للحفظ . وينصح هنا بالإكثار من الاستماع إلى خطب البلغاء وكلماتهم ، فإذا أثار الانتباه بعض العبارات يتم تسجيلها ليسهل حفظها وإدراجها في الخطب .

ـ **سابعاً** : الاعتياد على استعمال الكلمات الجزلة مكان الكلمات المبتذلة .

مثل ان يُقال : «ديمة» مكان «غيمة» و«عبرة» مكان «دمعة» و«ليث» مكان أسد و«صارم» مكان «السيف» و«أديم» مكان «التراب» و«قرطاس» مكان «الورق» ... وإلى ما هنالك من ألفاظ من الواضح إنها أحمل من غيرها مما سار على ألسن الناس ، وتؤدي نفس المعنى تقريباً . ويشترط هنا أن لا يستعمل الكلمات الغامضة.

والشيء الأساسي الذي يحتاجه الارتجال هو الإلقاء وممارسته بين الناس ، والتعود على مواجهتهم ، والإقبال عليهم . فإن ذلك يعلِّم الخطيب أشياء كثيرة لا يمكنه أن يتعلمها من الخطابة التي تعتمد على الورقة . فقد يحتاج الخطيب في بعض الأحيان إلى أن يغير بعض الأفكار التي وردت في ضمن خطابه نتيجة عروض طارئ يستلزم ذلك ، كما لو كان في ضمن الخطاب فقرة ترحيب بقدوم شخص يتوقع حضوره الحفل ، ولم يحصل ذلك ، أو بالعكس فقد يلزم الترحيب به لمجيئه فجأة . فان كان الخطيب مرتجلاً أمكنه فعل ما يريد من الإطالة ، أو

التقصير ، أو الحذف ، أو الزيادة ، أو التبديل لبعض الأمور ، أو غير ذلك مما لا يتيسر فعله لمن لا يمكنه الاستغناء عن الورقة .

وللخطابة تلاوةً ميزة عن الارتجال يجب أن لا نبخسها حقها ، وهي أن الخطيب المرتجل قد يُرتج عليه ما كان يريد أن يقوله ، ثم لا يأتي إلى ذهنه أي شيء مما يصلح للمقال ، بخلاف مَن يستفيد مما كتبه ، فإن ورقته في جيبه يتفقدها قبل الصعود إلى المنبر ، فإذا استوى عليه أخرجها ، وتلا ما فيها .

ولا يمكن للمرتجل التخلص من الحالة السلبية المشار إليها إلا إذا كان متمرساً حاد الذهن متوقد البصيرة ، فإنه يأتي بدل الكلام الذي كان يريد أن يقوله ونسيه بكلام آخر ، وربما كان أحسن من الأول وأجمل. وقد أوردنا بعض الأمثلة على ذلك فيما تقدم من الكتاب ، وسيأتيك الكثير منها في أواخر الكتاب في فصل «نوادر الخطابة» .

ومن الجدير ذكره أن العرب لم يكونوا يستعملون الإلقاء الإملائي في خطبهم مطلقاً ، بل كان عالمهم وجاهلهم ، سيدهم ومسودهم ، أميرهم ومأمورهم، يلقون خطبهم ارتجالاً ، ولذلك اشتهروا بأنهم أقوى الشعوب طراً على الارتجال .

الفصل الثاني

صياغة الخطاب

يقع البحث في صياغة الخطاب من جهتين :

الجهة الأولى : هيئته .

الجهة الثانية : مادته .

ـ الجهة الأولى: هيئة الخطاب

تتشكل الهيئة العامة للخطاب من ثلاثة أجزاء رئيسية هي :

١ـ مقدمة .

٢ـ عرض .

٣ـ خاتمة .

وقد قال عنها الشيخ الرئيس :

«وللأقاويل الخطابية صدر واقتصاص وخاتمة »[1] .

ـ المقدمة :

وهي ما يقدمه الخطيب بين يدي الموضوع الذي يريد أن يتعرض له في خطبته من عبارات لطيفة يفتتح بها كلامه ليهيّئ السامعين للاقتناع بما سيأتي في ضمن العرض . ويشترط فيها أمران :

ـ **الأول** : أن لا يكون فيها ما يسيء للمخاطبين ، أو ينفرهم من استماع الخطبة، مثل أن يذكر ما يزعجهم من أخبار ، أو يعدد ما فيهم ما مساوئ ، أو يتلفظ بألفاظ نابية ، أو يعرض أفكاراً مرفوضة عندهم سلفاً . والمهم ألا يكون في المقدمة ما يفسد التئام أذواق المخاطبين مع الخطاب .

وليس من المستحسن أن يوبخهم في مستهل كلامه . اللهم ، إلا إذا كان رئيسهم، أو من لا يستطيعون الإنكار عليه .

ـ **الثاني** : أن يتحرز الخطيب من إيراد ما يثير الحساسيات فيما بينهم ، وهذا يشترط في كل الخطاب ، وعلى الأخص في المقدمة . فلا يذكر فيها ما يذكرهم بعداوة قديمة فيما بينهم ، أو ما يعد عندهم تغليباً لبعض السامعين على بعض ، خصوصاً إذا كانوا طائفتين أو قبيلتين متنافرتين ، ونحو ذلك .

والفرق بين هذا الشرط وسابقه أن الأول يكوّن حساسية بين الخطيب والجمهور ، بينما هذا يوجِد الحساسية بين نفس الحاضرين الذين يتكون الجمهور منهم .

١ـ الشفاء ، مصدر سابق ، قسم الخطابة ، ص ٣٣٦ .

وأما ما يجب أن يُقال في المقدمة فسوف يأتي مفصلاً في الجهـة الثانيـة ، أي مادة الخطاب .

- العرض :

وهو ما يريد الخطيب طرحه من الدعاوى والأدلة مما عليـه أن يقنـع الجمهـور به. وهو العمدة في الخطاب ، وأساسه ، وركيزتـه . فـإن نجـح الخطيـب فيـه حقـق هدفه من الخطبة ، وإلا فليس نصيبه إلا الإخفاق . ويشترط فيه أمران أيضاً :

- **الأول** : أن يقسم الأفكار التـي يريـد عرضـها تقسيماً سليماً شاملاً لجميع مـا يحتوي عليه المقسم من جزئيات يلزم طرحها . ولا بُدَّ أن يعرض الأقسام بشكل واضح وسهل خال من التعقيد كي يسهل على السامع تصورها وضبطها . والتحرز قدر الإمكان عن استعمال الأسلوب العلمي الجاف كأن يقول :

«الشيء الفلاني لا يخلو إما كذا أو كذا ، فالأول دليله كذا ، ويرد عليه كذا ، والثاني حكمه كذا ، ويرد عليه كذا ... إلخ » .

وإنما من المستحسن جداً الاستفادة من الأسلوب الأدبي ، وذلـك بـأن يعـرض الأقسام عرضاً متناسياً فيه الطريقة المبتذلة للتقسيم ، ومستعملاً عبارات أدبية جيدة، على هذه الطريقة :

قسم المتقدمون الكائنات الأرضية إلى ثلاثة أجنـاس عامـة ، تـسمى بالمواليـد الثلاثة ؛ وهي : الجماد ، والنبات ، والحيوان . وعرفوها بأن منها ما ينمو ، ومنهـا مـا ينمو ويعيش ، ومنها ما ينمو ويعيش ويحس ... إلخ.

ـ **الثاني** : أن تكون الأفكار والأقسام التي يراد طرحها مرتبة ومترابطة ببعضها البعض كي يسهل على السامع الانتقال من أولها إلى ثانيها ، وهكذا إلى الوصول إلى الغاية المنشودة . وهذا الأمر له فائدتان :

ـ الأولى : أنه يسهّل على السامع تصورها واستيعابها جميعاً .

ـ والثانية : أنه يسهّل على الخطيب حفظها وإلقاءها .

ـ الخاتمة :

وتحتوي الخاتمة على صورة إجمالية لما جاء في العرض مصوغة بشكل محكم ومختصر ، بحيث يبقى ما ورد فيها عالقاً في أذهان السامعين أطول مدة ممكنة بعد انتهاء الخطاب . وفي الخاتمة يكون استخلاص النتائج من الموضوع ، وتقديمه كقضية كلية إلى الجمهور لينطلق في تحركاته على أساسه .

ـ الجهة الثانية: مادة الخطاب

أ. مادة مقدمة :

بما أن الخطاب ينقسم إلى الأجزاء الثلاثة التي بحثنا عنها في هيئة الخطاب ، فلا بُدَّ من تناول هذه الأقسام بعينها في مادة الخطاب .

لا بُدَّ أن تحتوي المقدمة على ما تفتتح به الخطبة كالبسملة ، والحمد ، والصلاة على النبي وآله عند المسلمين ، أو الاكتفاء بالسلام على الجمهور كما يفعل غيرهم ، وربما كان هناك من غير المسلمين من لا يتحرج من البدء بها بدون

أي شيء من هذا القبيل . وكان المسلمون يسمون الخطبة التي لا يُبتدأ فيها بما ذكرنا بـ«البتراء» . ولعله لأجل ذلك سميت خطبة زياد بن أبيه التي ألقاها حينما تولى البصرة من قبل معاوية بالبتراء حتى عرفت بهذا الاسم .

ثم بعد الحمد والثناء يدخل الخطيب في ذكر أمور عامة ، تكون كعنوَنة لما سوف يأتي الكلام عنه مفصلاً في العرض . ولا بُدَّ في المقدمة من مراعاة الهدوء والتمهل في الإلقاء ، واستعمال الألفاظ الجزلة الرقيقة الناعمة ما أمكن .

ولا بأس بأن تكون محتوية على بعض الاستعارات والتشبيه مما يجعلها حسنة مقبولة لدى السامع .

وغالباً ما تلقى المقدمة بصوت منخفض كما قدمنا في بحث الإلقاء ، إلا في الخطب العسكرية ، فقد يلزم الأمر ، بل لعل ذلك هو الغالب فيها ، أن يبدأ الخطيب بكلمات قاسية فخمة ، وبصوت عال ، كأن يقول :

«بسم الله قاصم الجبارين ، مبير الظالمين ، مدرك الهاربين ، نكال الظالمين ، صريخ المستصرخين... » [1] .

وتختلف افتتاحيات الخطب باختلاف أنواعها . فالخطب الدينية مثلاً إن كانت من خطب الوعظ والإرشاد تفتتح عادة بآية كريمة من القرآن الكريم ، أو بحديث نبوي ، أو حديث قدسي ، وما شابه ذلك . وان كانت من خطب المجالس الحسينية تفتتح عادة بعدة أبيات شعرية تصور بعض ما جرى في كربلاء .

وفي غير الخطب الدينية تختلف الافتتاحيات من خطيب إلى آخر ، ومن

١ـ القمي ، الشيخ عباس ، مفاتيح الجنان ، دعاء الإفتتاح ، ص ١٨٠ .

حفل إلى حفل ، ومن موضوع إلى موضوع ، ومن جمهور إلى جمهور مما لا يمكن تحديده .

فقد يبدأ الخطيب افتتاحيته بذكر قول مأثور لأحد الحكماء أو الفلاسفة ، وربما بدأ بذكر مثل شعبي ، أو ببيت من الشعر . وقد يشرع الخطيب في خطبته بتقديم نفسه كأحد أفراد الجمهور طالباً منهم أن يعدوه واحداً منهم ، ولا ينظرون إليه باعتباره صاحب مركز مرموق ، أو منصب اجتماعي ، أو مسؤولية سياسية . وربما كثر ذلك في افتتاحيات الخطب الأخلاقية حيث يذكر لهم الخطيب أن ما سيعظهم به إنما هو تذكرة له قبلهم ، وأنه يعلم نفسه قبل نفوسهم ، فإن ذلك يدعو لراحة نفوس سامعيه وإقبالهم عليه .

وقد يبدأ الخطيب بذكر ما هو مسلم عندهم مما لا يشكون في صحته ، حتى إذا دلف إلى العرض اتخذ ذلك ذريعة ، وبنى عليه أفكاره ليصل إلى مطلوبه مما لم يكونوا يتوقعونه ، وحينئذ لا يجدون مفراً من الإذعان بما جاء .

ومن أمثلة ذلك ما ورد في افتتاحية خطبة الوداع التي ألقاها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في غدير خم حيث أراد إلزامهم بولاية علي بن أبي طالب(عليه السلام) بعده ، وفيهم من يكره ذلك ، فقال : «ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ .

قالوا : بلى ، نشهد لأنت أولى بكل مؤمن من نفسه .

قال : فإني من كنت مولاه فهذا مولاه ، وأخذ بيد علي ... »[1] .

وكذلك ما ورد في خطبته بقومه حينما نزل قوله تعالى : ﴿**وأَنْذِرْ عَشيرَتَك**

١ـ العلامة الأميني ، الغدير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ط. ٤ ، ج١، ص ٣١ .

الأَقْرَبِيْن﴾ حيث جمعهم وقال لهم : «أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، ما كنتم تصدقونني ؟».

قالوا : «بلى » .

قال : «فإني نذيركم بين يدي عذاب شديد »[1] .

ومن الافتتاحيات الناجحة في استدراج المستمعين أن يقول الخطيب إذا كان يخطب خطاباً عسكرياً ، ويهدف إلى حثهم على الاستبسال والتضحية :

«أيها الأبطال ، يا من قهرتم الأعداء حتى خافتكم الأمم ، يا من لم يركعوا لظالم قط ، ولن يركعوا مهما تكاثرت الأعداء ، وتكالبت في وجههم الوحوش الضارية ، أنتم الشجعان ... يا أُباة الضيم . . . الخ » .

ثم بعد تقديم مثل هذه المقدمة يذكر لهم ما يريده .

ومما يحسن في المقدمة مراعاة براعة الاستهلال . وهي من المحسنات البديعية، وقد عرَّفوها بأنها :

«اشتمال الكلام في المقدمة على إشارة إلى ما سيق الكلام له »[2] .

ولنوضحَ لك براعة الاستهلال بالمثال نعرض بين يديك ما ورد في مقدمة كتاب «الصمدية» في النحو للشيخ البهائي حيث قال :

«أحسن كلمة يُبتدأ بها الكلام ، وخير خبر يُختم به المرام ، حمدك اللهم على جزيل الإنعام . والصلاة والسلام على سيد الأنام ، محمد وآله البررة الكرام ، سيما

١ـ الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ط. ١ ، ج٤ ، ص ٢٠٦ .
٢ـ التفتازاني ، سعد الدين ، شرح مختصر المعاني ، دار الفكر ، قم ، ١٤١١ ، ط. ١ ، ص ٣١٥ .

ابن عمه علي(عليه السلام) الذي نصبه علماً للإسلام ، ورفعه لكسر الأصنام ، جازم أعناق النواصب اللئام ، وواضع علم النحو لحفظ الكلام ... »[1] .

انظر إلى كلمة «يبتدأ» ، و«خبر» ، و«كلمة» ، و«نصبه» ، و«رفعه»، و«علماً» ، و«جازم» ، و«النواصب» ، وكلمة « كسر» ، ولاحظ تناسبها مع الموضوع الذي وضع له ذلك الكتاب ، وهو علم النحو .

وهكذا ظهر لنا كيف نأتي بمقدمة موفقة في مستهل خطبتنا ، وما علينا إلا التمرن والتطبيق .

ولنقدم لك مثالاً حياً يحتوي على ما ذكرنا من شرائط ويأخذ بيدك كي تُحسن افتتاحيات الخطب :

قال علي(عليه السلام) في مقدمة خطبة المنافقين ، بعد البسملة :

« نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إلى رِضْوَانِ الله كُلَّ غَمْرَة، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَه الأَدْنَوْنَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ إليه الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا ... » .

ثم قال في ضمن العرض :

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله، بِتَقْوَى الله، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ. يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ

١ـ الحسيني ، صادق مهدي ، شرح الصمدية ، مؤسسة الأعلمي ، كربلاء ، ١٣٨٥ هـ . ص٤ و٥ .

عِمَاد ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد ... »[1] .

فلاحظ كيف بدأ بالحمد والصلاة وكيف ضمن الصلاة الإشارة إلى ما يريد التعرض له في العرض، وكيف ذكر ألفاظاً توحي بما سيأتي؛ مثل كلمة «الاعتصام بحبل الله» ، وكلمة «تلون» وكلمة «تألب» مما يتناسب مع النفاق كما هو ظاهر .

وفي ختام بحث المقدمة أعرض بين يديك ، عزيزي القارئ ، صوراً عن المقدمة الناجحة والمقدمة الفاشلة .

ـ المقدمة الناجحة :

يفضل أن يبدأ الخطيب بما يثير انتباه الجمهور ليتسنى له السيطرة على مشاعرهم وجذب أسماعهم إليه . ولذا يفضل أن يبدأ بما يلي :

١. خبر يهم الجمهور :

كأن يبشرهم ببشارة يتوقعونها منه ، أو يأتيهم بخبر لا يتوقعون سماعه لطرافته وغرابته ، ويعدهم بالتفاصيل في طي الكلام .

٢. إيراد كلام أدبي جميل :

كأن يأتي بآية قرآنية ، أو ببيت رائع من الشعر ، أو حكمة جميلة ، أو قول مأثور يلقى استحسانهم ، كل ذلك يختلف باختلاف أذواق الجمهور.

٣. سرد قصة قصيرة مشوِّقة :

من أجمل البدايات القصة القصيرة المعبرة ، فالنفوس عموماً تحب

١ـ نهج البلاغة ، خطبة رقم ١٩٤.

الاستماع إلى القصص والروايات ، ومتابعة أحداثها ، أكثر بكثير من الإنصات إلى استعراض النظريات المجردة .

٤. سؤال يثير الفضول للمعرفة :

من الافتتاحيات المميزة أن يبدأ الخطيب بطرح سؤال هام حول موضوعه الذي سيتناوله لاستدراج الجمهور إلى التفكير، والتعاون معه .

ـ المقدمة الفاشلة :

ومن أبرز دواعي الفشل في المقدمة إيراد الأمور التالية :

١. اعتذار الخطيب بعدم كونه خطيباً ، أو أنه ليس لديه ما يقوله ، فهذا الأمر يضعف تفاعل الجمهور معه .

٢. تلخيص الخطبة في المقدمة ، كأن يقول للسامع : «كل ما سأقوله لك هو هذا» . فإن السامع سيكتفي بهذه الخلاصة التي هي في الغالب غير مقنعة لعدم اقترانها بالأساليب الخطابية المساعدة على الإقناع ، وسوف يترك المجلس ، ويغادر القاعة . ينبغي أن نوصله إلى الخلاصة ، ولكن ... بالتدريج ، ومع مؤثرات خاصة ليتم إقناعه بها .

٣. ذكر ما يسيء للمخاطبين ، أو ينفرهم من استماع الخطبة ، مثل أن يبدأ بذكر ما يزعجهم ، أو يقرفهم ، أو يستفزهم من أخبار ، أو يبدأ بتعداد مساوئهم ، أو يتلفظ بألفاظ نابية ، أو يعرض أفكاراً مرفوضة عندهم سلفاً .

٤. ذكر ما يثير العداوة فيما بينهم ، كأن يذكرهم بعداوة قديمة فيما بينهم ، أو ما

يعد عندهم تغليباً لبعض السامعين على بعض .

ب. مادة العرض :

بما أن العرض هو الجزء الأهم في الخطابة فلا بُدَّ من تسليط النظر إليه وتفصيل ما يجب أن يتصف به بشكل كاف لذلك سنجعل البحث فيه من جهتين :

١ـ جهة اللفظ .

٢ـ جهة المعنى .

ـ جهة اللفظ:

الأمور التي تُراعى في ألفاظ العرض إما لازمة ، أو مستحسنة ولكن لا يجب مراعاتها . أما الأمور التي يلزم مراعاتها ، فعشرة أمور ، ولكن قبل استعراضها نستمع إلى ما جاء في الشفاء حول أهمية جهة اللفظ في الخطاب ، وهو :

«اللفظ سلطان عظيم ، وهو انه قد يبلغ به ، إذا أحكمت صنعته ما لا يبلغ بالمعنى ، لما يتبعه أو يقارنه من التخيل . فإذعان النفس تُهيؤه لها قوة اللفظ فيقرب البعيد من التصديق»[1] .

ـ ما يجب فعله :

وأما الأمور العشرة التي يجب مراعاتها ، فهي :

١ـ الشفاء ، مصدر سابق ، قسم الخطابة ، ص ٢٢٠ .

ـ الأول : وضوح اللفظ

لا بُدَّ أن تكون الألفاظ التي يتكون منها الخطاب واضحة للمخاطبين بحيث يمكنهم فهمها بسرعة من دون حاجة إلى كثير تأمل وإعمال نظر . فإن وضوحها يقرب الهدف من متناول يد الخطيب حيث يصبح من السهل عليه حملهم على الاعتقاد بصحة ما يقوله . وكيف يأمل التأثير عليهم إذا استعمل كلمات غريبة بعيدة عن أذهانهم لا يفهمونها إلا بالرجوع إلى كتب متن اللغة .

ـ الثاني : مراعاة القواعد النحوية

فيجب أن يحرك أواخر الكلمات تحريكاً صحيحاً ، ويبتعد عن أسلوب تسكين أواخر الكلمات فراراً من الوقوع في الأخطاء النحوية ، لأن ذلك يعود عليه بضرر كبير ، حيث ينزل مستوى خطابه إلى أدنى المستويات ، ويصبح عامياً ليس عليه أي مسحة من الفصاحة .

ولا يخفي عليك أيضاً أن الخطأ في تحريك الكلمات يغير المعنى تغييراً أساسياً ، بل ربما أفسد المعنى في بعض الحالات . ألا ترى أن قوله تعالى :

﴿ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ .

لو قرأت كلمة «رسوله» بالكسر لصار المعنى أن الله بريئ من رسوله .

كل هذا بالإضافة إلى ما يتركه الخطأ النحوي من اشمئزاز في نفوس سامعيه ، واستصغار قدره .

ـ الثالث : مراعاة القواعد الصرفية

اللغة العربية لغة الاشتقاق ، وللكلمة اشتقاقات متنوعة ومتعددة ، وعلى الخطيب أن يجيد اشتقاق ما يريده من ألفاظ كي تكون ألفاظ خطابه صحيحة الصياغة والتصريف ، وذلك يحتاج إلى اطلاع على القواعد الرئيسية في علم الصرف وإتقانها . فمثلاً : يُقال «نهى» «ينهى» وليس «ينهي» ويُقال : «ينهَون» ، وليس «ينهُون» . ويُقال: «حاك الثوب» ، «يحوكه» ، وليس «يُحيكه» ... وهكذا .

ـ الرابع : التلفظ اللغوي الصحيح

لكل كلمة بالإضافة إلى ما لها في علمي النحو والصرف من أحكام تلفظ خاص من الناحية اللغوية ، أي في أصل وضعها ، يفرقها عن غيرها مما يشابهها من الألفاظ . فمثلاً يُقال : «من ثَمَّ» ، وليس «من ثُمَّ» ، ويُقال : «بمعزِل» ، وليس «بمعزَلٍ»، ويُقال : «الغَسْل» إن أردنا المصدر، و«الغُسْل» إن أردنا اسم المصدر... وهكذا . ويستحسن هنا الاستفادة من القرآن ونهج البلاغة لتحديد الاشتقاقات ، وكيفية تصريف الكلمات .

ـ الخامس : مراعاة التذكير والتأنيث

والمراد هنا المراعاة في كامل الخطبة في الحالات كلها ، إذ أنَّ هناك بعض الحالات المحرجة للخطيب من هذه الناحية ، فقد يتعرض للكلام عن مجموعة نساء ، ومجموعة رجال ، ويُبتلى بلزوم إرجاع الضمائر بشكل صحيح إلى كلٍ بحسبه ، فيُقال مثلاً :

«حينما دخل عدة نساء دكان بائع الأزهار ، وهن يلبسن ثياباً فاخرة ، أسرع البائع لخدمتهن ، ثم دخل ثلاثة رجال ، وألقوا التحية على الجميع ، فأجبن عليهم السلام . وعندما حاول الرجال أن يجلسوا خجل النسوة ، وأردن الانصراف... » .

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

ـ السادس : مراعاة الإفراد والتثنية والجمع

أما مراعاة الإفراد فأمر يسير ، وكذلك الجمع إلى حد ما ، وأما التثنية فلا تخلو مراعاتها من صعوبة ، خصوصاً إذا اجتمع المثنى مع الجمع ، أو مع الإفراد . ولنعد نفس المثال المتقدم لنطبقه على حالة التثنية :

«حينما دخلت امرأتان دكان بائع الأزهار ، وهما تلبسان ثياباً فاخرة ، أسرع البائع لخدمتهما ، ثم دخل ثلاثة رجال ، وألقوا التحية على الجميع ، فردتا عليهم السلام . وعندما حاول الرجال أن يجلسوا خجلت المرأتان وأرادتا الانصراف ...» .

---

١ ـ سورة الممتحنة ، الآية ٩.

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ... ﴾[1] .

ـ السابع : الترفع عن الألفاظ الدنيئة

كثيراً ما يحتاج الخطيب أن يعبر عن أمر يستقبح ذكره ، كالعورة ، وفضلات الإنسان ، وما شابه ذلك ، فلا بُدَّ له حينئذ من استعمال الكناية بدل التصريح ، كي لا يثير اشمئزاز السامعين . وقد قال الشيخ الرئيس في هذا المضمار :

«وقد يبدل الاسم بالقول ، إذا كان التصريح يستبشع ، مثل الاسم الصريح لفرج النساء ، فالأحسن أن يبدل ، فيُقال : «عورة النساء» ، كما يبدل اسم «الحيض» بدم النساء ، ويبدل الاسم الصريح للجماع «بلمس النساء» . وربما بدل الاسم بالصفة المفردة ، فيُقال بدل الاسم الصريح للجماع «الوطء» ، وبدل اسم ذلك لهن «العورة» . وربما تركت الصفة ، وفزع إلى التشبيه والاستعارة »[2] .

ـ الثامن : مراعاة تعدية الفعل المتعدي ولزوم اللازم

لا بُدَّ أن يُعدَّى الفعل المتعدي إلى مفعوله ، أو مفعوليه ، أو مفاعيله بحسب استعمال كل فعل . كما لا بُدَّ من التعدية بالحرف المناسب إذا أريد تعدية الفعل اللازم ، فيُقال مثلاً : «ذهبت إليه» . ، ولا يُقال : «ذهبت له » . . ويُقال : «رغبت

---

١ ـ سورة القصص ، الآية ٢٣ .

٢ ـ الشفاء ، مصدر سابق ، قسم الخطابة، ص ٢١٧ .

عنه» . ، إذا أريد التعبير عن إدبار النفس عن الشيء ، و«رغبت فيه» . ، إذا أريد إقبال النفس ... وهكذا .

ـ التاسع : مراعاة الرباطات

الرباطات هي الحروف والأدوات التي يقتضي النطق بها عودها مرة أُخرى لارتباط كلام آخر بها ، فيجب الالتفات إليها ومراعاتها ، فمثلاً إذا قال المتكلم :

«أما أنا ، فقد قلت كذا ... » .

فإنه يجب أن يأتي بـ "أما" أُخرى تقابلها ، فيقول مثلاً :

«وأما أنت ، فما فعلت شيئاً... » .

فان الوقوف على «أما» الأولى هو نقصان في الكلام ، إلا في حالة يراد فيها التعريض وهي نادرة . وعلى الخطيب أن لا يباعد بين الرباطين بحشو كثير ، يُنسي ما بينهما من الاتصال ، وأن يراعي حق الرباط من التقديم والتأخير ، جاء في الشفاء أنه يجب أن يقول :«لما كان كذا ، كان كذا ...» .

فان حق لما أن تُقدَّم. ويقول : « كان كذا لأن كان كذا» .

فان تقديم «لأن» قبل الدعوى سمج »[1] .

ـ العاشر : سبك الجمل

يجب مراعاة الدقة في سبك الجمل ، بحيث تكون محكمة ومتينة ، وكأنها تصدر عن تصميم وروية ، وذلك بأن يُقدَّم الفعل ، ويأتي بالمفعول بعد الفاعل إلا

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

إذا كان مقتضي الحال خلاف ذلك ، كما لو أراد الحصر ، فيقدم المفعول به على الفعل ، أو على الفاعل ، وما شابه ذلك . والخلاصة لا بُدَّ من مراعاة ما تتطلبه قواعد علم المعاني في هذا المضمار .

ولترابط الجمل وقوة سبكها الأثر الفعَّال في مساعدة السامع على سلامة الانتقال من فكرة إلى فكرة ، والارتقاء بمشاعره وأحاسيسه من حالة إلى حالة حتى الوصول إلى حالة الإقناع بالغرض ، وذلك بالوصول إلى ذروة الانفعال مع الخطيب ، والتأثر بقوله .

ـ ما يستحسن فعله :

وأما الأمور التي يستحسن مراعاتها في ألفاظ الخطاب فهي ستة أمور ، وقبل عرضها نقول : إنه كلما اعتنى الخطيب باختيار الألفاظ ، وتحسينها ، وتنميقها بما لا يصل إلى درجة التكلف كلما كانت النتيجة أفضل . قال الشيخ الرئيس :

«واعلم أن الاشتغال بتحسين الألفاظ في صناعة الخطابة والشعر أمر عظيم الجدوى»[1] .

وهذه الأمور الستة هي :

ـ أولاً : اختيار الألفاظ الجميلة

وذلك بأن يختار الخطيب الألفاظ الجزلة التي تدور على ألسنة الأدباء ، ويبتعد عن الألفاظ الباردة المبتذلة التي استعملها الناس كثيراً حتى فقدت رونقها .

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

وقد مرَّ معنا شيء من هذا القبيل في بحث الارتجال ، وهنا نورد كلاماً لابن سينا يدلنا فيه على كيفية اختيار الألفاظ فيقول :

«إذا قال الخطيب في صفة بنان الغزل : إنها وردية ، كانت أوقع من أن يقول : حمر، وخصوصاً أن يقول: قرمزية . فإن في الاستعارة للحمر «وردية» قد يخيل معها من لطافة الورد وعرفه ما لا يخيله قوله «حمر» مطلقاً ـ أي بدون تقييد باحمرار الورد ـ فإن في قوله: «حمر» مطلقاً لا يطور بجنبه المدح والاستحسان . وذكر القرمزي يتعدى إلى تخيل الدودة المستقذرة »[1].

ـ ثانياً : السجع

لا بأس بأن يحتوي الخطاب على بعض السجعات الموافقة للطبع ، البعيدة عن التصنع والتكلف ، وذلك مثل أن يقول :

نؤمن بسمائه وترابه ومائه ، نؤمن بجماله ، ونؤمن على الأخص برجاله.. .

قال علي (عليه السلام) :

«فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ الله ، وَفِرُّوا إلى الله مِنَ الله ، وَامْضُوا في الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إنْ لَمْ تُمنَحُوهُ عَاجِلاً »[2].

ـ ثالثاً : الطباق

الطباق من الأمور المستحسنة في الكلام ، وقد عرَّفه علماء البلاغة بأنه :

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

٢ ـ نهج البلاغة ، خطبة رقم ٢٤ .

«الجمع بين معنيين متقابلين »[1]. كما في قوله تعالى :

﴿**تحسبهم أيقاظاً وهم رقود**﴾[2].

استمع إلى بعض ما جاء في الخطبة البتراء لزياد بن أبيه :

«وإني، وأقسم بالله ، لآخذن الولي بالوالي ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول: «انج سعد فقد هلك سعيد... »[3].

ـ رابعاً : الاقتباس

وذلك بأن يُدخل في كلامه كلاماً لآخرين ممن يؤثر عنهم الكلام . والاقتباس قد يكون نثراً ، وقد يكون شعراً . ويشترط فيه أمران مهمان :

ـ الأول : أن لا يكون الاقتباس كثيراً إلى درجة يضيع بين ثناياه ما جاء به الخطيب من عنده ، وتتلاشى بين حناياه شخصية الخطيب ، ويصبح الخطاب سلسلة اقتباسات ، وكأن الخطيب ليس عنده ما يقوله[4].

ـ الثاني : لا بُدَّ من الانسجام بين المقتبس وما قبله وما بعده ، بحيث لا يبدو أي تنافر في السياق[5].

ولنعطك مثالين على الاقتباس واحداً في النثر والآخر في الشعر :

---

١ ـ شرح مختصر المعاني ، مصدر سابق ، قسم البديع ، ص ١٧٣ .

٢ ـ سورة الكهف ، الآية ١٨ .

٣ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٥٩ .

٤ ـ "كيف تكتب بحثاً أو رسالة ، مصدر سابق ، ص ٩٢ . بتصرف .

٥ ـ المصدر السابق .

ورد في خطبة لزينب بنت علي (عليها السلام) تخاطب بها يزيد بن معاوية قولها[1]:

«أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة. وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفيك جذلاناً فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك؟ إن الله إن أمهلك فهو قوله:

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾[2].

وورد في الخطبة الشقشقية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام):

«فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى. أرى تراثي نهباً. حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى فلان بعده (ثم تمثل بقول الأعشى):

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً، بينما هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته»[3].

- خامساً: التكرار

التكرار في الخطابة من الأمور الدقيقة، فإن عرف الخطيب كيف يتقنه، ويستفيد منه، نال مبتغاه، ورسّخ في أذهان السامعين أفكاره، وإلا أضجرهم منه،

---

١ ـ الاحتجاج، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٥.
٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٧٨.
٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، رقم ٣.

وأوقعهم في ملل لا يتحملونه .

فمبدئياً : « ما يرد في الخطبة من التكرار من شأنه ترسيخ المعاني في الألباب »[1].

وقد علل الفيلسوف الفرنسي «غوستاف لوبون» ذلك فقال :

«للتكرار تأثير كبير في عقول المستنيرين ، وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى . والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب. يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان، فيخيل له من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى، وينتهي باعتقاده صحة الخبر»[2] .

ولكن التكرار الذي له هذه الخاصية ليس تكرار نفس الألفاظ بشكل متتالي ، وإنما هو تكرار المعاني بألفاظ مغايرة تؤدي نفس المطلوب تقريباً ، وأما إن كان لا بُدَّ من تكرار نفس الألفاظ فيجب أن لا يكون هذا التكرار ظاهراً ، بحيث يبعث النفور في النفوس ، وذلك بأن يكون هناك فاصل بين المرة والمرة .

ويحصل تكرار المعاني بإيراد المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، أو بأوصاف مترادفة متغايرة لفظاً متطابقة معنى . مثال ذلك :

«ويلكم ، أي كبد لمحمد فريتم، وأي عهد نكثتم ، وأي كريمة له أبرزتم ،

---

١ ـ بيان العرب الجديد ، مصدر سابق ، ص ١٦٤ .

٢ ـ الخطابة ، محمد أبو زهرة ، مصدر سابق ، ص ٨١.

وأي حرمة له هتكتم ، وأي دم له سفكتم... » .

ومثل «قلت لكم قاتلوهم ، وأمرتكم بحربهم ، وطالبتكم بمنازلتهم ، وحرضتكم على غزوهم ، قاتلوهم قبل أن يقاتلوكم ، وحاربوهم قبل أن يحاربوكم، واغزوهم قبل أن يغزوك . فوالله،ما غزي قوم من عقر دارهم إلا ذلوا...

إن هذا النوع من التكرار يأنس به المستمع ، فيصل به الخطيب إلى ما يريده من الإقناع دون إثارة ملل ، أو إيجاد ضجر .

ورد في البيان والتبيين أنه جعل ابن السماك[1] يوماً يتكلم وجارية له بحيث تسمع كلامه . فلما انصرف إليها قال لها : «كيف سمعت كلامي ؟» .

قالت : «ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده » .

فقال : «أردده حتى يفهمه من لم يفهمه » .

قالت : «إلى أن يفهمه من لم يفهمه ، فقد ملّه من فهمه »[2] .

فيجب على الخطيب أن يسلك بين الماء والنار، فلا يُملّ السامع ، ولا يَدَعُ فائدة التكرار تفوته ، وذلك يرجع أولاً وأخيراً إلى خبرته ، وحذاقته ، وحسن تدبيره .

---

١ – ابن السماك : هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفي العجلي . كان حسن الكلام صاحب المواعظ و النصائح يحفظ عنه . تلمذ على الأعمش وهشام بن عروة . وأخذ منه أحمد بن حنبل . قدم بغداد كان له في جامع المنصور مجلس وعظ يتكلم فيه على طريقة أهل التصوف . مات سنة ١٨٣ .

٢ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٨٥ .

ـ سادساً : إسقاط الكلمات الزائدة

من الناس من اعتاد على إدراج بعض الكلمات الخاصة في مطاوي كلامه . فمنهم من يقول بين الجملة والجملة: «فهمت»، ومنهم من يقول: «واضح» ، ومنهم من يقول: «زين» ، أو «إذن» ، وما شابه ذلك من كلمات زائدة لا فائدة فيها. وهو مما يُخل ببلاغة الخطاب ، ويضع من قيمته ، ويجعل الخطيب مرمى لسهام نقد الجمهور .

قيل للعتابي :«ما البلاغة ؟» .

قال : «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استغاثة فهو بليغ » .

فقيل له : «قد عرفنا الإعادة والحبسة ، فما الاستغاثة ؟» .

فقال: «أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: «يا هناه»، ويا «هذا»، و«يا هيه» ، و«اسمع عني» و«أولست تعقل؟» ، فهذا كله وما أشبهه عي وفساد »[1].

فمهما أمكن الخطيب أن يقتصر في خطابه على الكلمات التي تؤدي مطلوبه دون حشو وزيادة فليفعل ، فإن ذلك في صالحه .

وهناك زيادات مهمة لا بُدَّ منها في مواردها ، وليست في الحقيقة من الزيادة في شيء ، وإنما هي من أصل الكلام ، مثل استعمال أدوات التوكيد ، نحو «إن» ، و«لام الابتداء» ، والباء الزائدة الداخلة على خبر «كان» المنفية ، أو «ليس» ، ونحو ذلك ، والسر في عدم كونها من الزيادات المرفوضة أن كلام العرب من الدقة بمكان ، بحيث قد يكون زيادة كلمة في الجملة موجبة لفسادها ، أو إضعاف

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٩٠.

معناها ، كما أن نقصان كلمة ، أو حرف ، قد يكون مخلاً بأصل المعنى ، لذلك علينا ألا نتوهم أن مثل كلمة : «إنَّ»، و«قد» ، و«حرف اللام في «إنَّ زيداً لقائم» . ، وما شابه ذلك لا فائدة فيها ، وأنها من الحشو ، بل هي ضرورية لمن احتاج إلى توكيد مضمون الخبر ، كما قرر في كتب البلاغة .

روى ابن الأنباري قال :

«ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس ـ يقصد المبرد النحوي ـ وقال له : «إني لأجد في كلام العرب حشواً » .

فقال له أبو العباس: «فبأي موضع وجدت ذلك ؟» .

فقال : «أجد العرب يقولون : «عبد الله قائم» .، ثم يقولون: «إن عبد الله قائم» .، ثم يقولون: «إن عبد الله لقائم» .، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

فقال أبو العباس: «بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : «عبد الله قائم» . إخبار عن قيامه، وقولهم : «إن عبد الله قائم» . جواب عن سؤال، وقولهم : «إن عبد الله لقائم» . جواب عن إنكار منكر قيامه . فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني » .

قال: فما حار المتفلسف جواباً »[١].

ـ جهة المعنى:

ربما يكون هذا البحث من أهم المباحث التي لا بُدَّ للخطيب أن يطلع عليها

---

١ ـ الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد وفايز الداية ، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢١٨ .

ليتمكن من التعبير عن المعاني التي تجول في صدره بأفضل الطرق .

وقبل الشروع في تفصيلات البحث نقسِّم ما سيرد فيه ، ونعنونه بالعناوين الخطابية الاصطلاحية المستعملة في كلمات علماء المنطق ، ليسهِّل على القارئ التعرف عليه ، فنقول :

يشتمل العرض على عامود وأعوان . ثم الأعوان نوعان : أعوان بصناعة وحيلة، وأعوان بغير صناعة وحيلة .

ويسمى القسم الأول : «الاستدراجات» . وهي على ثلاثة أنحاء : استدراجات بحسب القائل ، واستدراجات بحسب المستمع ، واستدراجات بحسب القول .

ويسمى القسم الثاني «نصرة» أو «شهادة» ، وهي على نحوين : شهادة قول ، وشهادة حال .

فهذه ستة أقسام :

١ـ العمود .

٢ـ استدراجات بحسب القائل .

٣ـ استدراجات بحسب المستمع .

٤ـ استدراجات بحسب القول .

٥ـ شهادة القول .

٦ـ شهادة الحال .

«وهذه الأقسام الستة هي كل أجزاء العرض ، وينبغي التحدث عن كل منها بالتدريج وبحسب الترتيب المتقدم »[(١)].

ـ العمود :

ويُقصد بالعمود أمران :

١ـ مادة قضايا الخطاب التي تشكل حجة الإقناع . وتسمى «التثبت» .

٢ـ كيفية تأليف هذه القضايا لتشكل حجة الإقناع . وتسمى «التثبيت» .

لذلك لا بُدَّ أن يقع البحث عن العمود في موضعين .

ـ التثبت :

«مبادئ الحجج الخطابية أصناف ثلاثة : أولها المشهورات، ... ثانيها المقبولات،... ثالثها المظنونات»[(٢)].

١. المشهورات : «وتسمى الذائعات أيضاً . وهي قضايا اشتهرت بين الناس، وذاع التصديق بها عند جميع العقلاء أو أكثرهم أو طائفة خاصة ، وهي على معنيين :

أ. المشهورات بالمعنى الأعم : وهي التي تطابقت عليها آراء العقلاء كافة... مثل قولهم : الكل أكبر من الجزء .

ب. المشهورات بالمعنى الأخص ، أو المشهورات الصرفة :

وهي أحق بصدق وصف الشهرة عليها، لأنها القضايا التي لا عمدة لها إلا

---

١ ـ راجع حول هذا التقسيم قسم الخطابة من كتب المنطق ، ومنها مثلاً : المظفر ، محمد رضا ، المنطق ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٣٧٠ .

٢ ـ الحلي ، العلامة ، الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد ، قم ، ط. حجرية ، ص ٢٤٢ .

الشهرة وعموم الاعتراف بها، كحسن العدل وقبح الظلـم ، وكوجـوب الـذب عـن الحرم ، واستهجان إيذاء الحيوان لا لغرض[1]. وعندنا مشهورات شنيعة وهـي التـي ينكرها أغلب الناس .

ومما يظهر من التعريف المتقـدم للمـشهورات بـالمعنى الأخـص نعلـم أنهـا لا تفيد يقيناً ، ولا واقع لها سوى تطابق آراء العقلاء عليها ، فلو خُلـيَ الإنـسان وعقلـه دون تأثيرات العقلاء عليه لما حكم بها . وإذا حكم بهـا العقـلاء ، فإنمـا يحكمـون فيها في بادئ النظر ، ولـو أنهـم تـأملوا فيهـا لمـا وجـدوا لهـا أساسـاً خـارج تطـابق آرائهم عليها .

جاء في النجاة :

«إن الذائعات المحمودة في بادئ الرأي غير المتعقب ـ أي غيـر المتأمـل فيـه ـ إذا عرضت على الأذهان العامة غير الفطنة ، أو الفطنة الغافلة ، عرضاً بغتـة أذعنـت لهـا، وإذا تعقبـت لـم تكـن محمـودة . كقـول القائـل : «انـصر أخـاك ظالمـاً أو مظلوماً»[2].

٢. المقبولات : «وهي قضايا مأخوذة ممن يوثق بصدقه تقليداً ، إمـا لأمـر سـماوي كالشرائع والـسنن المـأخوذة عـن النبـي والإمـام المعـصوم ، وإمـا لمزيـد عقلـه وخبرته كالمأخوذات عن الحكماء وأفاضل السلف والعلمـاء الفنيـين مـن آراء فـي الطـب والاجتمـاع أو الأخـلاق ونحوهـا . وكأبيـات تـورد شـواهد لـشاعر معروف ، وكالأمثال السائرة التي تكون مقبولة عند الناس ، وإن لـم تؤخـذ مـن

---

١ ـ المظفر ، المنطق ، مصدر سابق ، ص ٢٩٣ .

٢ ـ ابن سينا ، النجاة ، المكتبة المرتضوية ، طهران ، ١٣٦٤ هـ. ش. قسم المنطق ، ص ٦٤ .

شخص معين ، وكالقضايا الفقهية المأخوذة تقليداً من المجتهد... وقد تكون قضية واحدة يقينية عند شخص ومقبولة عند شخص آخر »[1].

٣. المظنونات: «وهي القضايا التي يصدق بها اتباعاً لغلبة الظن مع تجويز نقيضه ، كما يُقال مثلاً : «فلان يُسار عدوي ، فهو يتكلم علي، أو فلان لا عمل له ، فهو سافل ، أو فلان ناقص الخلقة في أحد جوارحه ، ففيه مركب النقص»[2].

وجميع الأنواع الثلاثة تشترك في أنها تفيد إقناعاً لدى الناس في بادئ الأمر ، لذلك دخلت في صناعة الخطابة ، ولو أنها كانت تفيد يقيناً لدخلت في صناعة البرهان .

وقد لا يتضح للقارئ الكريم كيفية استعمال هذه القضايا في العمود إلا بالمثال ، فلينتظر بحث "تطبيقات" ليتضح له ذلك جلياً .

ـ التثبيت :

يكون تأليف القضايا المتقدمة على شكل يفيد الإقناع كالقياس والتمثيل . ويسميان «تثبيتين» ، ويسمى القياس أيضاً ضميراً لحذف كبراه .

«والضمير ههنا كالقياس في الجدل ، والتمثيل كالاستقراء في الجدل»[3].

ـ القياس :

والقياس الذي سميناه ضميراً هو شكل من الأشكال الأربعة للقياس الاقتراني

---

١ ـ المظفر ، المنطق ، مصدر سابق ، ص ٣٠٤ .
٢ ـ المصدر السابق، ص ٢٩٢ .
٣ ـ ابن سينا ، الحكمة العروضية ، ص ٢٥ .

الحملي . وقد يكون جزء من قياس الخلف . وذلك بأن يكون جزء من الاقتراني الحملي الذي يتكون قياس الخلف منه ومن قياس استثنائي . فقياس الخلف هو الذي يبين فيه المطلوب من جهة نقيضه. فيكون هو بالحقيقة مركباً من قياس اقتراني ومن قياس استثنائي »[1].

مثال ذلك أن يُقال :

«الأنبياء يجب أن يكونوا معصومين كي يصدَّقوا ، لأنه لو لم يكونوا معصومين لاحتمل في حقهم الكذب ، ولَما كان الناس يثقون بكلامهم ، فلا يصدقون نبوتهم » .

وتوضيح قياس الخلف الموجود في قلب هذا الكلام هكذا :

١. قياس اقتراني حملي : «الأنبياء لا يحتمل في حقهم الكذب ، وإلا لم يؤمَنوا على النبوة . ومن لا يحتمل في حقهم الكذب مصدقون.إذن الأنبياء مصدقون .

٢. قياس استثنائي : «لو لم يكن الأنبياء معصومين لما صدقوا . لكنهم صدقوا ـ بموجب النتيجة المتقدمة ـ إذن الأنبياء معصومون . (وهو المطلوب) .

والضمير مؤلف من مقدمتين مقترنتين ، يستعمل بحذف إحدى هاتين المقدمتين ، ويسمى ضميراً ، لأن المستعمل له يُضمر إحدى مقدمتيه ، ولا يصرح بهما معاً ، ويُعتمد فيه أيضاً على ما في ضمير السامع من معرفة المقدمات التي حذفها »[2].

---

١ ـ النجاة ، مصدر سابق ، ص ٥٥ .

٢ ـ الحكمة العروضية ، مصدر سابق ، ص ٢٣ . وتلخيص الخطابة ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

وللضمير شأن خاص في صناعة الخطابة . فإذا كان الخطيب قادراً على أن يخفي كبراه ، أو إظهارِها على نحو "القضية المهملة" كان لذلك مردود نافع لدرجة كبيرة . والسبب الذي يلزمنا بإخفاء الكبرى أحد أمور ثلاثة :

ـ أولاً : إخفاء عدم الصدق الكلي فيها ، مثل أن يُقال :

«فلان يكف غضبه عن الناس فهو محبوب » .

فإنه لو صرح بالكبرى ، وهي : «كل من يكف غضبه عن الناس محبوب» . ، فسوف لن يجدها السامع صادقة على كليتها ، وقد ينتبه بسرعة إلى كذبها إذ قد يعرف شخصاً معيناً متمكناً من كف غضبه عن الناس ، ومع ذلك هناك من لا يحبه منهم .

ـ ثانياً : تجنب البيان المنطقي العلمي المعقد ، إذ أن الجمهور الذي يميل بطبعه إلى الصور الكلامية الواضحة الخفيفة المؤنة في التفكير لا يحب هذا الأسلوب من الكلام . وذكر الكبرى يصبغه بصبغة الكلام المنطقي الذي يصرف الجمهور عن التوجه إليه ، بل قد يثير شكوكهم بالخطيب مما يؤدي إلى عدم حسن الظن به ، بل ربما إلى سخريتهم منه .

ـ ثالثاً: تجنب التطويل .

فان الكبرى غالباً ما يبدو ذكرها مستغنىً عنه . وإذا أحس الجمهور بأن الخطيب يذكر ما لا لزوم لذكره ، أو يأتي بالمكررات ، يسرع إليهم الملل والاستيحاش . وقد يؤثر فيهم ذلك انفعالاً معكوساً ، فيثير في نفوسهم التهمة في صدق قوله. فلذلك ينبغي للخطيب دائماً أن يتجنب زيادة الشرح والتكرار الممل .

«وبما أن الكبرى قد تكون كاذبة أو غير كلية الصدق فيجب إخفاؤها . فلو اضطر الخطيب إلى ذكرها ينبغي أن يذكرها بدون إيراد كلمة كل وما يقوم مقامها من سور القضايا الكلية كي لا يظهر للسامعين كذبها . فلو قال : «ومن يكفف غضبه يكن محبوباً» مكان : «وكل من يكف غضبه محبوب» لما ظهر عدم كليتها كما هو واضح ، ولما عرف فساد القياس .

ـ التمثيل :

وأما التمثيل فهو الحكم على شيء معين لوجود ذلك الحكم في شيء آخر معين أو أشياء أُخرى معينة... ومثاله : إن العالم محدَث ، لأنه جسم مؤلف ، فشابه البناء، والبناء محدث، فالعالم محدث. فها هنا عالم وبناء وجسمية ومحدث»[1] .

إذن في التمثيل نحتاج إلى أربعة أركان :

١. المقيس وهو ما نريد أن نعطيه الحكم ؟.

٢. المقيس عليه وهو ما نريد أن نأخذ منه الحكم .

٣. وجه شبه بين المقيس والمقيس عليه .

٤. الحكم الذي ثبت للمقيس عليه والذي نريد نقله للمقيس بادعاء عدم الفرق بينهما .

«والمثال في هذه الصناعة نوعان : فأحدهما أن يمثل المتكلم بأمور كانت قد وجدت... والثاني أن يكون الخطيب يصنع المثل ، ويخترعه اختراعاً»[2] .

---

١ ـ النجاة ، مصدر سابق ، ص ٥٨ .

٢ ـ تلخيص الخطابة ، ابن رشد ، ص ٤٤٩ .

ومثال الأول أن يقول الخطيب :

«أيها الملك ، لا تهاجم مدينة صور ، فإنك لن تستطيع أن تدخلها ، والسبب في ذلك أن غيرك من الملوك الأقوياء حاولوا ، فلم يفلحوا ؛ فهذا الإسكندر قد هاجمها وحاصرها ، لكنه لم يستطع أن يدخلها .

ومثال الثاني أن يقول كما قال تعالى في كلامه عن اليهود الذين عندهم التوراة، ولا يستفيدون منه ، فحكَم عليهم بأنهم أغبياء ، كالحمار الذي يحمل أسفاراً : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[1] .

والخطابة تعتمد على التمثيل أكثر من اعتمادها على القياس . لذا لا بُدَّ من زيادة إيضاح في أركانه وأمثلته .

فالتمثيل كما قدمنا يحتاج فيما يحتاج إلى وجه الشبه ، وهو على ثلاثة أنواع :

ـ الأول : أن يشترك الأصل والفرع ـ أي المشبه والمشبه به ـ في أمر عام يظن أنه العلة في ثبوت الحكم للأصل ، فيلزم ثبوت نفس الحكم للفرع ما دام يشبهه في تلك العلة . وذلك مثل أن يُقال :

«قلمك من النوع الفلاني ، فلا بُدَّ أن يكون خطه جميلاً ، لأني كنت أملك قلماً من نفس النوع ، وكان خطه جميلاً » .

---

١ ـ سورة الجمعة ، الآية ٦ .

ـ الثاني : أن يكون في الأصل نسبة بين شيئين ، ويكون في الفرع مثلها ، كأن يُقال:

«كلما ازداد تواضع المتعلم ازدادت معارفه بسرعة ، مثل الأرض كلما ازداد انخفاضها انحدرت إليها المياه بسرعة ، وتجمعت فيها » .

ومن هذا القبيل قول القائد لجيشه : « كما وعدتكم بالنصر سابقاً وانتصرنا ، فإني أعدكم بالنصر مجدداً ، وسوف ننتصر » .

ـ الثالث : أن يكون التمثيل بحسب الاشتراك بالاسم فقط ، ولا ينطلي هذا التمثيل على المثقف المتنبه ،. وهو في الواقع مغالطة ، لكن لا بأس بها في الخطابة ، حيث تكون موجبة لظن المستمعين بصدقها .

مثالها أن يُقال :

«إن الكاتب الفلاني سيء الحظ ، ولم يَر الخير منذ أن ولد . وبما أن الشاعر الفلاني يحمل الاسم نفسه ، فلن يكون أحسن حظاً منه ، فإن حامل هذا الاسم سيء الحظ » .

وبعد هذا البيان للتمثيل لا بُدَّ من تتويجه بمثال حي يكشف لنا عن كيفية إدخاله في ضمن الخطاب . استمع إلى قول علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعدما ذكر أنه لا يهتم بمأكله ومشربه :

«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إذا كَانَ هـذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِب ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ .

أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً ، وَالْرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً ، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً ، وَأَبْطَأُ خُمُوداً... »[1].

شبَّه نفسه(عليه السلام) بالشجرة البرية التي لا تتمتع بشرب الماء ، كما لا يتمتع هو بالمأكولات الشهية ، وأثبت لها حكم الصلابة لكونها كذلك ، فيكون هو مثلها صلباً لمشاركته لها في نفس العلة .

والتصوير نفسه يأتي في النباتات العذية ، وهي التي تعيش بدون ماء . وأما قوله الرواتع الخضرة فيريد بها الحيوانات التي تأكل الحشائش الخضراء دون اليابسة ، فتتنعم بها ، فإنها ذات جلود رقيقة ، فلا تقدر على الصمود والمواجهة ، وذلك بالقياس إلى البهائم التي تقتات على الأشواك كالجمال ، فإن جلودها أكثر سماكة ، وبالتالي هي أكثر تحملاً . وبما أنه لا يفعل مثلما تفعل الرواتع الخضرة فيثبُت له حكم عكسها ، وبالتالي يثبت ما يريده ، وهو أنه لا يزال الأقوى على محاربة الأبطال ، ولا يضعفه عدم الإقبال على ملذات الدنيا ، بل يقويه .

ـ استدراجات بحسب القائل:

وهي ما يجب على الخطيب أن يفعله ليؤثر على سامعيه ، ويستدرجهم للوصول إلى حالة الاقتناع . وقد مر ذلك مفصلاً في ضمن البحث عن أحوال الخطيب ، فليراجع ثمة .

---

١ ـ نهج البلاغة ، من كتاب له إلى عثمان بن حنيف ، رقم ٤٥ .

- استدراجات بحسب المستمع:

وهي ما يحب أن يُقال بحيث يراعي فيه أحوال المستمعين فيما يحبون ، وفيما يكرهون ، وسوف يأتي ذلك مفصلاً في البحث عن أحوال المخاطب إن شاء الله ، فارتقب .

- استدراجات بحسب القول:

ويقصد بها علماء الخطابة كيفية إخراج الصوت بحسب ما يقتضيه المقام[1]. ومن أجل أن يتضح لنا ذلك مفصلاً لا بُدَّ من تقديم مقدمة تعطينا فكرة عن الصوت وأحواله ، وكيف يمكن مراعاة ما يوجب الاستدراج فيه .

- الصوت :

الصوت هو الهواء الذي يخرج من الرئتين متأثراً بمخارج الحروف كالحلق واللسان والأسنان والشفتين . وأما خروجه بدون هذا التأثر ، فلا يعدو كونه شهيقاً في حالة الدخول ، وزفيراً في حالة الخروج .

والصوت تارة يُجهر به ، وذلك بأن يظهر جوهره ، وأُخرى يُهمس به ، فيخفى جوهره . ويُقال لصاحب الصوت الذي غلب عليه الجهر «جهوري» .

وللصوت ثلاث صفات هي :

- أولاً - القوة : وهي سعة اهتزازات الآلة الصوتية ، وتتأثر بالقوة التي يخرج بها الهواء من الرئتين .

---

١ - راجع الشفاء ، مصدر سابق ، ص ١٠ ، والجوهر النضيد ، مصدر سابق ، ص ٢٤١ .

ـ ثانياً ـ النبرة : وهي درجة شد الأوتار الصوتية وما ينجم عنها من تغيير في مدى الاهتزاز . وهذا الشد تقوم به عضلات الحنجرة التي تُشد أو تُرخى ، وقد يصيبها شلل كما في بعض حالات الأمراض الصوتية ، فيُبحُّ الصوت ، وينطفئ.

ـ ثالثاً ـ الرنّة : وهي التي تميز الأصوات بعضها عن بعض ، لأنها تتعلق بتجويف الفم ، وتختلف في كل شخص بحسب اختلاف هذه التجاويف . إذ لا علاقة للرنة في قوة الصوت ونبرته . وقد يستطيع الإنسان بالتمرين أن يصل إلى تبديل رنة صوته كما يفعل المقلدون في محاكاة غيرهم من الناس ، أو محاكاة أصوات الحيوانات[١].

ففي ما يرتبط بقوة الصوت نقول : كلما كان الخطيب قادراً على التحكم بصفات الصوت ، فيرفع صوته ، ويخفضه بقدر ما يحتاج ، وعندما يلزم ذلك ، كلما ساعده ذلك على تقديم ما هو مرغوب للجمهور .

وفيما يرتبط بالنبرة نقول : إن التحكم بنبرة الصوت لإعطاء الجمل لحنها المناسب لها من التعجب والاستفهام والاستنكار والبشارة والتخويف وما شاكل ذلك كلما قدر الخطيب على أداء دوره على الوجه الأكمل .

وفيما يتعلق بالرنة نقول : قدرة الخطيب على تثخين الصوت وترقيقه حسب الحاجة من عوامل سيطرته على المجلس وعلى حسن الأداء .

وعليه ، فإذا اتضحت لنا حالات الصوت نعلم أن له أثراً كبيراً في حسن وقع

---

١ ـ فياض ، الدكتور نقولا ، الخطابة ، ص ١٤٥ .

الكلام على سمع المخاطب . ونعلم أيضاً أن حسن الصوت والتمكن من التصرف بالنبرات وتغييرها بحسب الحاجة من أهم ما يتميز به الخطيب الناجح .

وأما تحديد الحالات التي تستدعي هذه التغييرات في النبرة وكيفية هذا التغيير فليس من الممكن ، إذ ليس هناك قواعد عامة مدونة يمكن بها ضبط هذه التغييرات وتحديد حالات الحاجة ، وإنما معرفة ذلك مرهونة بخبرة الخطيب ، وتجاربه ، وكثرة تمرنه ، وكثرة استماعه إلى الخطباء الناجحين كي يأخذ عنهم ذلك دون أن يقلدهم تقليداً أعمى ، فإن لكل صوت ميزات خاصة تختلف عن غيره ، فقد يحسن من بعضهم أن يرفع صوته ، ويظهر قوته في موضع قد لا يناسب أصوات الآخرين ممن لا يشاركونه في نفس الصفات الصوتية من جهورية وقوة ورنة. ولذلك نرى كيف يفشل بعضهم في الخطابة لأنه حاول أن يقلد خطيباً معيناً في لهجته ، وإلقائه ، ورفع صوته ، وخفضه ، فبدا سخيفاً نابياً ، وظهر بمظهر المتصنع الفاشل .

ومع كل ذلك هناك بعض النقاط العامة تنفع الخطيب في هذا المجال فيما إذا روعيت تماماً ، يمكننا أن نشير إليها ، وهي :

ـ أولاً : يجب أن يبدأ الخطيب بصوت منخفض نوعاً ما ، ثم يرفع صوته شيئاً فشيئاً بحسب ما يقتضيه المقام من صغر مكان الخطبة ، أو كبره ، أو وجود مكبر صوت وعدمه ، أو كثرة المستمعين وقلتهم ، ومن حيث نوعيةُ الخطاب واقتضاؤه للصوت العالي ، كما في الخطب العسكرية والسياسية ، أو للصوت المنخفض كما في الأخلاقية والعلمية ونحو ذلك .

وقد ذكر المبرد في "الكامل" أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان إذا صعد المنبر ليتكلم ، تكلم رويداً ، فلا يكاد صوته يُسمع ، ثم يتزيَّد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ، ويزجر الزجرة ، فيُفزع بها أقصى من بالمسجد[1] .

ـ ثانياً : التغيير في قوة الصوت بحسب مقاطع الخطاب ، إذ بعضها يتطلب رفعاً للصوت مع تغليظ ، وبعضها خفضاً مع ترقيق .

فمثلاً إذا ورد في مطاوي الخطاب تهديد أو نهي عن فعلٍ ما ، لزم أن يرفع الخطيب صوته عن الحالة المتوسطة ، ويجعل نفسه كأنه هو الذي يتهدد أو ينهى، ثم يعيد صوته ، ويكمل كلامه . وإذا كان يعِد بأمر ما ، فلا لزوم لرفع الصوت ، أو خفضه . وإذا كان يتكلم بكلام يخاطب فيه الأحاسيس والوجدان ، أو يوجه نصيحة من القلب ، فإن عليه أن يخفض صوته بما يقارب من الهمس ، وما شابه ذلك . وقس على هذا كل ما يرد عليك ، فإن أدركت المطلوب فهو ، وإلا فما عليك إلا أن تكثر من الاستماع إلى مشاهير الخطباء ، وتراقب بدقة حالات رفع الصوت وخفضه ، فيرتكز ذلك في مدركاتك، ومع التجربة تصبح قادراً على الأداء بشكل صحيح .

ـ ثالثاً : من المستحسن للخطيب أن يُنهي الخطاب بصوت منخفض ، بل قد يقتضي المقام أن يُنهيه بما يشبه الهمس ، كما في الخطب الأخلاقية التي تأمر بالتقوى ، وتحث على الخشوع والسكينة ، والخوف من الله .

إلا أن خفض الصوت بشكل مباشر ودفعي بعد رفعه قبيح ، وغير مرغوب عند

---

١ ـ الكامل ، المبرد ، مصدر سابق ، ص ١٨٣ .

الجمهور ، حيث يلحظ التفاوت الفاحش بينهما ، لذا لا بُدَّ للخطيب إذا أراد أن يخفض صوته بعد رفعه أن يتدرج في ذلك .

وفي ختام هذا البحث نقول على نحو الإيجاز والاختصار :

إن رحلة إلقاء الخطاب تشابه إلى حد بعيد من جهة ارتفاع الصوت وانخفاضه رحلة السفر في الطائرة من حيث السرعة في حالة الإقلاع والهبوط وما بينهما . فالطائرة تنطلق بهدوء ، ثم تزيد في سرعتها شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ الذروة التي تهيؤها للإقلاع ، فترتفع عن الأرض منطلقة نحو الطريق المرسوم لها بشكل خط مائل كي لا يشعر الركاب المسافرون بالتغييرات الفجائية في الارتفاع ، فإذا وصلت إلى خطها المحدد لها كانت كالخطيب إذا دخل في صلب الموضوع ، وأنهى المقدمة ، وحينئذ يتأثر ارتفاعها عن الحد الوسطي لمسيرها بحسب تغيرات طبقات الجو ، وما يعرض لها من مطبات هوائية ونحو ذلك ، كل هذا من أجل عدم إزعاج المسافرين بالتقلبات المفاجأة . فإذا انتهت من قطع المسافة على الارتفاع المعين لها ، وشارفت على الوصول كانت كالخطيب الذي أتم الخطبة ، وأراد أن يختمها. فحينئذ تبدأ بتقليل السرعة للهبوط شيئاً فشيئاً ، كما يبدأ الخطيب بخفض صوته ، والتقليل من انفعاله شيئاً فشيئاً إلى الوصول إلى النقطة الأخيرة ، والتوقف الكامل . إن رحلة من هذا القبيل سوف تترك في الأذهان ذكرى طيبة ، وانطباعاً حسناً ، وقناعة بأن الرحلة كانت موفقة ، وأن قائدها كان ماهراً . فما على الخطيب إلا أن يكون طياراً ماهراً يجيد الإقلاع والهبوط بأحاسيس المستمعين ، ليوصلهم إلى المقصد ، وهم في غاية السرور والنشاط .

ـ شهادة القول :

ويراد من شهادة القول أن يذكر الخطيب أقوالاً ثابتة مسلمة عند مَن يسمعه ليجعلها شاهداً له على صحة كلامه ، وناصراً له في إثبات ادعائه ، وذلك نوعان :

ـ **الأول** : ما يعتمد على أهمية القول دون القائل .

ـ **الثاني** : ما يعتمد على أهمية القول والقائل معاً .

أما النوع الأول فهو ثلاثة أمور :

ـ أولها : شهادة المثل :

وذلك بإيراد مثل عامي أو فصيح يؤيد به مدعاه . وقد مر التمثيل لذلك في عرض خطبة الحجاج في أهل العراق حينما هددهم بأنه سيفتك بهم ، فقال :

«إني لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى. ″قد شمرت عن ساقيها فشمر″» .

وهي كلمة تقال عند اشتداد أوار الحرب .

وأوضح من ذلك قول زياد بن أبيه يهدد حجر بن عدي فيقول :

«ما أنا بشيء إن لم أمنع باحة الكوفة من حجر ، وأدعه نكالاً لمن بعده . ويلُ أُمك يا حجر، سقط العشاء بك على سرحان»[1] .

وسرحان اسم الذئب ، وأصل المثل أن رجلاً خرج مساء في طلب عَشاء

١ ـ العقد الفريد ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٥١ .

يأكله، فلقيه ذئب ، فأكله [1] .

ـ ثانيها : شهادة الشعر :

وذلك بأن يورد الخطيب شيئاً من الشعر في أثناء كلامه دليلاً أو شاهداً على ما يرد. فإن تأثير الشعر في أذهان الناس أشد من تأثير النثر . وإذا أحس المستمع بتطابق كلام الخطيب مع ما ورد عن السابقين من شعر مع غزارة عقولهم وقع في روعه أن ما سمعه حق لا ريب فيه . ومثال ذلك ما ورد في خطبة لزياد بن أبيه حيث قال :

«أيها الناس، لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا . فإن الشاعر يقول :

اعمل بقولي وإن قصَّرت في عملي

ينفعْك قولي ، ولا يضررك تقصيري» [2] .

ـ ثالثها : شهادة القصة :

إن لإيراد القصص في أثناء الخطاب كشواهد وأمثال على كلام الخطيب تأثيراً كبيراً جداً على السامعين عموماً ، وعلى العوام منهم خصوصاً ، فإنهم يستلذون بسماع القصص لسهولة فهمها ، ولما فيها من تشويق ، ويقتنعون بمضامينها، ويحفظونها بسرعة ، ويعتبرون أنهم حصلوا على تجربة في حياتهم من خلالها ، ويأخذون منها عبرة وموعظة .

---

١ – راجع : الميداني ، مجمع الأمثال، مصدر سابق ، ج١، ص ٣٢٨ .

٢ ـ جمهرة خطب العرب، مصدر سابق ، ج٢، ص ٢٧٦ .

فإذا عرف الخطيب كيف يسرد لهم حادثة طريفة أو أقصوصة مؤثرة ، ضمن إقبالهم عليه ، والتوجه لكلامه ، وسهل عليه إقناعهم بما يريد .

روى الجاحظ أن الحسن البصري كان يعظ الناس ، ويذكرهم بالموت ، ويدعوهم لترك مباهج الدنيا التي لا تنفع بعد الموت ، فذكر خلال كلامه هذه القصة القصيرة ، فقال :

«قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة ـ أي عبد الملك بن مروان ـ وأمير المصريين. وأشب الناس[1] . فأقام عندنا أربعين يوماً ، ثم طعن في قدمه فمات ، فأخرجناه إلى قبره ، فلما صرنا إلى الجبانة فإذا نحن بأربعة سودان ، يحملون صاحباً لهم إلى قبره ، فوضعنا السرير فصلينا عليها ، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه. ثم حملنا بشراً إلى قبره . ودفنَّا بشراً ، ودفنوا صاحبهم ، ثم انصرفوا ، وانصرفنا . ثم التفتُّ التفاتة ، فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي . فلم أرَ شيئاً قط كان أعجب منه»[2] .

إن الحسن البصري في هذه القصة عبَّر أحسن تعبير عن عدم نفع الجاه والشرف بعد الموت . إذ أن الإنسان بعدما يموت لا يبقى بينه وبين غيره مما هو دونه أي فرق ، حتى لو كان في الدنيا صاحب رئاسة وأخاً للخليفة ، وكان غيره عبداً حبشياً .

وأما النوع الثاني ، فهو أيضاً ثلاثة أمور :

---

١ ـ واشب الناس : أي أكثرهم شباباً .

٢ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٨٦ .

ـ أولها : كلام الله سبحانه وتعالى :

فيستشهد الخطيب على كلامه بآيات قرآنية أو أحاديث قدسية تدل على ما ادعى ، وتؤيد ، أو توضح ما أراد إثباته . فإن المستمع يتأثر بذلك ، ويذعن لكلام الله. والجمهور المسلِم يرى أن الخطاب الذي لا يزدان بآيات قرآنية جافٌ ، وفاقد للقوة ، وللسحر البياني المطلوب .

روى الجاحظ أن عمران بن حطان الخطيب الخارجي خطب عند زياد (أو ابن زياد) خطبة أعجب بها زياد . قال :

«ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم :

هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن »[1] .

وكلما تناسب الاستشهاد بالآية مع كلام الخطيب وتشابكا معاً كلما قويت حجته ، وسطع دليله ، وكان أدعى لتصديق الناس ، وإذعانهم .

ولا بُدَّ في الاستشهاد بالآيات القرآنية من مراعاة أمرين :

أ. أن يتلوها بكل دقة وانتباه مراعياً كل ما فيها من نكات لغوية أو نحوية وصرفية. فإن الخطأ في أي منها يبطل معنى الآية ، وينفر المستمع كما تقدم .

ب. أن يكون موقعها في الكلام مناسباً لما قبلها وما بعدها ، فلا يظهر بين الكلامين أي تنافر ، وإلا فقدت تأثيرها وجمالها . وقد مر تفصيل ذلك في

---

١ ـ المصدر السابق ، ج١ ، ص ٩٣ .

الاقتباس .

استمع إلى قول الزهراء ، عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها أفضل الصلاة والسلام، في خطبتها التي ألقتها في مسجد الرسول تطالب أبا بكر (الخليفة الاول) بحقها من إرث أبيها ، وترد عليه ما ادعاه من أنه سمع حديثاً من الرسول يقول فيه: إن الأنبياء لا يورثون ، فتقول :

«أأغلب على إرثي يا بن أبي قحافة ؟ أفي كتاب الله أن ترث أباك ، ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً . أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ** ﴾[1] . وقال في خبر يحيى بن زكريا :

﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾[2].

وقال : ﴿ **وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾[3].

- ثانيها : كلام المعصومين (عليهم السلام) :

وذلك بأن يستشهد الخطيب بكلام نبي أو إمام معصوم . ويشترط في كلام المعصومين عين ما اشترط في كلام الله .

وأمثلة هذا النوع من الاستدراج كثيرة منها قول الحسن المجتبى (عليه السلام) في رده على من أنكر عليه مصالحة معاوية :

«أيها الناس ، إن معاوية يزعم أني رأيته للخلافة أهلاً ، ولم أرَ نفسي لها أهلاً .

---

١ ـ سورة النمل ، الآية ١٦ .

٢ ـ سورة مريم ، الآية ٦ .

٣ ـ سورة الأنفال ، الآية ٧٥ . الاحتجاج ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٣٨

وكذب معاوية . أنا أولى الناس بها في كتاب الله ، وعلى لسان نبي الله . فأقسم بالله لو أن الناس بايعوني ، وأطاعوني ، ونصروني لأعطتهم السماء قطرها ، والأرضُ بركتها ، ولما طمعتم في معاوية . ولقد قال رسول الله ، صلى الله عليه وآله :

«ما ولت أمة أمرها رجلاً قط ، وفيهم من هو أعلم منه ، إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً ، حتى يرجعوا إلى ملة عبدة العجل»[1].

ـ ثالثها : كلام الحكماء العارفين :

كثيراً ما يجد الخطيب حاجة إلى الاستعانة بكلام الحكماء وعظماء الناس ، وخصوصاً إذا كان الجمهور ممن يستهويه ذلك ، أو لم يكن جمهوراً مسلماً يتأثر بالقرآن والسنة . فذكر أقوال الحكماء إذا كان مقروناً مع ذكر اسم هذا الحكيم ، أو الفيلسوف ، أو المفكر كان له مزيد التأثير على المستمعين .

ومن هذا النوع الاستشهاد بالأقوال المأثورة عن لقمان الحكيم ، بل لعله أبرز من يستشهد بقوله من الحكماء .

وهذا النوع من الاستدراج مستعمل بكثرة في الخطب غير الدينية مقابل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، وكلام النبي والأئمة في الخطب الدينية ، والسر في ذلك أن الخطب غير الدينية تخاطب غالباً من لا يهتمون بالدين ، أو لا يكون لهذه الأمور دخل في هذا النوع من الخطب . فلا يبقى إلا الاستشهاد بكلام الفلاسفة والحكماء للتأثير على هذا الجمهور. وليس معنى ذلك أن هذا النوع من الاستشهاد لا يدخل في الخطب الدينية ، أو لا يؤثر على الجمهور المتدين ، أو أن الاستشهاد

---

١ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٨.

بالآيات والروايات لا تدخل في غير الخطب الدينية،وإنما ذكرنا ما هو الغالب فقط.

ـ شهادة الحال:

وشهادة الحال تارة تكون بحسب حال القائل وأُخرى بحسب حال القول . فهاهنا نوعان :

ـ الأول : شهادة حال القائل

القائل هو نفس الخطيب ، فإن حاله تكون نصرة وشهادة بكونه مشهوراً بالفضائل مثل الصدق والأمانة وسداد الرأي ، أو كونه معروفاً بما يجعل السامعين يحترمونه ، ويعجبون به ، ويستمعون لقوله ، أو مشتهراً بالبراعة الخطابية ، أو الشجاعة ، أو الثراء ، أو الحنكة السياسية ، أو بكونه صاحب منصب رفيع ، أو مسؤولية ما في الدولة ، وما شاكل ذلك .

وقد مر في مستهل بحث «الخطيب» أن لمعرفة منزلة الخطيب الأثر البالغ عند المستمعين، فكيف إذا كان محبوباً أو موضع إعجاب وثقة منهم . وكلما ذاع صيت الخطيب واشتهر ، كلما كان تأثيره على سامعيه أعظم .

وقد تكون حال الخطيب شاهدةً من غير هذه الناحية ، وذلك بأن يكون ظاهراً عليه أثناء الخطبة أمارات الصدق فيما يقول ، فتبدو على وجهه البشاشة والسرور فيما إذا بشر بخير ، أو ذكر ما فيه مصلحة السامع ، وعلامات الخوف والهلع إذا أنذر بشر، أو هيئة الحزن إذا حدث بما يحزن .

وقد تقدم أن لتقاطيع وجه الخطيب وملامحه ونبرات صوته أثراً عظيماً في

مشاعر المستمعين وأحاسيسهم . والمستمع لا يستجيب للوجه الجامد القاحل من التعبير إلا في حالات نادرة جداً .

- الثاني : شهادة حال القول

تحصل شهادة حال القول بعدة أمور :

- أولاً : يمين القائل على قوله . فيحلف بالله ، أو بما هو معظم عند السامع بأن قوله صدق ، وأنه على حق ، أو بأن الموضوع الفلاني حكمه كذا . فإن ذلك يساعد في أحيان كثيرة ، وليس دائماً ، على قبول قوله .

- ثانياً : التحدي ، كالمراهنات على صحة المدعى وبطلان قول الخصم ، بغض النظر عن جواز ذلك شرعاً ، وقد ذكر جالينوس أنه كان راهن بعشرة آلاف دينار من يُريه من جهة التشريح أن مبدأ العصب من القلب[١] .

وكمن يأتي بما يُعجَز عنه فيُعلم أن دعواه دعوى صادقة ، ولولا ذلك لما أُيّد من السماء بما ليس في طباع البشر أن يوجد بقواهم . وكمن يدعي أنه أعلم من إنسان آخر في الطب ، وإلا فليعالج هو معالجته[٢] .

- ثالثاً : ترغيب القائل وترهيبه للجمهور .

وذلك بأن يعدهم تارة بأنهم إذا أخذوا بكلامه ، فسوف يلاقون خيراً ، وأُخرى يهددهم بأنهم إذا عصوا أمره ، وما اتبعوا نصيحته ، فسوف يندمون على ذلك ، ويُبيّن لهم ما هي الآثار السلبية التي تترتب على ذلك .

---

١ ـ الحكمة العروضية ، مصدر سابق ، ص ٢١ .

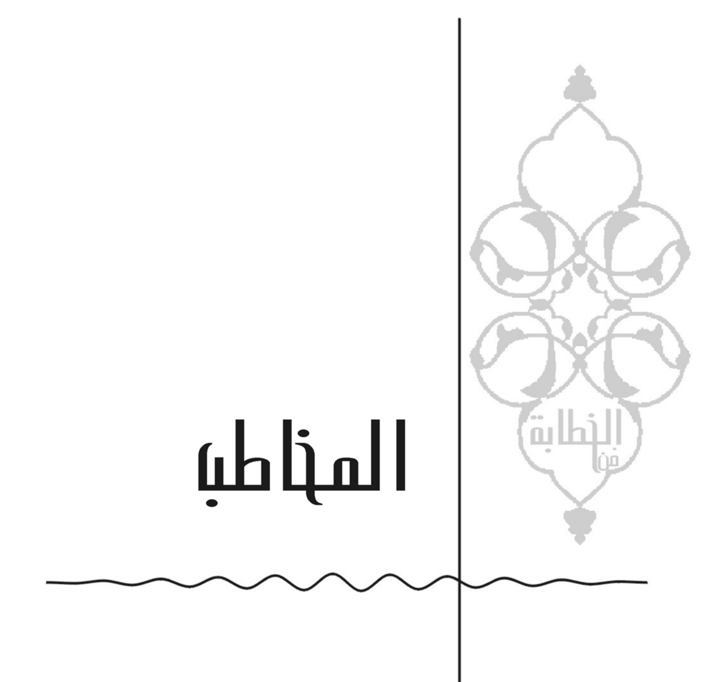
٢ ـ الشفاء ، مصدر سابق ، قسم الخطابة ، ص ٩ و ١٠ .

وليس المراد بالتهديد هنا أن يخوفهم من نفسه ، ويتوعدهم بالانتقام منهم إن هم لم يطيعوه ، وإلا لأفسد على نفسه أشد الإفساد ؛ فإن الخطابة تتحرى الإقناع ، وهو لا يكون بالقهر .

وإنما المراد أن يخوفهم من عذاب الله وغضبه ، ومن عواقب الأمور كالهزيمة والفشل ، إن لم يعملوا بقوله ، أو الفقر والضعف ، إذا لم يأخذوا بنصيحته. كما مر في كلام الإمام الحسن المجتبى(عليه السلام) ، حيث قال آنفاً :

«وأقسم بالله لو أن الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها » .

وبهذا يتم الكلام عن شهادة الحال ، وبالتالي عن العرض . وبذلك ننهي البحث عن الخطاب ، وننتقل إلى الركن الثالث ، وهو المخاطب .



المخاطب

المخاطب

المراد من البحث عن أحوال المخاطب معرفة أنواع المخاطبين وعاداتهم وأخلاقهم على وجه العموم مما إذا علمه الخطيب توضح لديه ما يجب فعله كي يكون كلامه مقبولاً عندهم ، ويقع في أنفسهم موقعاً حسناً ، فيتمكن منهم ، ويولد لديهم القناعة التامة .

والمخاطبون ، أو فقل المستمعون للخطاب أنواع ثلاثة ، نوعان مختصان بالخطب القضائية ، ولا يكونان في غيرها إلا نادراً وهما : الحاكم والنظارة . وواحد عام لجميع أنواع الخطب ، وهو الجمهور .

ومن هنا قسم علماء الخطابة السامعين إلى ثلاثة أنواع ، فقالوا :

«السامعون ثلاثة :

١ـ المقصود إقناعه . (وهو ما سميناه بالجمهور) .

٢ـ الناظر .

٣ـ والحاكم[١] .

وسنقدم الكلام عن الأخيرين لقصر الكلام عنهما ونتفرغ بعدها للجمهور .

ـ الحاكم

الحاكم هو القاضي الذي يتوجه إليه المحامي ـ سواء كان مدافعاً أم مدعياً ـ والنيابة العامة بخطبتهما ، كل يريد أن يقنعه بعدالة قضيته التي يدافع عنها . وهو منصت لهما ، ويزن أدلتهما ، فإذا وجد أن أحدهما أقوى دليلاً من الآخر ، وأظهر حجة ، وأثبت موقفاً ، ويتوافق مع القانون ، حكم له على خصمه .

والحكام مختلفون بحسب الطبائع والأخلاق عن بعضهم البعض ، ويحتاج الخطيب الذي يريد إقناع الحاكم إلى معرفة سابقة به ، والاطلاع على ما لديه من خصوصيات في مزاجه وعاداته ، وهل يحب الإيجاز أو الإطناب ، وهل يؤثِر الأسلوب الخطابي ، أم أنه لا يقتنع إلا بالبرهان ، وهل هو ممن يؤخذ بالمدح والتفخيم ، أم أنه يشمئز من ذلك ، ولا يحب التكلف والتصنع . فإن كل ذلك إذا عرفه الخطيب يسهل عليه النفوذ إلى أعماق مشاعر القاضي ، ويمكنه من إقناعه بكل المعاني التي أراد إقناعه بها ، فتصبح من جملة معتقداته الراسخة ، وينتزع منه الحكم الذي يريد .

وغالباً ما يكون الحاكم عالماً رصيناً ، وعارفاً بالأدلة والقوانين ، وفاهماً لأهمية الدور الذي يقوم به ، ومطلعا على خفايا الأمور ، ومجرباً لها . ومما يشترط في

---

١ ـ راجع مثلاً : الخطابة ، للفارابي ، مصدر سابق ، ص ٢٨ . والخطابة ، لأرسطو ، مصدر سابق ، ص ٣ . وقسم الخطابة من الشفاء ، مصدر سابق ، ص ٥٥ .

القاضي أيضاً أن يكون له قدرة على جودة التمييز لما هو أشد إقناعاً من أقاويل الخصمين »[1] .

ـ النظارة

النظارة هم الأشخاص الذين يجلسون في المحاكم ممن يرتبطون بأحد أطراف القضية المتنازع عليها ، أو ممن لا عمل لهم سوى الاستماع لما يدور في المحكمة من كلام ، والتصفيق إن قيل ما يعجبهم ، والهمهمة والدندنة إن قيل ما لا يروق لهم .

وهؤلاء لا غرض للخطيب فيهم إلا كشاهد غير مباشر على صحة كلامه ، وكمشجع له على الكلام ، ومساعد على إقناع الحاكم . فإن استطاع أن يحصل على تأييدهم ، وتصفيقهم ، وتشجيعهم له أمكن إيهام الحاكم بأن ما يقوله صحيح ومنطقي ، بدليل أنه مقبول عند العرف ، ويحكم به العقلاء . وهذا عامل مؤثر جداً في إقناع القاضي بصحة ما يقوله الخطيب ، وبالتالي تكون النظارة عاملاً مساعداً له على بلوغ هدفه ، وتحصيل مأربه . فلا بُدَّ من معرفة كيفية الاستفادة منهم في هذا المضمار ، وذلك يحصل بنفس الأساليب التي تتبع مع الجمهور كما سيأتي دون فرق يذكر .

وأما إذا لم يحصل الخطيب منهم سوى على الهمهمات والوشوشات فيما بينهما بما يوحي للقاضي بأنهم يرفضون كلام الخطيب ، فإن ذلك سيحمله على الاعتقاد بأن ما يقوله هذا الخطيب لا يحمل في طياته شيئاً من الصدق والواقعية ،

---

١ ـ الخطابة ، أبو نصر الفارابي ، مصدر سابق ، ص ١١ . بتصرف.

وإلا لما رفضه العرف ، واستنكره العقلاء .

ومما لا بُدَّ من الإشارة إليه في ختام كلامنا عن النظارة أن تأثير رفض النظارة على القاضي أشد من تأثير قبولهم عليه ، ولذا لا بُدَّ للخطيب تحاشي رفضهم قدر المستطاع ، وإلا فليتوقع صدور الحكم لغير صالحه .

ـ الجمهور

الجمهور هو المستمع الأساسي الذي يتوجه إليه الخطيب بكلامه في كل أنواع الخطب ليقنعه بما يريد ، وينقل إليه أفكاره وتصوراته. فهو المقصود بالوعظ فيريده الخطيب أن يتعظ ، وهو المراد بالتحميس فيريده أن يستبسل ، وهو المعني في إلقاء الخطب العلمية ، فيريده الخطيب أن يتعلم ، وتزداد معرفته ... وهكذا .

ويُبحث في الجمهور من جهات ثلاثة :

ـ الجهة الأولى : الجمهور بالنظر إلى الخطاب .

ـ الجهة الثانية : الجمهور بالنظر إلى الخطيب .

ـ الجهة الثالثة : الجمهور بالنظر إلى أسلوب الإلقاء .

ـ الجمهور بالنظر إلى الخطاب :

ينقسم الجمهور بالنسبة لما يقوله الخطيب إلى ثلاثة أنواع :

١. عامي : ونريد منه مَن لا حَظ له من العلم إلا ما قل وندر .

٢. مثقف أو متعلم : ونعني به من تعلم إلى مرحلة لا تجعل منه عالماً كما هو شأن

طلاب الجامعات وطلبة الحوزات الدينية .

٣. عالم : وهو من استنار بنور العلم ، وعكـف علـى الكتـب دراسـة وفهمـاً ، حتـى صار له رأي صائب ، واطلاع واسع .

ـ الجمهور العامي:

غالباً ما يكون الجمهور العامي غير منطقي ، فلا يقبل الأمور البرهانية المعقدة، ولو كانت صادقة ، وعلى حق ، وأفادت اليقـين ، فيرفـضها ، لا لأنهـا علـى حـق ، وإنما لتعقيدها . ولذا يحب هذا الجمهور الكلام السهل المبسط الذي يتناسـب مـع مستواه وقدرته على الفهم .

يقول العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره) :

«فالجمهور لا يخضع للبرهان ، ولا يقنع به ، كما لا يخـضع للطـرق الجدليـة ، لأن الجمهور تتحكم به العاطفة أكثر من التعقل ، بل ليس لـه الـصبر علـى التأمـل والتفكر ، ومحاكمة الأدلة والبراهين . وإنما هو غالباً سطحي التفكيـر فاقـد للتمييـز الدقيق ، تؤثر فيه المغريات ، وتبهره العبـارات البراقـة ، وتقنعـه الظـواهر الخلابـة . ولعدم صبره على التمييز الدقيق نجده إذا عرضـت لـه فكـرة ، لا يمكنـه التفكيـك بين صحيحها وفاسدها ، يقبلها كلها بما فيها من خطأ ، أو يرفضها كلها بما فيها من صواب »[1].

وعلى هذا يحتاج مَن يريد التأثير على العـوام أن يـسلك مـسلكاً غيـر المـسلك البرهاني والجدلي ، بـأن يلجـأ إلـى أسـلوب الخطابـة ، ويـستفيد مـن المـشهورات

١ ـ المظفر ، المنطق ، مصدر سابق ، ٣٦٧.

الذائعات ، والاستشهادات بالأقوال المأثورة ، والكلمات العاطفية ، وقد مر كيفية ذلك في محله .

ـ الجمهور المتعلم:

مما لا شك فيه أن المثقف أميل إلى البرهان من العامي . وهو في بعض الأحيان يحب الأفكار المعقدة والأرقام الدقيقة مما يحتاج إلى التركيز والتأمل ، حتى إذا أعمل فيها فكره ، وركز تأمله إلى فهمها ، فهمها ، وأدرك مغزاها ، شعر بلذة غريبة ، ونشوة عارمة، وحسب نفسه نابغة عظيماً ، وعالماً كبيراً، وكبر في عينيه الخطيب الذي استطاع أن يأتي بهذه الفكرة على دقتها ، فيتأثر به ، ويقبل كلامه في الحال .

والمتعلم مع هذا لا يختلف كثيراً عن العوام ، فإن الإثارات العاطفية ، والأساليب الخطابية تؤثر فيه تماماً ، كما تؤثر في العامي، إذ أن المثقفين أيضاً لا يتخلون عن عواطفهم في كثير من آرائهم واعتقاداتهم بالرغم من قناعاتهم في بعض الأحيان بأنها غير صادقة ، ويجب الاستغناء عنها ، واتباع التعقل والتروي .

فمن أراد أن يخطب في المثقفين لا بُدَّ له أن يدمج البرهان بالجدل وكليهما مع الخطابة حتى ينسج من الجميع نسيجاً جديداً له كل القدرة على التأثير على هذا المخاطب ، ويتكفل بحمله على الاقتناع ، والرضوخ والإذعان .

والخطاب مع المثقفين والمتعلمين يجب ألا يكون بالأمور التي يتعلمونها في مدارسهم وحوزاتهم ، وإلا صاروا حينئذ علماء ، وتحول الخطاب إلى خطبة علمية . نعم يمكن الاستفادة من بعض ما تعلموه كشواهد وأمثلة شريطة أن يتقن

الخطيب الفكرة التي سيعرضها ، أو الأمر الذي سيستشهد به بكل دقة واستواء ، فإن مناورة كهذه كفيلة بأن تجعله عندهم مقبولاً إلى أقصى الدرجات .

ـ الجمهور العالم :

إذا كان الجمهور مكوناً من العلماء ، كما يحصل عادة في المؤتمرات الفكرية والعلمية ، أو المهرجانات الأدبية ، وما شابه ذلك ، فإنه لا بُدَّ للخطيب من أن يُحكم أدلته ، ويزن براهينه ، ويعضد كلامه بما يفيد القطع واليقين ، ولا يستعمل معهم من الأساليب ما يستعمله مع العوام ، كالأقيسة الظنية ، والمغالطات ، وأخذ النتائج من المشهورات ، والاعتماد على ما يعرف العلماء ضعفه ، ويدركون زيفه ، وعدم صدقه .

إلا أنه مع كل ذلك لا يستغني الخطيب عن الأساليب الخطابية في إيصال المعاني إلى أذهان العلماء بشكل مؤثر ، وخصوصاً جودة الألفاظ ، والفصاحة ، والبلاغة ، والاستشهاد بالمأثور .

وأحسن ما يرتاحون إليه ، كعلماء ، الإيجاز ، وحسن الأداء، وأن يكون كلام الخطيب معهم من موقع مخاطبة العلماء ، فإن ذلك يشجعهم على إبداء مزيد اهتمام ، ويُقبلون على الاستماع بكل عناية ، وبالتالي يصبحون في حيز الاقتناع .

وأكثر ما يعجب العلماء في الخطيب أمران : الجدة ، وحسن البيان . فإن العالِم الواعي إذا عرضت عليه فكرة جديدة ، أو مطلب علمي حديث ، أو ألفت نظره إلى نكتة دقيقة ، لم يكن ملتفتاً إليها من قبل ، ارتاح كثيراً ، وازداد احترامه لمن جاء بها ، فإنه يعد ذلك من الامتنان عليه. وهكذا إذا أحسن المتكلم البيان ،

وإظهار مكنونات صدره ، وبنات أفكاره بكلام واضح وفصيح. فكم من فكرة قديمة أعجبت العلماء حين ألبسها قائلها ثوباً من البيان جديداً ، ولوَّنها بلون من الفصاحة زاهٍ .

فالألفاظ الجزلة ، والتنسيق المحكم ، والاستغناء عن الزوائد والحشو ، وترابط الكلام ، وتزيينه ببعض الاقتباسات ، والمقابلة ، والطباق ، كل ذلك يجعل أنواع الجمهور واقعين تحت تأثير سحر لا يمكن الإفلات منه ، وهو ما عناه رسول الله(صلى الله عليه وآله) بقوله كما مر : «إن من البيان لسحراً » .

ورد في مقدمة كتاب النص والاجتهاد أن المرحوم العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين حينما سافر إلى مصر للمرة الثانية متخفياً بكوفية وعقال بدل العمامة ، خوفاً من جور الفرنسيين الذين كانوا يلاحقونه باستمرار ، قادته الأقدار للمشاركة في مهرجان أدبي حضره كبار الأدباء ، أمثال أمير الشعراء أحمد شوقي ، والشاعر حافظ إبراهيم ، والأديبة مي زيادة ، وغيرهم من الأدباء. ووقف على المنبر بزيِّه الذي لم يدعهم يتعرفون عليه ، فبدأ كلامه بقول الشاعر :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم   فلا مشت بي في طرق العلى قدمُ

فصفَّق الجمهور عالياً ، كأنهم ظنوا أنه هو صاحب هذا البيت ، ولما هدؤوا قال:

«رحم الله الشاعر السيد حيدر الحلي حيث يقول :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم   فلا مشت بي في طرق العلى قدمُ

فدوَّت القاعة بالتصفيق مجدداً أكثر من الأول ، ثم أفاض عليهم من سجال

بيانه ، فرواهم بمعين تبيانه ، يزين الفكرة بالألوان ، ويعضد الدعوى بالبرهان ، وهو خلال ذلك ينقل خاتمه من إصبع لآخر ، حتى أتى على نهاية كلامه ، وهم به مشغوفون ، ويتمنون إطالة الكلام ، واتساع الوقت .

وعند نزوله عن المنبر عبر أحدهم عن مدى إعجابه، والظاهر أنها كانت الأديبة مي زيادة ، فقالت : «لست أدري هل البيان أطوع إلى لسانه أم الخاتم إلى بنانه» .

ويعود الفضل في ذلك كله إلى قدرة الخطيب على دمج المؤثرات الخطابية بالبراهين والأقيسة ، دون أن يبخس البلاغة حقها في كلامه ، فيخرج بالنتيجة المتوخاة . ولقائل أن يقول : إنه وإن كان المخاطب جمهوراً خاصاً إلا أنه في هذا العصر الذي انتشرت فيه آلات التسجيل لا بُدَّ أن يُنقل كلامه إلى مسمع جمهور آخر غير الذي خاطبه أولاً ، فيرى في الكلام ما لا يقبله ، كما لو كان الخطاب أولاً مع جمهور عامي ، ثم سمعه العالم ، فلا بُدَّ أن يرى فيه قضايا ذائعات لا تقوم على البراهين والأدلة ، فيكون ذلك عيباً فيه ، وضعفاً في خطابته .

وفي الجواب على ذلك نقول :

إن البلاغة هي أن تراعي المخاطَب الذي تتوجه إليه بخطابك ، دون أن تلحظ مَن سيأتي بعده ليسمع ، أو يقرأ خطابك ، فإن مراعاة مقتضى الحال حسبما قررها علماء البلاغة لا تشمل إلا حال المستمع المباشر . ولا يعيب أحد على البليغ إن تكلم بحسب مستوى المخاطَب ، تارة بأسلوب ، وأُخرى بأسلوب آخر ، أو تارة بسهولة ، وأُخرى بتعقيد ، وقد قال رسول الله (ﷺ) :

«إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم »[1] .

وفي هذا المقام يذكر أنه قيل لبشَّار بن برد الشاعر المعروف :

«إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت » .

قال: «وما ذاك ؟» .

قيل: بينما تثير النقع ، وتخلع القلوب بقولك :

إذا ما غضبنا غضبه مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

نراك تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل بالزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال بشار: «لكل وجهٌ وموضعٌ ، فالقول الأول جد ، والثاني قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض . فهذا القول عندها أحسن من : «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» عندك »[2] .

ـ الجمهور بالنظر إلى الخطيب :

الجمهور بالنسبة للخطيب متعدد الآراء متنوع الأهواء . فلا بُدَّ للخطيب ، كي

---

١ ـ البرقي ، أحمد بن محمد بن خالد ، المحاسن ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٧٠ هـ ، ج١ ، ١٩٥ .
٢ ـ الأصبهاني ، أبو الفَرَج ، الأغاني ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٢٩٤ . بتصرف يسير .

يؤثر على الجمهور، من أن يدرس بيئتهم وعاداتهم . فمن السامعين من يحب أن يكون الخطيب فصيحاً مفوهاً ، ومنهم من يحبه ذا أسلوب مبسط ، إلى العامية أقرب ، ومنهم من يحترم الخطيب ، ويقدره غاية التقدير ، فيعطيه كامل اهتمامه ، وخالص إصغائه ، ومنهم من لا يعطيه أدنى اهتمام ، فلا يتوجه لما يقوله ، ولا يتهيأ لسماع كلامه ، وكأن الخطاب ليس موجهاً إليه ، وفي مثل هذه الحالة لا بُدَّ من مراعاة بعض الأساليب الخطابية الخاصة لجذب اهتمامهم وإلزامهم بالإصغاء والتوجه .

فمن هذه الأساليب :

أن يبتدرهم الخطيب بفعل غريب وغير مألوف عندهم ، كأن يقوم بعمل مخالف لما اعتادوا عليه سابقاً . فإذا كان المتعارف عليه عندهم مثلاً صعود المنبر إلى أعلى درجة ، صعد هو إلى بعضه ، أو بالعكس . أو يخطب فيهم واقفاً إن جرت العادة أن يخطب فيهم من جلوس . وربما لزم الأمر أن يأتي بكلمات غريبة في مستهل الخطبة لإثارة اهتمامهم ، كما يذكر بعض المفسرين أن ذلك قد حصل مع رسول الله(صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) حينما حاول المشركون معارضته ، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)[1].

فربما صفقوا ، وربما صفروا ، وربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي في تلاوته ، فأنزل الله تعالى في مستهل بعض السور الحروف المقطعة التي كانت تثير استغرابهم مثل: ﴿ **الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ و﴿ **كهيعص * ذِكْرُ**

---

١ ـ سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ و﴿**عسق**﴾ ، وما شابه ذلك فإنهم كانوا حينما يلغون ويصفقون كي لا يسمعوا، يبدأ النبي(صلى الله عليه وآله) بتلاوة هذه الحروف تدريجياً ، فيجدون أنفسهم في وضع جديد وغريب ، فلا يملكون أنفسهم عن الإنصات ، وهم يحسبون أن محمداً قد فقد عقله ، فيأتيهم كلام الله تعالى : ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ »[1] .

ومنها :

أن يثير الخطيب في مستمعيه انفعالاً نفسياً أول الأمر ، كالخوف ، أو الغضب ، أو الفرح والسرور ، أو الانزعاج والتذمر ، أو أن يخبرهم خبراً مشوقاً ومثيراً ، ثم يعدهم بالتفاصيل ، وأنه سيوضح لهم الأمر خلال الخطبة ، فينتظرونه بشوق ، أو أن يروي لهم حادثة طريفة تضحكهم ، فتقبل أنفسهم على الاستماع إليه .

وقد يبدأ الخطيب بما يزعج المستمعين ، وهذا قليل ، ولا يحصل النفع منه إلا إذا كان الخطيب أمير القوم وقائدهم مما لا بُدَّ للجمهور من الاستماع إليه ، والانصياع لأوامره ، وذلك كما كان يصنع الحجاج بن يوسف الثقفي حيث بدأ خطبته بقول الشاعر :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني[2]

والأسلوب الأكثر نفعاً في مسألة الانفعال النفسي استعمال ما يسمى عند علماء الخطابة بـ «الأقاويل الخلقية» وهي : «الأقاويل التي تحملهم على أن يتخلقوا

---

١ ـ الطباطبائي ، محمد حسين ، الميزان في تفسير القرآن ، منشورات جماعة المدرسين ، قم ، ج١٨ ، ص ٧. بتصرف .

٢ ـ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ. ج١٢ ، ص١٢٧ .

بأخلاق ما ، وإن لم تكن فيهم، وتتصور أنفسهم بصورة أهل العلم بالشيء، وتفعل أفعال من له تلك الأخلاق ، وتلك العلوم ، وإن لم يكن لهم شيء من ذلك»[1] .

«وذلك يحصل بادعاء المتكلم أن قوله إنما يتضح لذوي الفكر الثاقب ، والذهن السليم عن وساوس المضلين ، مثل ما كان يستعمله جالينوس الذي يتكلم بالطب »[2].

أو أن يخبرهم الخطيب أول كلامه أنه متعجب من نفسه ، فهذه أول مرة يخطب في قوم ، وترتاح نفسه هذا الارتياح ، «ولا أظن ذلك إلا لأن الذين أقف بين أيديهم خطيباً هم من أهل العلم والوعي والإيمان والتدين ، وممن يعرفون قيمة العلم والمعرفة » .

ومنها :

إظهار أن الأمر الذي يتكلم فيه أمر عظيم ومهم ، وذلك بأن يقدم في مستهل كلامه مقدمة تحتوي على تعظيم الأمر الذي فيه القول وتفخيمه ، وتصغير ضده وتهوينه »[3].

وأما الجمهور الذي يحب المدح والإطراء فلا بأس بأن يمدحهم الخطيب بما يتناسب مع غرضه ، كأن يثني على علمهم ، وحبهم للمعرفة ، إذا كان يخطب فيهم لحثّهم على العلم والتعلم ، أو يمدح شجاعتهم وإخلاصهم ، إن كان يريد منهم التوجه إلى ساحة الحرب ، أو يمدح وطنيتهم ، وحبهم لبلدهم ، وتفانيهم

---

١ ـ الفارابي ، الخطابة ، مصدر سابق ، ص ١٤ .
٢ ـ ابن سينا ، الحكمة العروضية ، مصدر سابق ،٢١ و٢٢ .
٣ ـ الفارابي ، الخطابة ، مصدر سابق ،ص ٣٥ .

من أجله ، إن كان يريد أن يحملهم على موقف سياسي معين ، أو يمدح حبهم لفعل الخير ، وكرم نفوسهم ، إن كان يريد منهم أن يتبرعوا لمشروع خيري ... وهكذا .

وليس أفسد على الخطيب من ابتداء كلامه بذم الجمهور ، والحط من قدره وتعنيفه ، ولو كان ذلك حقاً وصدقاً ، فإن استقبالهم بالذم يذهب من نفوسهم حب التوجه ، ورغبة الاستماع .

فإن كان لدى الخطيب حاجة إلى تأنيبهم على أمر بدر منهم يمكنه أن يستعمل في مطاوي كلماته أسلوب التعريض دون التصريح ، وذلك بأن ينسب الفعل إلى واحد والمراد غيره . فيتكلم عن جماعة من الناس دون تسميتهم ، ويصفهم بأن فيهم الخصال التي يريد أن يذمها ، ويظهر قبحها . وأن هؤلاء قد يكون بعضهم ضمن الحاضرين ، أو ربما لا يوجد أحد منهم ، وأنهم قلة ، وأنهم لا قيمة لهم ، ولا وزن عند الناس »[1] .

والخلاصة أن التجاوب النفسي بين الخطيب والجمهور أمر أساسي ، ولا بُدَّ منه ، فلو حصل من الخطيب ما ينافي ذلك من أذية ، أو تضجير ، فإنه لن يجني من خطبته إلا الفشل والخيبة والخسران .

ولمهارة وبراعة الخطيب ههنا مجال واسع ، حيث يمكنه قبل الشروع بالخطبة الاستعلام عن حال الجمهور ، والاطلاع على خصائصه ، وعاداته ، وما يحب ، وما لا يحب ، فيرسم على أساس ذلك خطته للدخول إلى قلوب مستمعيه قبل الوقوف

---

١ ـ المظفر ، المنطق ، مصدر سابق ، ص ٣٧٤ .

على المنبر ، حتى إذا استوى عليه أخذ يطبقها على أكمل وجه .

ولا أزال أذكر أن أحد العلماء خطبنا بخطبة في أيام عاشوراء من إحدى السنوات ، وكان لها الأثر الكبير في نفوسنا ، ولا أزال أذكر انه حينما اعتلى المنبر كان الجو السائد غير ملائم على الإطلاق ؛ وشوشات ، وضحكات ، ذهاب ، وإياب ، وهمس ، ودندنة في كل اتجاه ، ولكنه وقف ساكناً ، لا يأتي بأي حركة سوى النظر في وجوهنا صامتاً ، كأنه ينتظر نزول الوحي ، حتى أخذ منا العجب مأخذه من هذا الخطيب ، فأنصت المجلس أيما إنصات ، وعلامات الفضول على وجوهنا ، نساءل أنفسنا : ماذا دهى هذا الشيخ ؟ حتى إذا وجد الجو ملائماً بدأ كلامه مفتتحاً بالحمد والثناء ، ثم قدم مقدمة عن أهمية الذكرى ، وأهمية الحسين(عليه السلام) ، وكم يجب أن نحترمه ، ونحترم ذكراه ، ومجلسه ... وهكذا أكمل مستمراً بأسلوب سلس ، وعبارة واضحة حتى أخذ بمجامع قلوبنا .

ولا يظنن خطيب أن بإمكانه أن يصل إلى مبتغاه في إقناع المخاطب ما لم يراع هذه الجوانب التي هي على قدر كبير من الأهمية .

- الجمهور بالنظر إلى الإلقاء :

ليس للأسلوب الذي يتبعه الخطيب درجة معينة من القبول عند أنواع الجمهور، بل لكل جمهور ذوق خاص ، وحالة مميزة ، تجعله يقبل أسلوباً ، ويرفض آخر . فالأسلوب الحماسي يضحك الشيوخ ، ويثير تهكمهم ، والأسلوب الرصين يضجر الشباب والناشئين . فلا بُدَّ من معرفة أخلاق وأهواء الجمهور ، وأذواقهم ، وما هو المقبول لديهم ، وما هو المرفوض عندهم ، وما هو المؤثر

فيهم دون سواه ، كي يتمكن الخطيب على ضوء ذلك من تهيئة وإعداد ثم إلقاء خطابه بالشكل الذي يتناسب معهم ، كي لا يكون كطاحن الماء ، أو ناقل الهواء .

لقد عرض الشيخ الرئيس في قسم الخطابة من كتابه "الشفاء" [1] نبذة عن أخلاق الجمهور المتنوعة وأذواقهم المختلفة . ولعل النفع في الاطلاع على ذلك لا ينحصر بالجهة الثالثة ، وإنما يتعداها إلى الأولى والثانية ، إذ بذلك يعرف كيف يخاطب مستمعيه ، وما هو المستحسن أن يقوله ، أو أن يبني عليه خطبته ، وأي أسلوب هو الأنجح معهم . لذلك رأينا نقله كما هو حرصاً على الفائدة ، فقد قال بعد أن قسَّم الجمهور بحسب العمر إلى أربعة أقسام هي :

١. الغلمان : ويقصد بذلك من كان دون البلوغ من ذكر وأنثى .

٢. الشيوخ : ويقصد بذلك من كان فوق الخمسين من العمر .

٣. الشبان : ويعني بهم من كان دون الثلاثين من العمر ، وقد عبر عنهم بالأحداث .

٤. الأشداء : وهم من بلغوا أشدهم ، أي ما بين الثلاثين والخمسين ، وقد عبر عنهم بـ«من بلغ عنفوان التشييخ» .

ثم قسمهم بتقسيم آخر إلى أغنياء وفقراء . فهذه ستة أقسام نفصلها على التوالي، كما جاءت في الشفاء .

---

١ ـ الشفاء ، قسم الخطابة ، مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

ـ الغلمان :

«الغلمان هم سريعو التقلب والتبدل ويغلب عليهم الملال . يشتهون بإفراط ، ويملون بسرعة . ويسرع إليهم الغضب ، ويشتد فيهم ، وخصوصاً لحبهم الكرامة ، فلا يحتملون الضيم . وتفرط فيهم محبتهم للكرامة ، ومحبتهم للغلبة ، ميلاً منهم إلى النباهة والعلو . وحبهم لذلك أشد من حبهم للمال ، بل ميلهم للمال ميل يسير، فإنهم لم يقاسوا الحاجة ، ولا كابدوا الفاقة .

ومن طباعهم سرعة التصديق بما يرتمي إليهم ، من حسن الظن وقلة الارتياب، وفسحة الأمل . وكل ذلك تبع لمزاجهم الحار . ولذلك لا يجورون ، ولا ينهزمون، ويرجون العيش بالأمل .

ولحسن حظهم يسهل انخداعهم . وكذلك الشجعان . ولهذا يشتركان في سرعة الغضب ، فهما حسنا الظن سريعا الغضب . وحسن الظن يزيل الجزع .

وقد يغلب على الأحداث الحياء . لأنهم لم يندفعوا بعد في الفواحش الموقحة، وبقوا على الفطرة . وهم متهمون لأنفسهم استقصاراً لها في المعرفة والخبرة ، ويتبع حسن ظنهم كبر أنفسهم . ولا يقدرون أنهم سيفتقرون ، إذ لم يقاسوا الضراء بعد ، ولهذا لم تتوجه هممهم إلى العظائم ، وتجسم في أنفسهم الأماني .

وميلهم إلى النافع الذي عرفوه أكثر من ميلهم إلى الجميل الذي لم يألفوه ، وإنما فكرهم وهواجس نفوسهم موقوفة على الأنفع ، فأنهم إنما عرفوا من الخير النافع الذي عندهم بحسب سنهم ، وكأنه اللذة وما يجري معها ، والفكر المبني

على الفطرة . وهذه الفكرة إنما تجذب إلى النافع ، وأما الجاذب إلى الجميل فهو الفضيلة لا الفطرة » .

ونستفيد من ذلك أن إقناع الغلمان من السهولة بمكان . فلا يحتاج الخطيب إلى كثير عناء في حملهم على الإذعان بما يقول ، خصوصاً في مجال التعبئة العقائدية وما يتضمن عنفواناً ، وحماساً ، وتشويقاً .

ـ الشبان :

«وأما الأحداث فشديدو المحبة لذويهم وإخوانهم وأترابهم ، وذلك لأنهم نشيطون يحبون السرور ، والسرور إنما يتم بالصحة والمعاشرة معاً . وليس غرضهم فيما يؤثرونه المنفعة الحقيقية ، بل المنفعة المؤدية إلى اللذة ، ولذلك صداقتهم للذة ، لا للمنفعة في المصالح العقلية ، فلذلك يحبون الأصدقاء ليلتذوا بهم . وخطأهم في إتيان نافعهم ، وفي كل شيء ، أعظم من خطأ الشيوخ في مثله ، لأنهم مفرطون ، لا يتوسطون ، والإفراط مغلطة . ومن شدة إفراطهم ظنهم بأنفسهم البصر بكل شيء .

ومن سجاياهم ركوب الظلم الجهار ، وإن عاد عليهم بالعيب والخزي ، لأنهم مائلون بالطبع إلى سوء الفعال ، لأنهم بالطبع شديدو الغضب ، قليلو الخوف . ومع ذلك فقد تغلب عليهم الرحمة لتصديقهم المتظلم المتعرف بالخير . وهم لقلة جريرتهم مناصبون للأشرار المكرة . وهم محبون للهزل والمزاح ، لحب الفرح والسرور . ولضعف الرويّة التي إذا قويت وقفت الهمة على الجد ».

ونستفيد مما تقدم أن الشبان ، لما كانوا يظنون بأنفسهم البصيرة بكل شيء ،

كان إقناعهم أصعب من إقناع الغلمان . ولا بُدَّ من تضمين الخطبة شيئاً من المزاح والمطايبات ، لأن ذلك يقع في نفوسهم موقعاً حسناً ، ويرتاحون له كما تقدم .

ـ الشيوخ :

وإنما قدمنا البحث عن الشيوخ على البحث عن الأشداء ، كما فعل المصنف ، لأن معرفة الأشداء تتضح أكثر بعد معرفة الشيوخ . وقد قال عنهم :

«وأما المشايخ فأكثر أخلاقهم ضد أخلاق هؤلاء ـ أي الشبان والغلمان ـ فإن أخلاقهم سخيفة ، ومع ذلك شكسة . ولا تذعن لأحد لكثرة ما جربوا ، وكثرة ما جرى عليهم من الخديعة والغلط ، ثم تنبهوا له ، وكثرة ما خاضوا فيه من الشرور ، وقصدوا منها .

ومن أخلاقهم أنهم لا يحكمون بشيء من الأشياء بحكم جزم البتة . وإن حكموا حكموا به على ما جربوه . وكل شيء عندهم في حكم ما سلف ، أو لا حكم له أصلاً . وكأنه على كثرة تجربتهم ، لم يجربوا شيئاً ، وذلك لشدة امترائهم فيما لا مثال له عندهم ، فكأنهم فيه أغمار[1] . ويقل اكتراثهم بالمحمدة والمذمة .

وإذا حدثوا عن أمر في المستقبل ، حدثوا عنه مرتابين ، يعلقون ألفاظهم بـ«عسى» ، و«لعل» . وأخلاقهم سيئة لسوء ظنهم . وليس من عادتهم الغلو ولاءً ، أو بغضاً ، إلا من الأشياء المضطر إليها . وتراهم في محبتهم كالمبغضين ، وفي بغضهم كالمحبين . وهم صغار الأنفس ، متهاونون ، لا يقتفون أثر العزم المصمم ،

---

١ ـ الأغمار : جمع غمر ، وهو أصغر الأقداح يقتسم القوم به الماء إذا قل في السفر ، بأن يلقوا فيه حصاة ، ويعطي كل منهم من الماء قدر ما يغمر الحصاة . راجع : المعجم الوسيط ، ج٢ ، ص ٦٦١ .

كأنهم قد يأسوا . فلذلك يضعف شوقهم إلى الأمور سوى ما يتعلق بالمعاش ، فهم حرصاء عليه ، خوفاً من إدراك الأجل . ولأجل ذلك لا تسمو أنفسهم إلى التكرم والمروءة ، ضنّاً بمتاع الدنيا . وقد أشعرتهم التجارب عسر الاقتناء ، وسوء عاقبة الإتلاف والإفناء ، والجبن يستولي عليهم . وهم حسنو الإنذار بما هو كائن ، لما استفادوا من التجارب .

وهم على خلاف الشبان في المعاني المحركة ، بل هم إلى السكون لبرد مزاجهم أقرب ، فلذا يجبنون ويخافون ، ولأجل الجبن والخوف يشتد حرصهم . وأيضاً لفرط حبهم للحياة ، بسبب إعراضها فيهم للزوال . وتسقط شهوتهم عن المناكح والمناظر ، لزوال حاجتهم فيها ، على أنهم يشتهون أيضاً ، وخصوصاً المآكل . ويميلون إلى العدل ، ويحبون الأئمة العادلة ، وذلك من جبنهم وضعفهم . فإن الميل إلى العدل هو لحب السلامة . وحب السلامة هو إما من الفضيلة ، وإما لصغر النفس ؛ فإن الفضيلة تحث عليه ، وصغر النفس أيضاً يوجبه . فمن ليس توجبه فيه الفضيلة ، فليس شيء يوجبه إلا صغر النفس .

ويؤثرون النافع ولا يؤثرون الجميل . وكل ذلك لمحبتهم لأنفسهم . فإن محب نفسه يميل إلى النافع ، لا إلى الجميل . فإن النافع بحسب نفس الإنسان ، والجميل بحسب غيره .

وهم أوقاح ، لا يستحيون ، لأنهم ليس لهم كل الميل إلى الجميل ، بل ميلهم موقوف على جهة النافع ، فلذلك يتهاونون بالجميل .

ومن أخلاقهم قلة التأميل ، إذ وجدوا الإخفاق في العالم أكثر من الإنجاح .

والتجربة تتبع الأكثر ، والاعتقاد فيهم يتبع التجربة . ولهم بدل الالتذاذ بالتأميل ، الالتذاذ بالتذكير . ولقلة تأميلهم ، يكثر جبنهم . وغضبهم حديد ، ضعيف . أما الحدة فلسرعة الانفعال ، كأنهم مساقون ، وأما الضعف فلضعف النحيزة [1] .

وشهواتهم مضمحلة ، أو منكسرة . وشوقهم إلى النافع دون اللذيذ ، ولذلك يظن بهم أنهم أعفاء ، وهم أعفاء ضرورة ، لا أعفاء فضيلة . وتقل رغبتهم في طلب الفضل والفائدة استقصاراً لمدة الحياة . وعادتهم الترائي بأخلاق الصالحين ، وإن كان ما يفعلونه لأغراض وأفكار . فإنهم إذا تراءوا بالصلاح ، طلبوا بذلك منفعة ما ، لكنهم لا يعترفون له . وهم طلابون جداً لكسب المنافع ، ولكن على سبيل الأرب والخب[2] والمكر ، لا علي سبيل المجاهرة . وهم مع ذلك صبراء على الأذيات ، غير قلقين . وليسوا بمهزالين ، لأن الهزال مناف للجد ، مباين للصبر » .

ومن هذا نستخلص أن إقناع الشيوخ من الصعوبة بمكان ، لاعتدادهم بما علموه من تجاربهم ، ما يجعل تغيير قناعاتهم أشبه بالمحال . لذلك لا بُدَّ للخطيب أن يستفيد من نقاط ضعفهم التي تقدمت الإشارة إليها . أو أن يظهر الأمر الذي يطرحه بأنه عادل ، أو أنه نافع ، فإنهم يحبون العدل والمنفعة كما مر .

ـ الأشداء :

«وأما الذين في عنفوان التشييخ ، وهم الذين بلغوا أشدهم ، ولم ينحطوا ،

---

١ ـ النحيزة هي الطبيعة . يُقال كريم النحيزة أي كريم الطبع . راجع : المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ٩٠٦ . والمراد ضعف طباعهم .

٢ ـ الأرب يعني الغرض والحاجة. والخب يعني الخداع. راجع: لسان العرب، ج١، ص ١٠٨، وج ١، ص١٤٢ .

فأخلاقهم متوسطة بين الخلقين المذكورين ـ أي الشبان والشيوخ ـ بين الشجاعة التهورية والجبن ، وبين التصديق بكل شيء . بل هم في الشجاعة على ما ينبغي ، وفي التصديق على ما ينبغي ، وهممهم مازجة للنافع بالجميل ، وللجد بالهزل . فهم أعفاء مع شجاعة . وأما الأحداث فشجعان مع نهم . كما أن الشيوخ جبناء مع عفاف . ومبدأ هذه السن من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ، واستكمالا إلى الخمسين » .

وعلى هذا يكون الأشداء رمز الجمهور المناسب لإلقاء الخطب فيه ؛ فإن الخطيب الجيد هو الذي يبرز بين هذا الجمهور ، ويستطيع التأثير عليهم ، لأنهم متوسطون في أمورهم ، فلا يعطون الخطيب أكثر من حقه ، فيبالغوا فيه ، ولا يجحفون به ، فيبخسوه حقه ، كما هو شأن الشيوخ .

ـ الأغنياء :

«وأما أخلاق الأغنياء ، فالتسلط والاستخفاف بالناس ، والإقدام على شتيمتهم، وعظم الاعتقاد في نفوسهم ، وكأنهم فائزون بكل خير ، يلاحظون كلاً بالتملك والاستعباد . فهم مترفون بالنعمة ، وصلفون بحسب الحال . وهم محبون للثناء ، مشترون للمدح لكثرة ما اعتادوهما ، ومن عادتهم أن يستحسدوا كل إنسان ، فيرون كل إنسان يحسدهم على حظهم . ولذلك جعل بعضهم من فضائل الحكمة أن الحكيم لاحتياجه إلى الأغنياء ، ومقاساته الفقر ، يكون بصيراً بالأحوال ، غير سيء الظن بالناس ، ولا مسيئاً إليهم بحكم التسلط . وإساءة الأغنياء تغلّب عليهم ضعف الرويّة لقلة الحاجة منهم إليها . وتشاكل كل شمائلهم شمائل النساء . إلا

أن الذي له قدمٌ في الغنى أنبل من المستحدث الذي قد قاسى قبله الهوان ، ورسخ فيه صغر النفس .

والأغنياء يشبهون الأحداث في المجاهرة بالظلم من غير مبالاة . كأن المال وقاية لهم من كل آفة . وتقوى فيهم الأخلاق المائلة إلى جهة القوة . والأخلاق المائلة إلى جهة القوة منها ما هو أخس ، وهي التي تصرف فضل القوة إلى الازدياد في الاقتناء ، ومنها ما هو أنبل مثل محبة طلب الفضيلة . فإن من كان منهم أعلى همة ، صرف قوته إلى الفضيلة . وهؤلاء هم المحبون للفضيلة والكرامة . ويترفعون عن أن يتكبروا بتكلف ، فلذلك لا يرون لأنفسهم حاجة إلى الكبر . فيكونون متواضعين حسني الأشكال في العشيرة . لا يسعون للظلم الحقير . فإن ظلموا ظلموا في كثير» .

ونستفيد مما قدمه الشيخ الرئيس أن إقناع الأغنياء يصبح أسهل إذا ألقيت إليهم الفكرة بعد نفخهم بشيء من المدح والثناء ، وإثارة رغبتهم في الفضيلة ، أو تشويقهم بالاقتناء ، وما شابه ذلك مما يمكن معه الاستفادة من نقاط ضعفهم .

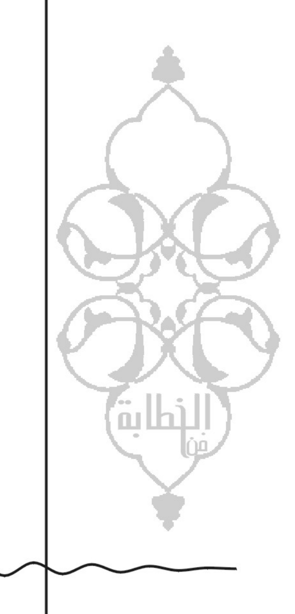
ـ الفقراء :

يمكن معرفة أخلاق الفقراء مما تقدم من أخلاق الأغنياء ، لأنهما ضدان ، أحدهما يظهر الآخر ، فلا لزوم للتكرار . نعم لا بُدَّ من الإشارة إلى أن الفقراء يكونون عادة أقرب إلى الله ، فيسهل مخاطبتهم بمنطق الدين ، وإثارة رغبتهم بما عند الله من غنى ونعيم ، وان ذلك يُحاز بالطاعة ، والسيرة الحسنة .

ومن كل ما تقدم نستخلص أن ذوق المخاطب بوصلة الخطيب التي توجهه

في كل المراحل ، ولا يمكن للخطيب أن يهملها إذ لا يمكنه إقناع المخاطبين دون تناغم بينه وبينهم ، ولا يحصل هذا التناغم إلا إذا عرف الخطيب أذواقهم ، وراعاها . فبعد أن يدرك الخطيب مشرب المخاطب ومذاقه يهيئ له الوجبة التي تسيل لعابه ، مبعداً عنها كل ما يثير اشمئزازه وتقززه ، ويحصل بذلك على إقبال مهم ، واستعداد حسن لتقبل أفكاره وتبنيها على حسب ما يريد ويرغب .

تطبيقات



بعد أن استعرضنا أركان الخطابة الثلاثة ، وتعرفنا من خلالها على القواعد الخطابية التي تعتمد عليها كل خطبة كان لا بُدَّ من تطبيقها على بعض الخطب التي برزت عند العرب محققة هدفها ، مقنعة سامعها ، كي تكون لنا بمثابة نموذج يقلد ، ومثال يحتذى .

ولكي لا نطيل البحث على القارئ العزيز ، اخترنا خطبتين ثِنتين من أشهر الخطب التي أورد لها التاريخ ذكراً ، وحفظ لها عهداً ، واحدة في استنهاض الهمم على التقوى وفعل الخير ، والأخرى في استنهاضها على الحرب والقتال ، وقد بلغت الأولى حداً حملت معه النفوس إلى أقرب درجة للخالق ، فحلقت في فضاء عبادته ، وأناخت في فناء عفوه ورحمته ، فبعضهم صبر على اشتياقه لما عند الله من الثواب ، وبعضهم لم يتمالك نفسه ، ففارقته إلى باريها مستعجلة رضوانه ، وفسيح جناته كما حصل لـ"همام" ، وهو يستمع إلى خطبة المتقين من فم سيد المتقين علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

والأُخرى بلغت حداً جعلت الموت في سبيل الله أول الأماني ، والشهادة في ساحة الجهاد في سبيله أكبر المكاسب ، فغيرت تلك الخطبة معادلة كانت محكمة ، وجعلت النصر حليف قوم ضعاف قلائل ، والهزيمة نصيب جيوش

تموج وتتلاطم ، ومعهم من السلاح والعتاد ما لا يقوى على مواجهته إلا من باع روحه لله ، وكان الموت عنده ألذ من الحياة ، كما حصل مع الجنود المسلمين الذين استمعوا إلى خطبة قائدهم طارق بن زياد في فتح الأندلس . فأورى فيهم زناد الشجاعة ، وأشعل فيهم نار البسالة بكلماته تلك التي لا تزال تتردد أصداؤها عبر السنين .

وإليك أولاً خطبة المتقين :

خطبة المتقين

جاء في نهج البلاغة أن صاحباً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يُقال له «همام» كان رجلاً عابداً ، فقال لـه : يا أمير المؤمنين ، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم . فتثاقل (عليه السلام) عن جوابه ، ثم قال : «اتق الله ، وأحسن ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» . فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي (صلى الله عليه وآله) ، ثم قال (عليه السلام) :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ .

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاْقْتِصَادُ[1]، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ[2] عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ،

١ ـ ملبسهمُ الاقتصادُ: يلبسون الثياب بين بين، لا هي بالثمينة جداً ولا الرخيصة جداً.
٢ ـ غَضّوا أبصارهم: خفضوها وغمضوها.

وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ[1].

لَولاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إلى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ .

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ .

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ .

صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ[2]، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم. أَرَادَتْهُمُ الْدُّنْيَا ، وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ ، فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ، يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً[3]، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ[4] بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ . فَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإذا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ[5]

١ ـ نزّلت أنفسهم منهم بالبَلاء: أي أنهم إذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل في الله، كأنهم كانوا في رخاء ، لا يجزعون ولا يَهِنون، وإذا كانوا في رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة، كأنهم في بلاء لا يبطرون ولا يتجبّرون.

٢ ـ أرْبحت التجارة: أفادت ربحاً.

٣ ـ الترتيل: التبيين والإيضاح.

٤ ـ استثار الساكنَ: هيّجه، وقارئ القرآن يستثير به الفكر الماحي للجهل.

٥ ـ زَفِير النار: صوت توقّدها.

جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا[1] فِـي أُصُـولِ آذَانِهِـمْ، فَهُـمْ حَـانُونَ عَلَـى أَوْسَـاطِهِمْ[2]، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ[3] وَأَكُفِّهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إلى اللهِ فِي فَكَـاكِ رِقَابِهِمْ[4].

وَأَمَا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَـاءُ، أَبْـرَارٌ أَتْقِيَـاءُ، قَـدْ بَـرَاهُمْ الْخَـوْفُ بَـرْيَ الْقِدَاحِ[5]، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَـى، وَمَـا بِـالْقَوْمِ مِـنْ مَـرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا[6]! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! .

لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَـسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيـرَ، فَهُـمْ لأَنْفُـسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ[7].

إذا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ[8] خَافَ مِمَّا يُقال لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَـمُ بِنَفْـسِي مِـنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَـا يَقُولُـونَ، وَاجْعَلْنِـي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ .

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين، وَإِيمَانـاً

---

١ ـ شهيق النار: الشديد من زفيرها كأنه تردد البكاء.
٢ ـ حانُون على أوساطهم من حَنَيْتَ العودَ: عَطَفْتَه، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة.
٣ ـ مُفترِشُون لجباههم: باسطون لها على الأرض.
٤ ـ فكاك الرّقاب: خلاصها من العذاب .
٥ ـ القِداح ـ جمع قِدْح بالكسر ـ: وهو السهم قبل أن يُرَاش. وبَرَاه: نحَتَه، أي رقّق الخوف أجسامهم كما تُرَقَّق السهامُ بالنحت.
٦ ـ خُولط في عقله: ما زَجَهُ خَلَلٌ فيه، والأمر العظيم الذي خالط عقولهم هو الخوف الشديد من الله.
٧ ـ مشفقون: خائفون من التقصير.
٨ ـ زُكّيَ أحدهم: مدحه أحد الناس.

فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً[1] فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وَتَجَمُّلاً[2] فِي فَاقَة، وَصَبْراً فِي شِدَّة، وَطَلَباً فِي حَلاَل، وَنَشاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً[3] عَنْ طَمَع .

يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَل، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .

إِنِ اسْتَصْعَبَتْ[4] عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيما تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيما تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيما لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيما لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمَ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً[5] أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً[6] دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ .

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ .

إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

---

١ ـ قصداً : أي اقتصاداً .
٢ ـ التجمّل : التظاهر باليسر عند الفاقة والفقر .
٣ ـ التحرّج : عدّ الشيء حَرَجاً أي إثماً، أي تباعداً عن طمع .
٤ ـ استَصْعَبَتْ : لم تطاوعه .
٥ ـ مَنْزُوراً : قليلاً .
٦ ـ حَرِيزاً : حصيناً .

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ .

بَعِيداً فُحشُهُ[1]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ .

فِي الزَّلاَزِلِ[2] وَقُورٌ[3]، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ .

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ .

لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ[4]، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ .

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة .

أَتْعَبَ نفسه لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ .

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَباعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنَهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وَعَظَمَة، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْر وَخَدِيعَة» .

---

١ ـ الفُحْش: القبيح من القول.

٢ ـ في الزلازل: الشدائد المُرْعِدة.

٣ ـ الوَقُور: الذي لا يضطرب.

٤ ـ لا ينابز بالألقاب: لا يدعو أحداً باللقب الذي يكرهه ، ويشمئز منه.

قال : فصعق[1] همّام ، رحمه الله ، صعقةً كانت نفسُه فيها .

فقال أمير المؤمنين(عليه السلام): **أَمَا ، وَاللهِ ، لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ .**

ثُمَّ قَالَ: **هكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ البَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟ .**

فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ .

فقال(عليه السلام): **وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَل وَقْتاً لاَ يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لاَ يَتَجَاوَزُهُ، فَمَهْلاً، لاَ تعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!**[2] .

---

١ ـ صَعِقَ : غُشيَ عليه أو مات .

٢ ـ نهج البلاغة ، خطبة ١٩٣ .

تحليل وتطبيق

بعد تأمل هذه الخطبة العظيمة التي هي غاية في الإتقان والبلاغة يمكن لنا أن نلاحظ ما يلي :

ـ أولاً ـ التقسيم

إن الخطيب قد قسّم خطبته إلى :

١ـ مقدمة :

وقد تكلم فيها عن دور العبادة ، وأهميتها ، واستغناء الله عن طاعة العباد . وجعل ذلك تمهيداً للدخول في الكلام عن أوصاف المتقين ، ثم دلف إلى صلب الموضوع بذكر المتقين .

٢ـ عرض :

وقد أفاض وأجاد ، سلام الله عليه ، في استقصاء ما للمتقين من مواصفات تفصيلية قد لا يتمكن المرء من إحصائها ، ولو بعد جهد وتحضير وتفكير ، ثم

سكبها في قالب من الألفاظ البهية الفاتنة ، وصاغها بأسلوب أدبي بليغ ، متنقلاً بين ضرب وآخر من ضروب البيان متدرجاً من فكرة إلى فكرة ، شارحاً أحوالهم الجسدية ، ثم النفسية ، وأحوال مظهرهم الخارجي ، ثم وصف وضعهم الداخلي ، وفصَّل كيفية علاقتهم مع أنفسهم ، وبيّن الفرق بينها وبين العلاقة مع الناس ، ولم يهمل أية حركة وسكنة من حركاتهم وسكناتهم في ليلهم ونهارهم حتى أكلهم ونظراتهم وكلامهم ، وما إلى هنالك من خصوصيات لهؤلاء الفضلاء .

٣ـ الخاتمة :

ونلاحظ في هذه الخطبة عدم وجود الخاتمة ، ولعل صعقة همام قطعت كلامه(عليه السلام) ، ولم تتركه يختم الخطبة ، فجاءت بلا خاتمة .

ـ ثانياً ـ مراعاة القواعد

نلاحظ أن الخطيب قد طبَّق عدداً من القواعد التي تكلمنا عنها مفصلاً في الكتاب ، نذكر منها :

أ. ذكر الأقسام واستعراضها مع ذكر أحكامها في العرض ، حيث قسم ضمناً حياة المتقين إلى ليل ونهار ، وذكر أحوالهم في كل واحد منها . ثم قسّم المرء إلى جسم وروح ، وذكر أوصافه في الحالين ، وهكذا ترى أنه قد حاول أن يستقصي كل أحوالهم وأوصافهم ، وهذا هو المقصود بما قلناه من ذكر الأقسام وأحكامها .

ب. استفاد من الألفاظ التي تتناسب ونوعية الخطبة أي الخطبة الدينية التي

تحتوي على الوعظ والإرشاد مثل: طاعة، معصية ، حرام ، حلال ، بلاء ، رخاء ، ثواب ، عقاب ، نار ، جنة ، تشويق ، تخويف ، الشكر ، الذكر ، الصبر،... الخ .

ج. استعمل في الخطبة الكثير من الأساليب البلاغية البيانية منتقلاً من التشبيه إلى الاستعارة فالكناية ... وهكذا .

د. لا نرى في طي الخطبة أي نقص من ناحية اللغة نحواً وصرفاً وما شابه ذلك.

ه. الانتقال بين أنواع التعبير من الإخبار والإنشاء . فمع أن المطلوب هو الوصف ، والوصف لا يعدو الإخبار إلا أن الخطيب لم يرسل الكلام على صورة واحدة ، بل نراه تنقل بين ضروب الأخبار من جملة فعلية إلى اسمية ، ومن إيجاب إلى نفي ، ومن جملة بسيطة إلى مركبة ، ثم عرج قليلاً على الإنشاء أيضاً للتنويع ، مثل :

«اللهم ، لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون » .

و. نرى أن الخطبة موشاة ومزدانة بأساليب البديع من جناس ، وطباق ، ومقابلة ، ونحو ذلك .

ـ ثالثاً ـ حضور الذهن

حيث ، وكما رأينا ، حاول بعض الحاضرين الإيقاع بالخطيب ، واتهامه بأنه

هو وراء موت «همام» ، وأنه إذا كانت المواعظ هكذا تفعل بأهلها فلماذا لم تمت أنت؟ فكان الخطيب حاضر الذهن ، سريع الجواب ، يؤنبه على ما بدر منه ، ويبيّن له أن الأعمار بيد الله ، وأن الآجال لها وقتها المعلوم ، وأن ما قاله هذا القائل لم يكن إلا نفثة شيطان .

ـ رابعاً ـ هدف الخطبة

إن الهدف في إلقاء الخطب كما ذكرنا سابقاً هو الإقناع ، وأعلى مراتب الاقتناع التأثر إلى درجة الموت ، كما حصل مع همام ، ولا أظن على الإطلاق أنه يمكن لخطيب مهما بلغ شأنه ، وعلا قدره أن يبلغ ما بلغه سيّد البيان ، وملك المنابر عليّ(عليه السلام) .

هذا ، ولم يصل إلينا شيء عن طريقة الإلقاء ، وعما طبّقه الخطيب من قواعده من إشارات ، وحركات ، ونظرات ، وما يختص به مما لا ريب بأن له مزيد التأثير في المقام ، فضلاً عما يؤثره مشهد الخطيب بلباسه ، ومظهره الخارجي . ولا ريب أنه كان يمثل أفضل صورة عن المتقين الذين كان يصفهم بكل إتقان ، وقد مرّ معنا أن ذلك يؤثر في المستمع إلى أبعد الحدود .

خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير ، وكان والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك ، طمح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، وبعث مولاه طارق بن زياد على رأس جيش جله من البربر سنة ٩٢ هجري . فعبر بهم البحر ونمى خبره إلى «لذريق» ملك القوط ، فأقبل لمحاربته بجيش جرار . وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لقلتهم ، فأحرق السفن التي أقلتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل بالعودة . وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

أَيُّها النَاسُ ، أيْنَ المَفَرُّ ؟ البَحْرُ مِنْ ورائِكُمْ ، والعَدُو مِنْ أمامِكُمْ ، ولَيْسَ لَكُمْ ، وَالله ، إلا الصِدْقُ[1] وَالصَبْرُ . واعْلَمُوا أنَّكُمْ فِي هَذِه الجَزِيْرَةِ أَضْيَعَ مِنَ الأيْتَامِ فِي مَآدِبِ اللِئَامِ . وَقَدْ استَقْبَلَكُمْ عَدُوكُمْ بِجَيْشِهِ وَأَسْلِحَتِهِ ، وَأَقْوَاتُهُ مَوْفُورَةٌ ، وَأَنْتُمْ لا وِزْرَ لَكُمْ إلا سُيُوفُكُمْ ، وَلا أَقْوَاتَ إلا مَا

---

١ ـ أي الجد في القتال .

تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي عَدُوِّكُمْ . وَإِنْ امْتَدَّتْ بِكُمُ الأَيَّامُ على افْتِقَارِكُمْ ، وَلَمْ تُنْجِزُوا لَكُمْ أَمْراً ، ذَهَبَتْ رِيْحُكُمْ ، وَتَعَوَّدَتْ القُلُوْبُ مِنْ رُعْبِها مِنْكُمُ الْجُرْأَةَ عَلَيْكُمْ . فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ خِذْلانَ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ مِنْ أَمْرِكُمْ بِمُنَاجَزَةِ هَذَا الطَّاغِيَةِ ، فَقَدْ أَلْقَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِيْنَتُهُ الحَصِيْنَةُ .

وَإِنَّ انْتِهَازَ الفُرْصَةِ فِيْهِ لَمُمْكِنٌ إِنْ سَمَحْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ بِالْمَوْتِ . وَإِنِّي لَمْ أُحَذِّرْكُمْ أَمْراً أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ[1] ، وَلا حَمَلْتُكُمْ عَلَى خطَّةٍ أَرْخَصُ مَتَاعٍ فِيْهَا النُّفُوْسُ أَرْبَأُ[2] فِيْهَا بِنَفْسِي ، واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الأَشَقِّ قَلِيْلاً تَمَتَّعْتُمْ بِالأَرْفَهِ الأَلَذِّ طَوِيْلاً ، فَلا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي فِيْما حَظُّكُمْ فِيْهِ أَوْفَرُ مِنْ حَظِّي .

وَقَدْ بَلَغَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الجَزِيْرَةُ مِنَ الحُوْرِ الحِسَانِ مِنْ بَنَاتِ اليُوْنَانِ الرَّافِلاتِ[3] فِي الدُّرَرِ والمُرْجَانِ ، وَالحُلَلِ المَنْسُوْجَةِ بِالعِقْيَانِ[4] المَقْصُوْرَاتِ[5] فِي قُصُورِ المُلُوْكِ ذَوِيْ التِّيْجَانِ .

وَقَدْ انْتَخَبَكُمُ الوَلِيْدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ مِنَ الأَبْطَالِ عُزْبَاناً ، وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوْكِ هَذِهِ الجَزِيْرَةِ أَصْهَاراً وَأَخْتَاناً ، ثِقَةً مِنْهُ بِارْتِيَاحِكُمْ لِلطِّعَانِ ، وَاسْتِمَاحَكُمْ[6] بِمُجَالَدَةِ الأَبْطَالِ وَالفُرْسَانِ ، لِيَكُوْنَ حَظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللهِ

---

١ ـ النجوة : ما ارتفع من الأرض .
٢ ـ أي انتحي وأعلو .
٣ ـ الرافلة : من تبخترت وجرت ذيليها دلالاً .
٤ ـ أي الذهب .
٥ ـ أي المخبوءات .
٦ ـ أي جاد عليكم .

عَلَى إعْلاء كَلِمَتِهِ، وَإِظْهَارِ دِيْنِه بِهَذِهِ الجَزِيْرَةِ ، وَلِيَكُوْنَ مَغْنَمُهَا خَالِصاً لَكُـمْ مِنْ دُوْنِهِ ، وَمِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ سِوَاكُمْ ، وَاللهُ ، تَعَالَى ، وَلِيُّ إِنْجَاحِكُمْ عَلَـى مَا يَكُوْنُ لَكُمْ ذِكْرَاً فِي الدَّارَيْنِ .

واعْلَمُوا أَنِّي أَوْلُ مُجِيْبٍ إلى مَـا دَعَـوْتُكُمْ إليـه . وإِنِّـي عِنْـدَ مُلْتَقَـى الجَمْعَيْنِ حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاغِيَةِ الْقَوْمِ «لُذْرِيْقَ» ، فَقَاتِلُـهُ ، إنْ شَـاءَ اللهُ . فَاحْمِلُوا مَعِي . وَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ ، فَقَدْ كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ ، وَلَـنْ يَعُـوْزَكُمْ بَطَـلٌ عَاقِلٌ تَسْنُدُوْنَ أُمُوْرَكُمْ إليه ، وإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وُصُوْلِي إليه ، فَاخْلُفُوْنِي فِـي عَزِيْمَتِي هَذِهِ ، وَاحْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، فَاكْتَفُوا المُهِمَّ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الجَزِيْرَةِ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخْذَلُوْنَ[1] .

١ ـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، ج٥ ، ص ٣٢٠ . بتصرف يسير .

تحليل وتطبيق

إذا أعملنا النظر في هذه الخطبة الرائعة في بابها ، وطبقنا عليها ما تعلمناه من قواعد الخطابة التي مرت في مطاوي الكلام لاحظنا ما يلي :

ـ أولاً ـ التقسيم

إن الخطيب قد قسم خطبته أقساماً ثلاثة :

١ـ مقدمة :

وقد وضعهم من خلالها بالأجواء المحيطة بهم ، وموقعهم في هذه الجزيرة ، والخطر المحدق بهم . وقد بدأهم بما يثير ذهولهم "العدو أمامهم ، والبحر وراءهم" . إنها مقدمة رائعة كفيلة بأن تستنفر كل مشاعرهم ، وتستجمع كل قواهم وحواسهم للاستماع إلى كل حرف يقوله ، وكل كلمة ينطق بها ، فيحصل بذلك الخطيب على أهم أمر يحتاج إليه في الإقناع .

ولا يخفى هنا مدى ذكاء هذا القائد وحنكته ، حيث أحرق السفن ليقطع من قلوبهم كل أمل بالنجاة ، إن هم لم يصمدوا في هذه الحرب غير المتكافئة ، بل لا

بُدَّ أن ينتصروا لينجوا بأنفسهم .

٢ـ عرض :

جمع الخطيب في قلب الخطبة كل الأمور المهمة التي لا بُدَّ من قولها لهم ، مستفيداً من قدرته الخطابية ، ومن ألفاظ هي غاية في الروعة والجزالة والفخامة ، ومن استعمالات بلاغية نادرة ، وإليك عليها بعض الأمثلة :

١ ـ المعاني :

منها : تبيين مقدار قوة العدو ، ومدى ضعفهم من الناحية المادية ، وما بينهما من تفاوت في الإمكانيات ، ولذا لا بُدَّ في تعديل الكفة بقوة معنوية عالية ، واستبسال غير عادي كي يتمكنوا من النجاة أولاً ، ومن النصر ثانياً ، وأن المعين الوحيد لهم على ذلك هو سيوفهم .

ومنها ـ تبيين مساوئ الفشل ، وتخويفهم منها ، وأنه بالإضافة إلى الموت الذي سيصيبهم من جراء الهزيمة سوف يلحقهم العار الذي سيلحق من يتبقى منهم ، ويلحق المسلمين . وأنه ستزول هيبتهم من نفوس الناس ، فيتجرأ عليهم الصغير والكبير ، وهذا ما لا يقبله أي حرٍّ أبيٍّ النفس ، وإنما يفضل عليه الموت في ساحة المعركة بعز وشرف .

ومنها ـ تبيين نقاط الضعف عند العدو ، وأنه مع قدرته المادية ، فإن الظفر به ممكن ، حيث إنه بخروجه من المدينة المحصنة قد ساعدهم على نفسه ، ولم يبقَ إلا أن يجهزوا عليه بسيوفهم .

ومنها ـ أنه ساوى بين نفسه وبينهم ، وربط مصيره بمصيرهم ، وقد أحرز بذلك ضمانة أكيدة إذ زرع في نفوسهم تمام الجدية في تحديد المصير ، ونزع من أنفسهم كل أمل بالفرار والخلاص من الموت المحتوم بغير القتال المرير الذي يستنزل النصر به . ولا يخفى مدى الأثر الذي يتركه الشعور بصدق القائد فيما يقوله ، وما يؤثر على نفوس الجنود الشعور بمساواتهم مع قائدهم .

ومنها ـ زرع الأمل في نفوسهم بالنصر وترغيبهم في ما سيحققونه من مغانم ومكاسب في حال الخروج من المعركة منتصرين : حور حسان ، درر ومرجان ، قصور وتيجان ، وعز ومجد ... إلخ .

ولقد أفلح طارق بالتلويح إلى فرصة إشباع الغريزة الجنسية عندهم ، فلم ينسَ أن يذكرهم أنهم بمعظمهم عزبان ، آخذاً بوصف بنات الجزيرة الملاح اللواتي لا يوجد أمثالهن إلا في الجنة ، فاستعار الأوصاف القرآنية في بيان جمال بنات اليونان ، وأنه بالإمكان الوصول إليهن بمجرد حلول النصر ، أو الوصول إلى الحور الحقيقيات بمجرد الشهادة . ولا يخفى ما يتركه ذلك من أثر على عازب ذاق مرارة الجندية ، وعناء السفر ، أو على زوج صار له مدة طويلة تاركاً أهله منشغلاً بالسفر والمتاعب .

بكل بساطة ، لقد أقنعهم قائدهم بأن دواء دائهم أمامهم ، وفي متناول اليد ؛ للعازب امرأة ، وللفقير جواهر ، وللجائع أقوات ، وللخامل مجد وشهرة . هذا كله بالإضافة إلى رضى الله عنهم ، لما قدموه من جهاد في سبيله ، ورضى الخليفة لما قدموه بين يديه من تفانٍ وإخلاص ، وهذا معناه عز الدنيا والآخرة ، أي الدارين

كما ورد في الخطبة .

٢ـ الألفاظ :

منها : المفردات .

استعمل الخطيب مفردات متناسقة وجزلة ، لها الدور الكبير في اللعب بالمشاعر والأحاسيس من ترهيب وترغيب وما شابه ذلك ، ولها مدلولات خاصة في أذهانهم كجنود ، وإليك الإشارة إلى بعضها :

العدو ، البحر ، أمام ، وراء ، الصدق ، الصبر ، بجيشه ، أسلحته ، أقوات ، سيوف ، الرعب ، الجزاء ، خذلان ، مناجزة ، طاغية ، مدينة حصينة ، انتهاز الفرصة ، الموت ... إلخ .

واستعمل مفردات غاية في الرقة لها الأثر الكبير عليهم بما هم رجال عزبان ومنها :

«حور حسان» ، «رافلات» ، «درر ومرجان» ، «حلل منسوجة بالعقيان» ، «مقصورات» ، «قصور الملوك ذوي التيجان» ، «أصهار وأختان» ... الخ .

ومنها : التراكيب .

إن التراكيب التي استعملها الخطيب تنسجم إلى حد بعيد مع كل ما حولها في الخطبة من حيث البلاغة والفصاحة وبعد الأثر ، فمثلاً :

قوله : أضيع من الأيتام في مآدب اللئام .

وقوله: استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته .

وقوله: ولا وزر لكم إلا سيوفكم .

وقوله: ذهبت ريحكم .

وقوله: إن سمحتم لأنفسكم بالموت .

وقوله: صبرتم على الأشق قليلاً ، واستمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً .

وقوله: واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان .

وقوله: ولن يعوزكم بطل عاقل .

٣ـ خاتمة :

اقتصر في الخاتمة على إضفاء جو من التفاؤل بتصوير ما الذي سيحصل عند التقاء الجمعين ، وذلك على النحو التالي : يتقدم قائد المسلمين ، فيقتل قائد المشركين ، ثم يتم فتح الجزيرة ، ويحصل الجنود على كل ما يتمنونه ، ويحققون آمالهم .

ونلاحظ أن الخطيب حرص على أن تكون آخر عبارة يقولها هي «فتح الجزيرة» بقتل «لذريق» ، وخذلان جيوشه . كي تبقى الصورة في مخيلة أصحابه تحثهم على القتال بكل أمل وثقة .

ـ ثانياً ـ مراعاة القواعد

عمد الخطيب إلى عدة أمور تعتبر من مهمات قواعد الخطابة ، فاستفاد منها ، مثل :

أ. مدح المخاطب بما يتناسب معه حيث قال :

«وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عزباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان..» . . و«لن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه...» .

ب. اعتماد التقسيم واستغراق الأقسام بذكر أحكامها ، مثل :

تقسيم المكان إلى أمام ووراء ؛ الأول الموت من العدو ، والثاني الموت من الغرق في البحر .

تقسيم احتمالات موته إلى احتمالين ؛ إما قبل وصوله إلى رأس الأعداء ، والحكم هو أن يتولى قائدٌ آخرُ هذه المهمة ، وإما بعد قتله له ، فيكون بذلك قد أراحهم منه ، فلا يبقى أمامهم إلا دخول الجزيرة ، لأن الأعداء حينها يخذلون .

ج. هز مشاعر المستمعين في بداية الحديث لجلب انتباههم ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في الكلام عن المقدمة .

د. حسن الختام بترك ما يبقى في أذهانهم بعد انتهاء الخطبة ، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام عن الخاتمة .

ه. مراعاة كل الجوانب اللغوية من النحو ، والصرف ، والبلاغة ، والفصاحة ، ومراعاة الربط بين الجمل ، وإلى ما هنالك من أمور لغوية لا بُدَّ من مراعاتها .

و. تزيين الخطبة بمحسنات بديعية كالطباق في : «أمامكم ووراءكم» ،

والجناس في : «قليلاً وطويلاً » ، والسجع العفوي في قوله : «أضيع من الأيتام في مآدب اللئام» .

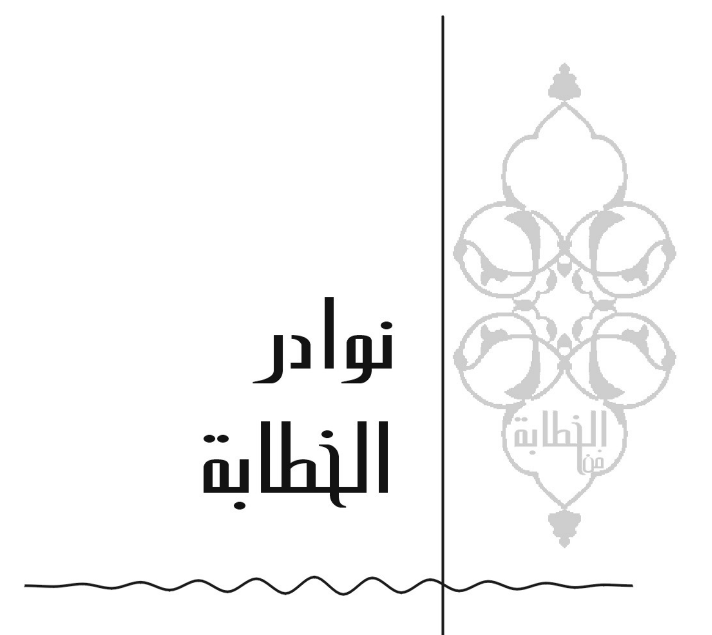
ز. ذكر ما يتناسب مع المخاطب من ناحية أعمالهم ، وجلهم من الشبان كما عبر ابن سينا، حيث حرك فيهم حب الفضائل كالمجد، والشهرة،والاشتهار بالشجاعة ، والإقدام ، والغريزة الجنسية بما ذكره من بنات اليونان .

ح. التنقل بين أطوار الإنشاء وأنواعه من استفهام ، إلى تعجب ، إلى الخبر بنوعيه ؛ الجمل الاسمية ، والجمل الفعلية .

وهكذا طبق الخطيب عدداً كبيراً من القواعد التي يمكن ملاحظتها من كلمات الخطبة ، ولا بُدَّ أنه طبَّق القواعد التي تهم الخطيب من وقوف متوتر ، وإشارات متناسقة ، وحركات مناسبة ، ونظرات حادة وموزعة ، مما لا يمكن رؤيته إلا للحاضرين ، وإنما يمكننا استنتاج ذلك من مدى تأثير الكلام على المستمع بدليل تحقيقهم لنصر لم يكن متوقعاً .

ـ ثالثاً ـ الالتزام بنوعية الخطاب

راعى الخطيب نوعية الخطابة المنوي الاستفادة منها ، ولم يخرج عن الموضوع ، أو يستطرد لما لا يتناسب مع الخطب العسكرية ، ولذا ترى الخطبة متماسكة ومنسجمة مع بعضها البعض إلى أبعد الحدود ، هذا فضلاً عن تضمينها شيئاً من الفن العسكري حين عرض خطته القتالية التي تقضي بالبدء برأس الأعداء ، ثم إكمال المسيرة حتى الفتح النهائي .



نوادر الخطابة

هناك قصص لطيفة وطريفة حصلت مع العديد من رواد المنابر ، ومع خطباء خانهم الحظ ، فأرتج عليهم الكلام ، فمنهم من بادر إلى إنقاذ نفسه بما لديه من قدرة خطابية ، ومهارة في حسن التخلص ، وعمد إلى إيراد كلام آخر لم يكن يريد قوله ، فجاء أفضل بكثير مما حضَّره ، وجهز نفسه له ، وأظهر بذلك قدرته الخطابية ، وتسلطه على المنبر ، ومهارته بالارتجال .

ومنهم من لم يستطع الخروج من هذا المأزق ، فبهرته أعين الناس الذين يحدقون فيه ، وينتظرون منه الكلام ، فخرج منه ما لا يريد قوله من كلمات طريفة ، أو عبارات سخيفة أضحكت الجمهور ، وغيرت مجرى حياته ، فغدا سخرية يُتندر بها في المجالس ، ويستطرف ذكرها في ليالي السمر .

ونحن بين هذا وذاك نحاول الاستفادة من أخطاء الآخرين كي لا نقع بما وقعوا فيها قبلنا ، ونعتبر بما نصحنا به تاريخ هؤلاء الخطباء العظماء بما يأخذ بأيدينا إلى الرقي والتقدم في هذا الفن الواسع المضمار . وإليك بعضها مما لم يرد ذكره في طيات الكتاب :

* صعد خالد بن عبد الله القسري يوماً المنبر بالبصرة ليخطب ، فأرتج عليه فقال :

أيها الناس ، أما بعد ، فإن هذا الكلام يجيء أحياناً ، ويعزب أحياناً . فيسيح عند مجيئه سيبه[1] ، ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى . فالتأني لمجيئه خير من التعاطي لآبيه ، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره، وقد يختلج من الجريء جنانه ، وينقطع من الذرب لسانه ، فلا يبطره ذلك، ولا يكسره. فسأعود فأقول ، إن شاء الله .

ثم نزل فما رئي أحد حصر أبلغ منه[2] .

* صعد أبو العنبس منبراً من منابر الطائف ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد ... » .

فأرتج عليه، فقال :

«أتدرون ما أريد أقول لكم؟».

قالوا : «لا » .

فقال: «فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم » .

ثم نزل . فلما كان في الجمعة الثانية ، فصعد المنبر قال :

«أما بعد... » .

فأرتج عليه.

فقال : «أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟» .

---

١ ـ أي عطاؤه .

٢ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣، ص ٣٥٢ .

قالوا: «نعم » .

فقال :«فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم ؟» .

ثم نزل . فلما كانت الجمعة الثالثة قال :

«أما بعد... » .

فارتج عليه .

قال :«أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟» .

قالوا «بعضنا يدري وبعضنا لا يدري » .

قال : «فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري »[1] .

* ولي رجل من بني هاشم يعرف بالدندان اليمامة ، فلما صعد المنبر أرتج عليه ، فقال :

«حيا الله هذه الوجوه ، وجعلني فداها . إني أمرت طائفي بالليل ألا يرى أحداً إلا أتاني به ، وإن كنت أنا هو » .

ثم نزل[2] .

* خطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم الأضحى، فأُرتج عليه ، فمكث ساعة، ثم قال :

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

«والله ، لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً ، من أخذ شاة من السوق ، فهي لـه ، وثمنها علي » .

قال الجاحظ : «فشق عليه حصره ، فقال له زياد :

«أيها الأمير ، إنك إن أقمت عامة من ترى أصابه أكثر مما أصابك »[١] .

❊ كان سعيد بن بهدل الكلبي والياً على قنسرين ، وهي كورة بالشام ، فوثب عليه ذفر بن الحارث ، فأخرجه منها ، فبايع لابن الزبير . فلما قعد ذفر على المنبر قال:

«الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر... » .

وحصر فضحك الناس من قوله[٢] .

❊ صعد عدي بن أرطأة، وكان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة ، المنبر ، فلما رأى جماعة الناس حصر ، فقال :

«الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم »[٣] .

❊ صعد روح بن حاتم المنبر، فلما رآهم شنفوا أبصارهم إليه ـ أي نظروا نظرة المتعجب أو الكاره ـ، وفتحوا أسماعهم نحوه حصر ، فقال :

«نكسوا رؤوسكم ، وغضوا أبصاركم ، فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يسر الله فتح قفل تيسر »[٤] .

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٣٥٣ .

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ المصدر السابق .

٤ ـ المصدر السابق . والبيان والتبيين ، مصدر سابق ج٢، ص ١٧٩ .

❊ كان عبد ربه اليشكري عاملاً لعيسى بن موسى ابن أخ المنصور وكان أمير الكوفة على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، فأرتج عليه ، فسكت ، ثم قال :

«والله ، إني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان ، فمحاها من صدري . ولقد كنت وما في الأيام أحب إلي من يوم الجمعة ، فصرت وما في الأيام أبغض إلي من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .[١]

❊ حدث عيسى بن عمر قال:

خطب أمير مرة فانقطع ، فخجل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا عليه ذلك ، ولفَّهم[٢] ، وفيهم يربوعي جلد ، فقال : اخطبوا .

فقام واحد منهم ، ومر في الخطبة حتى إذا بلغ «أما بعد » . قال :

«أما بعد ، أما بعد ، أما بعد ... » . ولم يدر ما يقول ، ثم قال :

«إن امرأتي طالق ثلاثاً . لم أرد أن أجمع[٣] اليوم ، فمنعتني » .

❊ وخطب آخر ، فلما بلغ «أما بعد ... » . بقي ينظر ، فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال :

لعنك الله ، ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً .

وقال آخر :

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .
٢ ـ أي جمعهم .
٣ ـ أي آتي للجمعة أو الجماعة .

«رأيت الفرافر[1] من السفن تجري بيني وبين الناس[2] .

فصعد اليربوعي ، فخطب ، فقال :

«أما بعد ، فوالله ، ما أدري ما أقول ، ولا فيما أقمتموني . أقول ماذا؟» .

فقال بعضهم : «قل في الزيت » .

فقال : «الزيت مبارك ، فكلوا منه ، وادهنوا » .

قال عيسى : فهو قول الشطار[3] إذا قيل : لما فعلت ذا ؟ فقل: في شأن الزيت ، وفي حال الزيت . من أجل التعتيم على ما قلت ، وما فعلت[4] .

* روى الجاحظ انه قيل لرجل من الوجوه : «قم فاصعد المنبر وتكلم » .

فلما صعد المنبر حصر ، فقال : «الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » .

وبقي ساكتاً ، فأنزلوه .

* وصعد آخر، فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة رجل ، فقال :

«اللهم ، العن هذه الصلعة »[5] .

* قيل لوازع اليشكري : قم ، فاصعد المنبر ، فتكلم .

---

١ ـ جمع فرفور كمعصفور وهي السفينة الطويلة .

٢ ـ كناية عن البعد عنهم .

٣ ـ جمع شاطر وهو الخبيث الفاجر .

٤ ـ المصدر السابق .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣٥٥ . والبيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٢، ص ١٨٠ .

فلما رأى جمع الناس قال :

«لولا أن امرأتي ، لعنها الله ، حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت، وأنا أشهدكم أنها طالق مني ثلاثاً »[1] .

❊ دعي أيوب بن القرية لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال :

قد طال السمر ، وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟.

أي اذهبوا عني . فأجابه فتى من عبد القيس ، فقال :

«قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ـ أي الندى ـ فلينطق من نطق»[2] .

❊ ورد في أمالي المرتضى أن بعض خلفاء بني العباس ، وأظنه الرشيد ، صعد المنبر ليخطب ، فسقط على وجهه ذبابة ، فطرحها ، فرجعت ، فحصر ، وأرتج عليه ، فقال :

«أعوذ بالله السميع العليم **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)** .

ثم نزل فاستحسن ذلك منه »[3] .

❊ صعد المنبر رجل أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قومه ، فقال :

---

١ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٣٥٥ .
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ أمالي المرتضى ، مصدر سابق ،ج٤ ، ص٢١ .

«أيها الناس ، إن لم ألف قارئاً طباً بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه . وما أساء القائل أبو البراجم حيث قال :

وما عاجلات الطير يدنين رشاداً ولا من ريثهن يخيب

ورب أمور لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتهن

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين

وفي الشك تفريط وفي ويخطي الفتى في حدسه

فقال رجل من كليب :

إن هذا المنبر لم ينصب للشعر ، بل لتحميد الله تعالى ، وليُصلى على النبي وآله(صلى الله عليه وآله) ، وللقرآن » .

فقال له : «أما لو أنشدتكم شعراً لرجل من كليب لسركم » .

فكتب إلى يزيد في ذلك ، فعزله ، وقال :

«قد كنت أراك جاهلاً أحمق ، ولم أصب أن الحمق يبلغ بك إلى هذا المبلغ».

فقال له : «أحمق مني من ولاني »[1] .

❊ خطب عتاب بن ورقاء فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول[2]

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ هذا من أبيات قالها عمر بن أبي ربيعة في شأن عمرة بنت نعمان بن بشير وكانت تحت المختار بن أبي عبيدة الثقفي فأخذها مصعب بعد قتله المختار ، وطلب إليها البراءة منه ، وحفر لها حفرة ، وألقيت فيها:

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرةٍ وعطبولِ

* خطب والي اليمامة فقال :

«إن الله لا يقار عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » .

فسمي «مقوِّم الناقة »[1] .

* صعد وكيع بن أبي الأسود المنبر في خراسان فقال :

«إن ربيعة لم تزل غضاباً على الله منذ أن بعث نبيه من مضر، ألا وان ربيعة قوم كشف ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها ، فان فرساً لم يطعن في منخره إلا كان أشد على فارسه من عدوه »[2] .

* خطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح ، فحصر ، فقال :

«لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله » .

فقالت أم الجارية : «عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك »[3] .

* خطب أمير المؤمنين الموالي ـ هكذا لقبه ـ خطبة نكاح ، فحصر ، فقال :

«اللهم ، إنا نحمدك ، ونستعينك ، ولا نشكرك »[4] .

* صعد عثمان بن عفان المنبر ، فأرتج عليه ، فقال :

---

١ ـ البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٧٠ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٧١ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
٤ ـ المصدر السابق .

«إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب »[1] .

❊ قال مولى لخالد بن صفوان : زوّجني أمتك فلانة . قال : قد زوجتكها .

قال : أفأُدخل الحي حتى يحضروا الخطبة؟ .

فقال: أدخلهم .

فلما دخلوا ابتدأ خالد ، فقال :

«أما بعد، فان الله أجل وأعز من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين، وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة »[2] .

❊ قال الهيثم : خطب قبيصة ، وهو خليفة أبيه على خراسان . وأتاه كتابه ، فقال :

«هذا كتاب الأمير، وهو ، والله ، أهل لأن أطيعه ، وهو أبي وأكبر مني »[3] .

❊ خطب عدي بن زياد الأيادي فقال :

«أقول كما قال العبد الصالح» : «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» .

قالوا له : «ليس هذا من قول عبد صالح إنما هو من قول فرعون» .

---

١ ـ المصدر السابق .
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

قال: «من قاله فقد أحسن »[1] .

❊ خطب يوماً عتاب بن ورقاء فقال :

«هذا كما قال الله تبارك وتعالى : "إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وكل ما هو آتٍ قريب » .

قالوا له : «إن هذا ليس من كتاب الله » .

قال : «ما ظننت إلا أنه من كتاب الله »[2] .

❊ روى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولى أخاه على المدينة ، ثم نزعه عنها ، وكان سبب عزله عنها أنه خطب الناس ، فقال :

«قد رأيت ما صنع الله بقوم في ناقة قيمتها خمس مائة درهم » .

وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : «إن هذا لهو التكلف »[3] .

❊ خطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتفاءل له عدوه بالشر ، واغتم صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه ، وقال :

«ليس الأمر على ما ظن العدو ، فخاف الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافرُ[4]

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
٢ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٣٥٨ .
٣ ـ المصدر السابق .
٤ ـ المصدر السابق ، ٣٥٩ .

❊ تكلم صعصعة عند معاوية ، فعرق ، فقال معاوية :

«بهرك القول » .

فقال صعصعة: «إن الجياد نضاحة بالماء »[1] .

❊ قال عبيد الله بن زياد بن أبيه :

«نعم الشيء الإمارة ، لولا قعقعة البريد ، والتشرف للخطب »[2] .

❊ كان خالد بن عبد الله القسري إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام لعذوبة لفظه ، وبلاغة منطقه ، فبينَ هو يخطب يوماً إذ وقعت جرادة على ثوبه ، فقال :

«سبحان مَن الجرادُ من خَلقه، أدمج قوائمها ، وطرفيها ، وجناحيها ، وسلطها على من هو أعظم منها »[3] .

❊ قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك المشيب .

فقال: «كيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين » .

أو قال : «شيبني صعود المنابر ، والخوف من اللحن »[4] .

❊ صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فارتج عليه ، فقال :

---

١ ـ المصدر السابق .
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ العقد الفريد ، مصدر سابق ج٣، ص ١٦٣ .
٤ ـ جمهرة خطب العرب ، مصدر سابق ، ج٣، ص ٣٥٦.

«إنما اللسان بضعة من الإنسان ، يكل إذا كل ، وينفسخ بانفساخه إذا انفسخ ، ونحن أمراء الكلام ، بنا تفرعت فروعه ، وعلينا تهدلت غصونه . ألا وإنا لا نتكلم هذاراً ، ولا نسكت إلا معتبرين » .

فبلغ ذلك أبا جعفر فقال :

«لله هو ، لو خطب بمثل ما اعتذر لكان من أخطب الناس »[1] .

❊ قيل : خطب معاوية بن أبي سفيان لما ولّي ، فحصر ، فقال :

«أيها الناس، إني كنت أعددت مقالاً أقوم به فيكم ، فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإني آمركم بما أمركم الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله ، واستغفر الله لي ولكم »[2] .

❊ صعد ثابت قطنة منبر سجستان ، فقال : الحمد لله .

ثم أُرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فإلا أكن فيكم خطيباً فإنني　　　بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس[3] .

❊ أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه ، فقال :

---

١ ـ أمالي المرتضى ، مصدر سابق ، ج٤ ، ص١٩ .
٢ ـ العقد الفريد ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٦٢ .
٣ ـ المصدر السابق .

«أيها الناس ، إن أول كل مركب صعب ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً ، إن شاء الله »[1] .

* خطب وكيع بن أبي الأسود ، وهو والي خراسان ، فقال في خطبته :

«إن الله خلق السماوت والأرض في ستة أشهر » .

فقالوا له: بل في ستة أيام .

فقال: «والله ، لقد قلتها وأنا استقلها »[2] .

* لما قدم يزيد بن أبي سفيان الشام والياً عليها لأبي بكر خطب الناس ، فأرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :

«يا أهل الشام ، عسى الله بأن يجعل بعد عسر يسراً ، وبعد عي بياناً ، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل... » .

ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص ، فاستحسنه[3] .

* ويروى أن خطيباً صعد المنبر وبدأ خطبته فقال :

«إذا جاء نصر الله والفتح... » .

فارتج عليه ، ولم يتذكر الباقي ، فبقي هكذا منتظراً ، فلم يتذكر ، فقال أحد

---

١ ـ المصدر السابق .
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ المصدر السابق .

الحاضرين ، وقد نفذ صبره : «وإذا لم يأت نبقى هنا إلى الليل» .

❊ خطب رجل خطبة نكاح وأعرابي حاضر ، فقال :

«الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، حي على الصلاة حي على الفلاح... » .

فقال الأعرابي : «لا تقم الصلاة ، فإني على غير وضوء »[1] .

---

١ ـ المصدر السابق .

كلمة أخيرة

أخي القارئ :

هذا تمام ما وفقنا الله لإيراده ، وغاية ما تمكنا من تقديمه بين يديك من هذا الفن الجليل ، فن الخطابة . وأود، وأنا ألوح لك بيدي مودعاً أن أهمس في أذنك فأقول :

قد لا يروق لك بعض ما ورد في هذا البحث ، أو ترى عيباً ما بين مطاويه ، أو نقصاً كان لا بُدَّ من إتمامه ، أو خطأ كان لا بُدَّ من تصحيحه ، أو ما شابه ذلك مما لا يكاد يخلو منه كتاب ، فأرجو منك الغض والمسامحة ، فإن الكمال لله وحده ، وعسى ألا تبخل بملاحظاتك القيمة .

وأنا أقلب الورقة الأخيرة من هذا الكتاب أحدث نفسي بأنه من غير الممكن أن يبخسني أخي القارئ ما لاقيته من تعب ، وما بذلته من جهد من أجل إخراج هذا البحث على هذه الصورة ، ووضعه بين يديه الكريمتين .

ولا أنسى توجيه الشكر لله أولاً ، ولكل الأخوة الأفاضل الذين شاركوا في

إخراجه ، وساهموا في تأمين مصادره ، والله أسأل القبول وحسن العاقبة .

﴿ *يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ* ﴾ .

الراجي عفو ربه

إبراهيم محمد البدوي

قم المقدسة

غرة شعبان ١٤١٠ للهجرة الشريفة

ثبت بمصادر الكتاب

١. القرآن الكريم ، كلام الله عز وجل .

٢. نهج البلاغة . كلام الإمام علي (عليه السلام) ، جمع الشريف الرضي .

٣. أصول فن الخطابة ، علي باشا صالح .

٤. أقرب الموارد ، الشرتوني ، مكتبة النجفي المرعشي ، قم .

٥. الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، أنيس الخوري المقدسي .

٦. الاحتجاج، الطبرسي، تحقيق محمد باقر الخرسان، دار النعمان، النجف الأشرف ،١٩٦٦ .

٧. الأغاني ، أبو الفرَج الأصبهاني .

٨. الأمالي، السيد المرتضى، تحقيق أحمد الشنقيطي، مكتبة النجفي المرعشي ، قم ، ١٩٠٧ ، ط. ١.

٩. البصائر والذخائر ، أبو حيان التوحيدي ، تحقيق د. وداد القاضي .

١٠. البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ، ، تحقيق حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٩٢٦ .

١١. الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد ، العلامة الحلي ، قم ، ط. حجرية.

١٢. الحيوان ، الجاحظ.

١٣. الخطابة العربية ، إحسان النص .

١٤. الخطابة ، أرسطو.

١٥. الخطابة ، أبو نصر الفارابي .

١٦. الخطابة ، الشيخ حسين جمعة .

١٧. الخطابة ، محمد أبو زهرة

١٨. الخطابة ، نقولا فياض .

١٩. الخطب والمواعظ ، مجموعة من الأساتذة .
٢٠. الديوان المنسوب للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).
٢١. السيرة النبوية ، ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٦.
٢٢. السيرة النبوية ، ابن هشام الحميري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦٣.
٢٣. الشفاء ، ابن سينا ، القاهرة ، ١٩٥٦٨ ، ط. أولى .
٢٤. العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي ، دار الهلال ، بيروت .
٢٥. الغارات ، إبراهيم بن محمد الثقفي ، تحقيق جلال الدين الحسيني ، مطابع بهمن ، قم.
٢٦. الغدير ، العلامة الأميني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ط. ٤ .
٢٧. الفايق في غريب الحديث ، جار الله الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ط.١.
٢٨. الفرج بعد الشدة ، القاضي التنوخي ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ، ١٩٧٨.
٢٩. الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف .
٣٠. الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ .
٣١. الكامل في اللغة والأدب ، أبو العباس المبرد .
٣٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير الجزري.
٣٣. المحاسن ، أحمد بن محمد بن خالد البرقي ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٧٠ هـ.
٣٤. المحاسن والأضداد الجاحظ .
٣٥. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، قم .
٣٦. المنطق ، الشيخ محمد رضا المظفر ، انتشارات الفيروزآبادي ، قم.
٣٧. الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطباطبائي ، منشورات جماعة المدرسين ، قم .
٣٨. النجاة ، ابن سينا ،المكتبة المرتضوية ، طهران ، ١٣٦٤ هـ. ش.
٣٩. النص والاجتهاد ، السيد عبد الحسين شرف الدين .

٤٠. الوافي بالوفيات ، خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
٤١. بحار الأنوار ، محمد باقر المجلسي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ط. ٣.
٤٢. بداية الحكمة ، العلامة محمد حسين الطباطبائي ، دار المصطفى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ط.٢.
٤٣. بلاغات النساء ، ابن طيفور ، مكتبة بصيرتي ، قم .
٤٤. بيان العرب الجديد ، لجنة من الأساتذة ، بيروت .
٤٥. تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت.
٤٦. تاريخ الحكماء ، القفطي .
٤٧. تاريخ دمشق الكبير ، ابن عساكر ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥.
٤٨. تحرير الوسيلة ، الإمام الخميني ، دار الكتب العلمية ، قم ، ١٣٩٠هـ. ط.٢.
٤٩. تلخيص الخطابة ، ابن رشد ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت.
٥٠. جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي صفوت ، مصر ، ١٣٥٢ هـ. ط. ١.
٥١. جواهر الأدب ،أحمد الهاشمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٥٢. خطباء صنعوا التاريخ ،أنور أحمد .
٥٣. خزانة الأدب ، البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ط. ١ .
٥٤. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد وفايز الداية،دار قتيبة،دمشق، ١٩٨٣.
٥٥. ديوان أوس بن حجر .
٥٦. سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، جمال الدين بن نباتة المصري ، ط. بولاق .
٥٧. شرائع الإسلام ، المحقق الحلي مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ط. ٣.
٥٨. شرح الصمدية ، صادق مهدي الحسيني ، مؤسسة الأعلمي ، كربلاء ، ١٣٨٥ هـ .
٥٩. شرح مختصر المعاني ، سعد الدين التفتازاني ، دار الفكر ، قم ، ١٤١١ ، ط. ١.
٦٠. صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أحمد بن علي القلقشندي .
٦١. طبقات الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢.

٦٢. عيون الأخبار ، ابن قتيبة الدينوري ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣.
٦٣. قصص العرب ، مجموعة مؤلفين ، منشورات الشريف الرضي ، قم ، ١٣٦٤ هـ ش.
٦٤. كيف تكتب بحثاً أو رسالة ، أحمد شلبي .
٦٥. لسان العرب، ابن منظور .
٦٦. مجمع الأمثال ،أحمد بن محمد النيسابوري الميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار القلم، بيروت .
٦٧. مجمع البيان في تفسير القرآن ، الفضل بن الحسن الطبرسي ، دار الأعلمي ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ط. ١ .
٦٨. مروج الذهب ، علي بن الحسين المسعودي ، دار الهجرة ، قم ، ١٩٨٤.
٦٩. معالي السبطين ، الحائري .
٧٠. معجم الأدباء ، ياقوت الحموي .
٧١. مفاتيح الجنان ، الشيخ عباس القمي .
٧٢. مفتاح الجنات ، السيد محسن الأمين ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط. ١.
٧٣. منهاج الصالحين ، السيد الخوئي نشر مدينة العلم ، قم ، ١٤١٠ هـ. ط. ٢٨ .
٧٤. وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، قم ، ١٤١٤ هـ. ط. ٢.
٧٥. وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان .

ملحق
بما يحسن للخطيب حفظه غيباً ليساعده على الارتجال

آيات قرآنية

﴿ وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ القلم ، آية ٤ .

﴿ وما أُبرِّيء ُ نفسي إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ إلا ما رحمَ ربي ﴾ يوسف ، آية٥٣ .

﴿ والفتنةُ أشدُّ منَ القتل ﴾ البقرة ، آية ١٩١ .

﴿ وكانَ الإنسان عجولا ﴾ الإسراء ، آية ١١ .

﴿ إنَّ المبذّرينَ كانوا إخوانَ الشياطين ﴾ الإسراء ، آية ٢٧ .

﴿ وقضى ربُّكَ ألا تعبدوا إلا إيَّاهُ وبالوالدَيْن إحسانا ، إمَّا يبلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كلاهُما فلا تقلْ لهُما أُفٍّ ولا تنْهَرْهُما وقلْ لهما قولاً كريما ﴾ الإسراء ، آية ٢٣ — ٢٤ .

﴿ إنَّا عرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يحمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها وحمَلَها الإنسان ، إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولا ﴾ الأحزاب ، آية ٧٢ .

﴿ ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخور، واقصِدْ في مَشْيِكَ واغضُضْ منْ صوتِكْ، إنَّ أنكَرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير ﴾ لقمان،آية ١٨.

﴿ ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالَّتي هي أحسنُ إلا الذينَ ظَلَموا منهُم ﴾

﴿ ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطها كُلَّ البسطِ فتقعُدَ ملوماً محسورا﴾

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا اجتِنبوا كثيراً منَ الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمْ ، ولا تجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضا ، أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ ميْتاً فكَرِهتُموه ، واتَّقوا الله ، إنَّ اللهَ توابٌ رحيم﴾الحجرات آية ١٢ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا يسخرْ قومٌ مِنْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهُمْ ولا نساءٌ مِنْ نساءٍ عسى أنْ يكُنَّ خيراً منهُن ، ولا تلمِزوا أنفُسَكُمْ ولا تنابَزوا بالألقاب ، بئسَ الإسمُ الفُسُوقُ بعدَ الإيمان ، ومَنْ لَّمْ يتُبْ فأُولئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ الحجرات، آية ١١ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا تُوبوا إلى الله توبَةً نَصوحاً ﴾ التحريم، آية ٨.

﴿ لا يُحبُّ اللهُ الجَهرَ بالسُّوءِ مِنَ القولِ إلا مَنْ ظُلِم ، وكانَ اللهُ سميعاً عليما ﴾ النساء ،آية ١٤٨.

﴿ فِبما رحمةٍ مِنَ الله لِنتَ لهُم ، ولو كُنتَ فظَّاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا مِنْ حولِك ﴾ آل عمران، آية ١٥٩.

﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بتحيَّةٍ فحَيُّوا بأحسَنَ منها أو رُدُّوها ﴾ النساء ،آية ٨٦.

﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ استقاموا فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هم يحزَنون﴾.

﴿ ومَنْ يرتَدِدْ مِنكُمْ عنْ دينهِ فَيَمُتْ وهو كافرٌ فأُولائِكَ حبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدنيا والآخرة ، وأُولائِكَ أصحابُ النَّار ، هم فيها خالِدون ﴾ البقرة ،آية ٢١٧.

﴿ اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النور ، والذينَ كفروا أولياؤهُمُ الطاغوتُ يُخرجونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمات،أُولائِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدون﴾ البقرة،آية ٢٥٧.

﴿ فإذا عزَمتَ فتوكَّلْ على الله، إنَّ اللهَ يُحبُّ المتوكّلين ﴾ آل عمران ، آية ١٥٩.

﴿ إنْ يَنْصُرُكُمُ اللهُ فلا غالِبَ لكُم ، وإنْ يخْذُلْكُمْ فمَنْ ذا الذي ينصُرُكُمْ مِنْ بعدِه ، وعلى الله فلْيتوَكَّل المؤمنون ﴾ آل عمران ، آية ١٦٠.

﴿ وإنْ جَنَحوا للسِلمِ فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على الله ، إنَّهُ هو السميعُ العليم ﴾ الأنفال ، آية ٦١.

﴿ قُلْ لَّنْ يُصيبَنا إلا ما كتَبَ اللهُ لنا هو مولانا ، وعلى الله فلْيتوكَّلِ المؤمنون ﴾ التوبة ، آية ٥١.

﴿ وقالَ يا بَنِيَّ لا تدخُلوا مِنْ بابٍ واحدٍ وادخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتفرِّقة ، وما أُغني عنكُمْ مِنَ الله مِنْ شيء ، إنِ الحُكمُ إلا لله ، عليهِ توكَّلت ، وعليهِ فليتوَكَّل المُتوَكِّلون ﴾ يوسف ، آية ٦٧.

﴿ قُضيَ الأمرُ الذي فيهِ تستَفتيان ﴾ يوسف ، آية ٤١.

﴿ وذا النونِ إذْ ذَهَبَ مغاضِباً فظنَّ أنْ لَّنْ نقدِرَ عليهِ فنادى في الظُلماتِ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَكَ إنِّي كُنتُ منَ الظالمين ، فاستجبنا لهُ ونجيناهُ منَ الغمِّ ، وكذلكَ ننجي المؤمنين ﴾ الأنبياء ، آية ٨٧-٨٨.

﴿ قالَ الذي عندَهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُك ، فلمَّا رآهُ مستقرَّاً عندَهُ قالَ هذا منْ فضلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأشكُرُ أم أكفر ، ومنْ شكَرَ فإنَّما يشكُرُ لنفسه ، ومَنْ

كفَرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم ﴾ النمل ، آية ٤٠ .

﴿ ولَقَدْ أرسَلنا نوحاً إلى قومِه ، فلبِثَ فيهِمْ ألف سنةٍ إلا خمسينَ عاماً فأخَذَهُمُ الطوفانُ وهمْ ظالمون ﴾ العنكبوت ، آية ١٤ .

﴿ وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سعى ، وأنَّ سَعيَهُ سوفَ يُرى ﴾النجم ، آية ٣٩ — ٤٠ .

﴿ ولا تقفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أُولئِكَ كانَ عنهُ مسؤولا ﴾ الإسراء ، آية ٣٦.

﴿ ونفسٍ وما سوَّاها ، فألهمَها فُجُورَها وتقواها ﴾ الشمس ، آية ٧-٨ .

﴿ ألمْ نجعلْ لهُ عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناهُ النجدين ﴾ البلد ، آية ٨-١٠ .

﴿ فَلْينظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِق ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِق ، يخرُجُ مِنْ بينِ الصُلبِ والترائِب ﴾ الطارق ، آية ٥-٧ .

﴿ الذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ في سبيلِ الله ثمَّ لا يُتبِعونَ ما أنفَقوا منّاً ولا أذى لهُمْ أجرُهُمْ عندَ ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهِمْ ولا هم يحزنون ﴾ البقرة ، آية ٢٦٢ .

﴿ ولا تُلقوا بأيديكُمْ إلى التَهْلُكة ﴾ البقرة ، آية ١٩٥ .

﴿ إنَّما التوبةُ على اللهِ لِلَّذينَ يعمَلونَ السوءَ بجهالَةٍ ثُمَّ يتوبونَ مِنْ قريبٍ فأُولَئِكَ يتوبُ اللهُ عليْهِم﴾.

﴿ إنَّ الأبرارَ لفي نعيم﴾

﴿ مَثَلُ الجنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غَيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِنْ لبَنٍ لمْ يتغيَّرْ طعمُه، وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لَذَّةٍ للشارِبينَ وأنهارٌ مِنْ عسلٍ مُصَفًّى ، ولهُمْ فيها مِنْ كُلِّ الثمراتِ ومغفِرةٌ مِنْ ربِّهِم ﴾ محمد ، آية ١٥ .

﴿ محمدٌ رسولُ الله ، والذين معهُ أشدَّآءُ على الكفارِ رُحمآءُ بينَهم﴾

﴿ كُتِبَ عليكُمُ القتالُ وهوَ كُرهٌ لكمْ ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهوَ شرٌ لكمْ ، واللهُ يعلمُ وأنتمْ لا تعلمون ﴾ البقرة ، آية ٢١٦ .

﴿ قاتلوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُمْ ويُخزِهِمْ وينصُرْكُمْ عليْهِمْ ويشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين ﴾ التوبة، آية ١٤.

﴿ وإنْ عُدتُّمْ عُدنا وجعَلْنا جهنَّمَ للكافرينَ حصيرا ﴾ الإسراء ، آية ٨.

﴿ قلْ لنْ يُصيبَنآ إلا ما كتَبَ اللهُ لنا ﴾

﴿قلْ هلْ تربَّصونَ بنآ إلا إحدى الحُسْنَيَيْن ﴾ التوبة آية ، ٥١-٥٢.

﴿ يأيُّها الذينَ آمنوا ما لكُمْ إذا قيلَ لكُمُ انفِروا في سبيلِ الله اثَّاقلتُمْ إلى الأرض ، أرَضيتُمْ بالحياةِ الدنيا منَ الآخرة، فما متاعُ الحياةِ الدُنيا في الآخرةِ إلا قليل ﴾ التوبة ، آية ٣٨.

﴿ إلا تنصُروهُ فقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخرَجَهُ الذينَ كفروا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغارِ إذْ يقولُ لِصاحِبِهِ ، لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معنا ، فأنزَلَ اللهُ سكينَتَهُ عليهِ وأيَّدَهُ بجنودٍ لمْ ترَوْها وجعَلَ كلمةَ الذينَ كفروا السُّفلى ، وكلمةُ اللهِ هيَ العُليا ، واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ التوبة ، آية ٤٠.

﴿ يأيُّها النبيُّ حرِّض المؤمنينَ على القِتال﴾

﴿ إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مُبينا ﴾ الفتح ، آية ١.

﴿ إنْ يَمسَسْكُمْ قرحٌ فقدْ مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه ، وتلكَ الأيَّامُ نُداولُها بينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الذينَ آمنوا ويتَّخذَ منكُمْ شهداء ، واللهُ لا يُحبُّ الظالمين ﴾ آل عمران ، آية ١٤٠.

﴿ الذينَ قالَ لهُمُ النَّاسُ إنَّ الناسَ قدْ جمعوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالوا حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ﴾ آل عمران ، آية ١٧٣.

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون ، كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تفعلون ، إنَّ اللهَ يُحبُّ الذينَ يُقاتلونَ في سبيلِهِ صفَّاً كأنَّهُمْ بُنيانٌ مَرْصوص ﴾ الصف ، آية ٢-٤.

﴿ إنَّ موعِدَهُمُ الصُبح ، أليسَ الصُبحُ بقريب ﴾ هود ، آية ٨١.

﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتْ ،فمَنْ فرَضَ فيهِنَّ الحجَّ فلا رفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجّ ولِلَّهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنْ استطاعَ إليه سبيلا ﴾.

﴿ ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ لهُ مخرجاً ، ويرزقهُ من حيثُ لا يحتسبُ ﴾ الطلاق ، آية ٢-٣.

﴿ قُلْ مَنْ حرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرَجَ لِعبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرزق ، قُلْ هي للَّذينَ آمنوا في الحياةِ

الدُنيا خالِصةً يومَ القِيامة ، كذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يعلَمون ﴾ الأعراف ، آية ٣٢ .

﴿ وما أتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ سورة الحشر ، آية ٧ .

﴿ وما ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى ﴾ سورة النجم ، آية ٣ .

﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوا اللهَ واليومَ الآخرَ ﴾ الأحزاب، آية ٢١.

﴿ وما محمَّدٌ إلا رسولٌ قدْ خَلَتْ منْ قبلِهِ الرُسُل ، أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبْتُمْ على أعقابِكُم، ومَنْ ينقلِبْ على عَقْبَيْهِ فلَنْ يضُرَّ اللهَ شيئاً ، وسيجزي اللهُ الشاكرين ﴾ آل عمران ، آية ١٤٤ .

﴿ فاستَقِمْ كما أُمرتَ ومَنْ تابَ معَكَ ولا تطغوا ، إنَّهُ بما تعملونَ بصير ﴾

﴿ ولا تَركَنوا إلى الذينَ ظلَموا فَتَمَسَّكُمُ النارُ ﴾ هود ، آية ١١٢-١١٣ .

﴿ ويسألونَكَ عن الروحِ قلِ الروحُ من أمرِ ربِّي وما أوتيتُم منَ العلمِ إلا قليلا﴾ الإسراء،آية٨٥ .

﴿ منَ المؤمنينَ رجالٌ صدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ ، فمنهُمْ منْ قضى نحبَهُ ، ومنهُمْ منْ ينتظر، وما بدَّلوا تبديلا﴾ الأحزاب ، آية ٢٣ .

﴿ إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنَّة ، يُقاتلونَ في سبيلِ الله فيقتُلُونَ ويُقتَلون ، وعداً عليهِ حقّاً في التوراةِ والإنجيل والقرآن ﴾ التوبة ، آية ١١١ .

﴿ ولا تحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ الله أمواتا ، بَلْ أحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرزَقون ، فرِحينَ بما أتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِه ، ويستبشِرونَ بالَّذينَ لمْ يلحَقوا بهِمْ مِنْ خلفِهِمْ ألَّا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزَنون ﴾ آل عمران ، آية ١٦٩-١٧٠ .

﴿ ولا تقولوا لِمَنْ يُقتَلُ في سبيلِ اللهِ أموات ، بلْ أحياءٌ ولكنْ لا تشعرون ﴾ البقرة ، آية ١٥٤ .

﴿ يأيتُها النفسُ المطمئنةُ ، ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنَّتي ﴾ الفجر، آية ٢٧-٣٠ .

﴿ منْ ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفَهُ لهُ أضعافاً كثيرة﴾-﴿ مثَلُ الذينَ يُنفقونَ أموالَهُمْ في سبيلِ الله كمثلِ حبَّةٍ أنبتَتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبلةٍ مئةُ حبَّة ، واللهُ يُضاعفُ لمنْ يشاء ، واللهُ واسعٌ عليم ﴾ البقرة ، آية ٢٦١ .

﴿ إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَفَةِ قلوبُهُمْ وفي الرقابِ والغارِمينَ وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السبيل ، فريضةً مِنَ الله ، واللهُ عليمٌ حكيم ﴾ التوبة ، آية ٦٠ .

﴿ يأيُّها الذينَ آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ ، إنَّ اللهَ معَ الصابرين ﴾ البقرة ، آية ١٥٣ .

﴿ إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ يُصلُّونَ على النبي، يأيُّها الذينَ آمنوا صلُّوا عليهِ وسلِّموا تسليما﴾ الأحزاب، آية ٥٦ .

﴿ ما سلَكَكُمْ في سَقَر ، قالوا لمْ نكُ منَ المصلِّين، ولم نكُ نُطعِمُ المسكين ﴾ المدثِّر ، آية ٤٢-٤٤.

﴿ واستعينوا بالصَّبرِ والصلاة ، وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشِعين ﴾ البقرة ، آية ٤٥ .

﴿ شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هدىً للناسِ وبيناتٍ من الهدى والفرقانْ ، فمَنْ شهِدَ مِنكُمُ الشهرَ فليَصُمه ﴾ البقرة ، آية ١٨٥ .

﴿ يأيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذينَ من قبلِكُمْ لعلَّكُمْ تتَّقون ﴾ البقرة ، آية ١٨٣ .

﴿ وكُلُوا واشربوا حتَّى يتبيَّنَ لكُمُ الخيطُ الأبيضُ منَ الخيطِ الأسودِ منَ الفجر، ثمَّ أتمُّوا الصيامَ إلى الليل﴾ البقرة ، آية ١٨٧ .

﴿ يؤتي الحكمةَ من يشاءُ ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيرا﴾ البقرة ، آية ٢٦٩ .

﴿ إنَّما يخشى اللهَ من عبادهِ العلماءُ ﴾ فاطر ، آية ٢٨ .

﴿ يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكُمْ والذينَ أُوتوا العلمَ درجات ، واللهُ بما تعملونَ خبير ﴾ المجادلة، آية ١١ .

﴿ وما كانَ المؤمنونَ لِينفِروا كافَّة ، فلو لا نفَرَ مِنْ كلِّ فِرقةٍ منهمْ طآئفةٌ لِيتَفَقَّهوا في الدين ولِيُنْذِروا قومَهُمْ إذا رَجَعوا إليهِمْ لعلَّهُمْ يحذَرون ﴾ التوبة ، آية ١٢٢ .

﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق ، خلقَ الإنسان مِنْ عَلَق ، اقرأ وربُّكَ الأكرم ، الذي علَّمَ بالقلم ، علَّمَ الإنسان ما لَمْ يعلم ﴾ العلق ، آية ١-٥ .

﴿ و قُلْ رَبِّ زِدني عِلما ﴾ طه ، آية ١١٤ .

﴿ ولله المشرِقُ والمغرِب ، فأينَما تُولُّوا فثمَّ وجهُ الله ، إنَّ اللهَ واسعٌ عليم ﴾ البقرة ، آية ١١٥ .

﴿ إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ ويُبشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهُمْ أجراً كبيرا﴾ سورة الإسراء ، آية ٩ .

﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا لهُ لحافظون ﴾ الحجر ، آية ٩ .

﴿ قلْ لئِن اجتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ، ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيرا ، ولَقَدْ صَرَّفنا للناسِ في هذا القرآنِ منْ كلِّ مثلٍ فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُورا ﴾ الإسراء ، آية ٨٨-٨٩ .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لَرأيتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشيةِ الله ، وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهُمْ يتفكَّرون ﴾ الحشر ، آية ٢١ .

﴿ وما يعلمُ تأويلَهُ ، إلا اللهُ والراسخونَ في العلم ﴾ آل عمران ،آية ٧ .

﴿ أفلا يتدبَّرونَ القرآن ، ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لَوَجدوا فيهِ اختِلافاً كثيرا ﴾ النساء،آية ٨٢ .

﴿ ما عندَكُمْ ينفَدُ وما عندَ الله باقٍ ﴾ النحل ، آية ٩٦ .

﴿ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ ﴾ المؤمنون ، آية ١٤ .

﴿ وإذا سألَكَ عبادي عنّي ، فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ ﴾ البقرة ، آية ١٨٦ .

﴿ إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ ، كنْ فيكون ﴾ يس ، آية ٨٢ .

﴿ يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبت ، وعندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ الرعد ، آية ٣٩ .

﴿ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسْألون ﴾الأنبياء ، آية ٢٣ .

﴿ لوْ كانَ فيهِما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا ﴾ الأنبياء ، آية ٢٢ .

﴿ كُلُّ مَنْ عليها فان ، ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام ﴾ الرحمن ، آية ٢٦-٢٧ . د

﴿ الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهمْ بذكرِ الله ألا بذكرِ الله تطمئنُ القلوبُ ﴾ الرعد ، آية ٢٨ .

﴿ الذينَ إذا أصابتهُمْ مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ﴾ البقرة ، آية ١٥٦ .

﴿ وعبادُ الرحمانِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سلاما ﴾ الفرقان ، آية ٦٣.

﴿ وقُلِ اعملوا فسيرى اللهُ عملَكُمْ ورسولُهُ والمؤمنون ﴾

﴿ واعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا ﴾ آل عمران ، آية ١٠٢-١٠٣ .

﴿ كُنتُمْ خيرَ أُمةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنهَونَ عنِ المُنكرِ ﴾ آل عمران آية ١١٠

﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلون ﴾ الأنفال ، آية ٢ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا مَنْ يَرتَدَّ مِنْكُمْ عنْ دينِه ، فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحبُّهُمْ ويُحبُّونَه ، أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ على الكافرينَ يُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومةَ لائِم ﴾ المائدة ، آية ٥٤ .

﴿ لا يستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أُولي الضررِ والمجاهدونَ في سبيلِ الله بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ ، فضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ على القاعدينَ درَجة ، وكُلّاً وَعَدَ اللهُ الحُسنى ، وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيما ﴾ النساء ، آية ٩٥ .

﴿ إنَّما يعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولمْ يخشَ إلا اللهَ ﴾ التوبة ، آية ١٨.

﴿لَمَسجِدٌ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أوَّلِ يومٍ أحقُّ أنْ تقومَ فيه ﴾

﴿أفَمَنْ أسَّسَ بنيانَهُ على تقوى مِنَ اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أمْ مَنْ أسَّسَ بنيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ بهِ في نارِ جهَنَّم ، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾ التوبة ، آية ١٠٨-١٠٩ .

﴿ وضرَبَ لنا مثلاً ونسيَ خلْقَه ، قالَ منْ يُحْيي العظامَ وهيَ رميم ، قلْ يُحْييها الذي أنشأها أوَّلَ مرَّة ، وهوَ بكُلِّ خَلْقٍ عليمْ ﴾ يس ، آية ٧٨ — ٧٩ .

﴿ يومَ نقولُ لجهنَّمَ هلِ امتلأتِ وتقولُ هلْ مِنْ مزيد ﴾ ق ، آية ٣٠ .

﴿ يأيُّها الذينَ آمنوا قُوا أنفُسَكُمْ وأهليكُمْ ناراً وَقُودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمَرون ﴾ التحريم ، آية ٦ .

﴿ ختم اللهُ على قلوبِهم وعلى سمعِهِم ، وعلى أبصارِهِم غشاوةٌ ، ولهم عذابٌ عظيم ﴾ البقرة ، آية ٧ .

﴿ في قلوبهم مرضٌ فزادهمُ اللهُ مرضاً ﴾ البقرة ، آية ١٠ .

﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتابِ لَتُفْسِدُنَّ في الأرضِ مرَّتين ولَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيرا ﴾ الإسراء ، آية ٤ .

﴿ يريدونَ أنْ يُطفِئُوا نورَ اللهِ بأفواهِهِمْ ويأبى اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نورَهُ ولو كرِهَ الكافرون ، هوَ الذي أرسَلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدينِ كُلِّه ، ولوْ كرِهَ المشركون ﴾ التوبة، آية ٣٢-٣٣ .

﴿ إنَّ اللهَ لا يغفِرُ أنْ يُشرَكَ به ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاء ﴾ النساء ، آية ١١٦ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكُمْ فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتُمْ نادِمين ﴾ الحجرات ، آية ٦ .

﴿ وجعلنا مِنْ بينِ أيديهِمْ سَدّاً ومِنْ خلفِهِمْ سَدّاً فأغشيناهُمْ فهُمْ لا يُبصرون ﴾ يس ، آية ٩ .

﴿ ويُطعِمونَ الطَّعامَ على حبِّهِ مِسكيناً ويتيماً و أسيرا ، إنَّما نطعمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نريدُ منكمْ جزآءً ولا شُكُورا ﴾ الإنسان ، آية ٨- ٩ .

﴿ إنَّما يريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكُمُ الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تطهيرا ﴾ الأحزاب ، آية ٣٣.

﴿ ونريدُ أنْ نمُنَّ على الذينَ استُضعِفوا في الأرضِ ونجْعلَهُمْ أئمَّةً ونجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ القصص ، آية ٥ .

﴿ ولقدْ كتَبْنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرِثُها عباديَ الصالحون ﴾الأنبياء ، آية ١٠٥.

﴿ إنَّما وليُّكُمُ اللهُ ورسُولُهُ والذينَ آمنوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ وهُمْ راكِعون ، ومَنْ يتولَّ اللهَ ورسولَهُ والذينَ آمنوا فإنَّ حزبَ اللهِ هُمُ الغالبون ﴾ المائدة ، آية ٥٥-٥٦ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ النساء ، آية ٥٩ .

﴿ إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنَّما يأكلونَ في بطونِهِمْ نارا ﴾ النساء ، آية ١٠ .

﴿ يسألونَكَ عنِ الخمرِ والميسِرِ ، قلْ فيهِما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثمُهُما أكبرُ من نفعِهِما ﴾

﴿ يأيُّها الذينَ آمنوا إذا تدايَنْتُمْ بدَينٍ إلى أجلٍ مُسمَّى فاكتُبُوه ، ولْيكتُبْ بينكُمْ كاتِبٌ بالعدلِ﴾

﴿ وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّمَ الربا ﴾ البقرة ، آية ٢٧٥ .

﴿ ويسألونَكَ عنِ المحيضِ قلْ هوَ أذىً فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ﴾ البقرة ، آية ٢٢٢ .

﴿ ولا تقرَبوا مالَ اليتيمِ إلا بالَّتي هيَ أحسَنُ حتَّى يبلُغَ أشُدَّه ، وأوفوا بالعهد ، إنَّ العهدَ كانَ مسؤولا ﴾ الإسراء ، آية ٣٤ .

﴿ يأيُّها النبيُّ قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنينَ يُدنينَ علَيْهِنَّ مِنْ جلابيبِهِنَّ ، ذلكَ أدنى أنْ يُعرَفْنَ فلا يؤذَيْنَ ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيما ﴾ الأحزاب ، آية ٥٩ .

﴿ إنَّما حرَّمَ عليكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ بهِ لغيرِ الله ، فمَنِ اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه ، إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ البقرة ، آية ١٧٣ .

﴿ وإذا الموْؤدةُ سُئِلَت ، بأيِّ ذنبٍ قُتِلَت ﴾ التكوير ، آية ٨-٩ .

﴿ ومَنْ يقتُلْ مؤمناً متعمِّداً فجزاؤهُ جهنَّمُ خالداً فيها وغضِبَ اللهُ عليهِ ولعَنَهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيما ﴾ النساء ، آية ٩٣ .

﴿ فأمَّا اليتيمَ فلا تقهَر ، وأمَّا السائِلَ فلا تنْهَر ، وأمَّا بنعمةِ ربِّكَ فحدِّث ﴾ الضحى ، آية ٩-١١.

﴿ وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ﴾ سورة البقرة ، آية ١٩٧ .

﴿ ولِباسُ التقوى ذلكَ خير ، ذلكَ مِنْ آياتِ اللهِ لعلَّهُمْ يذَّكَّرون ﴾ الأعراف ، آية ٢٦ .

﴿ يأيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئِلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكمْ عند اللهِ أتقاكمْ ، إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾ الحجرات ، آية ١١٣ .

﴿ من جآءَ بالحسنةِ فلهُ عشْرُ أمثالِها ﴾ الأنعام ، آية ١٦٠ .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا استعينوا بالصَّبرِ والصلاة ، إنَّ اللهَ معَ الصابرين ﴾ البقرة ، آية ١٥٣ .

﴿ وإذْ تأذَّنَ ربُّكُمْ لئنْ شكَرتُمْ لأزيدنَّكُمْ ، ولئنْ كفرتُمْ إنَّ عذابي لشديد ﴾ إبراهيم ، آية ٧ .

﴿ زُيِّنَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيل المسوَّمةِ والأنعامِ والحرْثِ ، ذلكَ متاعُ الحياةِ الدنيا ، واللهُ عندَهُ حُسْنُ المئاب ﴾ آل عمران ، آية ١٤ .

﴿ وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدنيا ﴾ القصص ، آية ٧٧ .

﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾ الكهف ، آية ٤٦ .

﴿ اعلَموا أنَّما الحياةُ الدُنيا لعِبٌ ولهْوٌ وزينَةٌ وتفاخُرٌ بينَكُمْ وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد ﴾

﴿ ولكم في القِصاصِ حياةٌ يا أُولي الألبابِ لعلَّكم تتقون ﴾ البقرة ، آية ١٧٩ .

﴿ اليومَ أكملتُ لكُمْ دينَكُمْ وأتممتُ عليكُمْ نعمَتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دينا ﴾ المائدة،آية٣

﴿ إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام ﴾ آل عمران ، آية ١٩ .

﴿ ومَنْ يبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلَنْ يُقبَلَ منهُ وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾ آل عمران آية ٨٥

﴿ ومنْ آياتِهِ أنْ خلَقَ لكمْ منْ أنفسِكُمْ أزواجاً لِتَسكُنُوا إليها وجعلَ بينكمْ مودَّةً ورحمة ﴾ الروم ، آية ٢١ .

﴿ وقلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ ، إنَّ الباطلَ كانَ زَهوقا ﴾ الإسراء ، آية ٨١ — ٨٢ .

﴿ لا يُكلّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها ، لها ما كسَبَتْ وعليها ما اكتسَبَتْ ﴾ البقرة ، آية ٢٨٦ .

﴿ ربَّنا لا تُزِغْ قلوبَنَا بعدَ إذْ هديتَنا وهَبْ لنا منْ لدُنْكَ رحمة ، إنَّكَ أنتَ الوهاب ﴾ آل عمران ، آية ٨ .

﴿ إنَّكَ لا تهدي مَنْ أحبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يهدي مَنْ يشاء ، وهوَ أعلمُ بالمُهتدين ﴾ القصص، آية ٥٦ .

﴿ إنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهمْ ﴾ الرعد ، آية ١١ .

﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت ، إنَّ اللهَ عليمٌ خبير ﴾ لقمان ، آية ٣٤ .

﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، ثمَّ إلينا تُرجَعون ﴾ العنكبوت ، آية ٥٧ .

﴿ سبحانَ الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً منَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركْنا حوْلَهُ لنُريَهُ منْ آياتِنا ، إنَّهُ هوَ السميعُ البصير ﴾ الإسراء ، آية ١ .

﴿ الذينَ يُبلّغونَ رسالاتِ اللهِ ويَخشَوْنَهُ و لا يَخشَوْنَ أحداً إلا الله ، وكفى باللهِ حسيبا ﴾ الأحزاب ، آية ٣٩ .

﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهمْ سلطانٌ إلا من اتبعكَ من الغاوينْ ﴾ الحجر، آية ٤٢ .

﴿ فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾ الحج ، آية ٤٦ .

﴿ ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفِه ﴾ الأحزاب ، آية ٤ .

﴿ ولا تزرُ وازِرةٌ وزرَ أُخرى ﴾ فاطر ، آية ١٨ .

﴿ فإنَّ معَ العُسرِ يسرا ، إنَّ معَ العُسرِ يسرا ﴾ الشرح ، آية ٥-٦ .

﴿ لقدْ كنتَ في غفلةٍ منْ هذا فكشفنا عنكَ غِطآءكَ فبصرُكَ اليومَ حديدْ ﴾ ق ، آية ٢٢ .

﴿ وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ مما تعُدُّون ﴾ الحج ، آية ٤٧ .

﴿ فمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهْ ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شرَّاً يرهْ ﴾ الزلزلة ، آية ٧-٨ .

﴿ يأيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمْ ، إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم ، يومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرضَعَتْ وتضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكارى وما هُمْ بسُكارى ولكِنَّ عذابَ اللهِ شديد ﴾ الحج ، آية ١-٢ .

مقتطفات من نهج البلاغة

من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام):

أَوّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الأخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الأخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَة أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوف أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ،وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، [وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ،]وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.

من خطبة له تعرف بالشِّقْشِقِيَّة :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَة عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فيهَا الكَبيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ .

فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرتُ وَفي الْعَيْنِ قَذىً، وَفي الحَلْقِ شَجاً، أرى تُرَاثي نَهْباً، حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فلان بَعْدَهُ.

ثم تمثل بقول الاعشى:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا   وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لاخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ! ـ فَصَيَّرَهَا في حَوْزَة خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ [فِيهَا] وَالأعْتَذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْط وَشِمَاس، وَتَلَوُّن وَاعْتِرَاض .

فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا في جَمَاعَة زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ. فَيَاللهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى

هذهِ النَّظَائِرِ! لكِنّي أسففْتُ إذْ أسفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه، وَمَالَ الأْخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَن وَهَن.

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإْبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ .

فَمَا رَاعَنِي إلاَّ وَالنَّاسُ إليَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِب، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ.

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَفَسَقَ [وقسط] آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: (تِلْكَ الدَّارُ الاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)، بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتَ الدُّنْيَا في أَعْيُنِهمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا!

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى العُلَمَاء أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِم، وَلا سَغَبِ مَظْلُوم، لأَلَقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْز!

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فلمّا فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أميرالمؤمنين، لو اطَّرَدت مَقالتكَ من حيث أفضيتَ ! فَقَالَ (عليه السلام) :

هَيْهَاتَ يَابْنَ عَبَّاس! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ!

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام ألاَّ يكون أميرالمؤمنين (عليه السلام) بلغ منه حيث أراد.

ومن كلام له (عليه السلام)في فضل الجهاد :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ البَلاَءُ،

وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَةِ، وَضُربَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأَسْهَابِ، وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الجِهَادِ، وَسِيمَ الخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ.

أَلاَ وَإِنّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَنَاً، وَقُلْتُ لَكُمُ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ(وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ.

وَهذَا أَخُو غَامِد قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ البَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا.

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَالأُخْرَى المُعَاهَدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا، وَرِعَاثَهَا، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً .

فَيَا عَجَباً! عَجَباً- وَاللهِ - يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرمَى: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ!

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّامِ الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمَارَّةُ القَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخُ عَنَّا الحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبَارَّةُ القُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هذا فِرَاراً مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ !

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ الحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكمْ مَعْرِفَةً - وَاللهِ - جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعقَبَتْ سَدَماً .

قَاتَلَكُمُ اللهُ ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخذْلاَن، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِب رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلْكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ .

للهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً ، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وها أناذا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتّينَ! وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!

ومن كلام له (عليه السلام):

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ :

فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا.

وَأَمَّا حَقّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ في الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالاْجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ .

ومن كلام له (عليه السلام) :

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الاْخِرَةَ .

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الاْنَاء اصْطَبَّهَا صَابُّهَا، أَلاَ وَإِنَّ الاْخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الاْخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَد سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ .

ومن كلام له (عليه السلام):

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا .

أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمُ اخْتِيَاراً، وَلكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: [عَليٌّ] يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ اللهُ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ

مَنْ صَدَّقَهُ! كَلاَّ وَاللهِ، ولكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيْلُ امِّهِ، كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَن! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ، (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين)

ومن كلام له (عليه السلام):

مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الأيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوارِيثِ الرِّجَالِ؛ فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَر، وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي المَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي المُنكَرِ.

ومن كلام له (عليه السلام):

مَا أَصِفُ مِنْ دَار أَوَّلُهَا عَنَاءٌ! وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَن افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

ومن كلام له (عليه السلام)في ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) :

طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَمْضى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ من ذلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوب عُمْي، وَآذَان صُمّ، وَأَلْسِنَة بُكْم؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ.

من كلام له (عليه السلام) في فضل القرآن :

وَتَعَلَّمُوا الْقرْآن [فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ] فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَص.

وَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَل الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عَنْدَ اللهِ أَلْوَمُ.

من كلام له (عليه السلام) في بيان أنواع الظلم:

أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ: فَظُلْمٌ لاَ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لاَ يُتْرَكُ، وظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ:

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِالله، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ).

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً .

ومن كلام له (عليه السلام):

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمانُ بْنُ دَاوُدَ(عليه السلام)، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالاْنْس، مَعَ النُّبُوَّهِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ المَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ

وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا الأُلُوفَ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ؟!

ومن خطبة له(عليه السلام) يصف فيها المتقين:

وقد مرت في مبحث «تطبيقات» فيلراجع ثمة .

ومن كلام له(عليه السلام)في الوصية بالصلاة :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) .

ومن وصية له لابنه الحسن (عليهما السلام):

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا....

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيما لاَ تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيما لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيق إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلاَلِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ المُنكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ...

يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ...

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالأَدَبِ، وَالْبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ .

ومن كتاب له(عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الانصار، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليهم:

أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْف، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إلى مَأْدُبَة، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلى طَعَامِ قَوْم، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ.

فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ.

أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ.

أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، [وَعِفَّة وَسَدَاد].

فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبي طِمْراً.

بَلَى! كَانَتْ في أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ.

وسُئِلَ(عليه السلام) عَنِ الأيمَانِ، فَقَالَ:

الأْيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، والْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجَهَادِ:

فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أربَعِ شُعَب: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَن اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْـمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ.

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ: فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأَوَّلِينَ.

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى غائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ: فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ: فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ،مَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشّقَاقِ: فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلاَلَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الّتمارِي، وَالهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ ،والاْسْتِسْلاَمِ: فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَمَن تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ، وَمَن اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالاْخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا.

أقوال مأثورة

النبي محمد (ﷺ) : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان».

النبي محمد (ﷺ) : «لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس» .

النبي محمد (ﷺ) : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فان كل ذي نعمة محسود» .

النبي محمد (ﷺ) : «ما كان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه» .

الإمام علي (عليه السلام) : «أعداؤك ثلاثة : عدوك ، وصديق عدوك ، وعدو صديقك» .

الإمام علي (عليه السلام) : «إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى مودتك» .

الإمام علي (عليه السلام) : «أشد البلاء شماتة الأعداء» .

الإمام علي (عليه السلام) : «إذا غشك صديقك فاجعله مع عدوك» .

الإمام علي (عليه السلام) : «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً لقدرتك عليه» .

الإمام علي (عليه السلام) : «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار» .

الإمام علي (عليه السلام) : «لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأدب» .

الإمام علي (عليه السلام) : «سرك أ سيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره» .

الإمام علي (عليه السلام) : «مَن قلّ حياؤه قلّ ورعه» .

الإمام علي (عليه السلام) : «ما تمّ دين رجل حتى يتمّ عقله».

الإمام علي (عليه السلام) : «مَن أطاع هواه باع دينه بدنياه» .

الإمام علي (عليه السلام) : «طريق السعادة هي أن تحب للناس ما تحب لنفسك» .

الإمام علي (عليه السلام) : «لا رأي لمن لا يطاع» .

الإمام علي (عليه السلام) : «الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر » .

من كلام عيسى (عليه السلام) : «إنّ مرتكب الصغيرة ومرتكب الكبيرة سيان فقيل : وكيف ذلك؟ فقال : الجرأة واحدة، وما عفّ عن الدرة من يسرق الذرة» .

الإمام الصادق(عليه السلام) : «الدين قبل العمل كما أن العلم قبل الطاعة».

بيار كلود لاشوسيه : «كلّما أ سرعنا ، تأخرّنا في الوصول».

جوستاف لوبون : «كثيرون هم الناس الذين لا آراء لهم سوى آراء صحفهم».

فولتير :«لا أشاركك آراءك ، ولكني مستعدّ أن أ بذل عمري من أجل أن تعبّر عنها وتحياها بحرية».

الإسكندر :«لا تحتقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير ، فانّ الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها».

نوفالس :«لا يمكن للإنسان أن يصبح عالماً قبل أن يكون إنساناً».

د.جرولد :«السعادة في بيتك ،فلا تفتش عنها في حديقة غيرك».

غاندي : «الحياة بلا دين حياة بلا مبدأ ، وحياة بلا مبدأ كمركبٍ بلا دفة» .

كتب بعض الحكماء إلى صديق له :أما بعد فعظ الناس بفعلك ، ولا تعظهم بقولك ، واستح من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدر قدرته عليك . والسلام.

قيل لفيثاغورث :مَن الذي يَسلم من معاداة الناس ؟

قال : مَن لم يظهر منه خير ولا شر .

قيل : وكيف ذلك؟

قال :لأنه إن ظهر منه خير عاداه الأشرار ، وان ظهر منه شر عاداه الأخيار.

أفلاطون : إذا أردت أن تطيب عيشك ، فارض من الناس بقولهم :إنك مجنون . بدل قولهم : إنك عاقل.

أفلاطون: «لا تطلب سرعة العمل بل تجويده ،لأن الناس لا يسألونك في كم فرغت منه ، بل ينظرون إلى إتقانه وجودة صنعه».